مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

الأخطل الصغير

الأعمال النثرية

جمع وترتيب

د. سهام أبو جودة





يصدر بمناسبة إقامة الدورة السادسة
بيروت ١٩٩٨

تصدير...

لقد كان من دواعي اغتباط مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الحصول على قدر وافر من الأعمال النثرية للأخطل الصغير، فتحقق لها ضمن إصداراتها عن شاعر دورتها السادسة، جانب كبير من إبداعه النثري إلى جانب إبداعه الشعري.

إن مادة هذا الكتاب في مجملها عبارة عن افتتاحيات كتبها الشاعر في صحيفة «البرق» التي أسسها عام ١٩٠٨ وأغلقت عام ١٩٣٢ ولم تعد للصدور بعد ذلك. وإلى جانب أسلوب الأخطل الصغير الصحفي المتأدب، فإن تقلب العهود بين الصدور والإغلاق كان مصدر إثراء آخر للمادة النثرية لدى الأخطل الصغير، الشاعر والصحفي والأديب.

وعلى هذا فإنك من خلال الافتتاحيات «البرقية» ستعيش عقداً عثمانياً كاملاً من عام ١٩٠٨ - ١٩١٨ وهو العقد الأخير من عمر الدولة العثمانية. وستعيش فترة انتقالية بين انتهاء الحرب العالمية الأولى وبدء الانتداب الفرنسي على البلاد السورية (سوريا ولبنان) وستطالع أحداث أكثر من عقدين من الانتداب. وستتنقل بين متصرفية جبل لبنان ذات الامتيازات والحماية الدولية ، وصولاً إلى إعلان «دولة لبنان الكبير» في الأول من أيلول ١٩٢٠، ومروراً بإعلان الجمهورية اللبنانية عام ١٩٢٦، وما أعقب ذلك من أحداث حتى خبت ومضات «البرق».

وإن تكن ومضات «البرق» قد خبت في مفتتح الثلاثينات من هذا القرن، وألقى بشارة الخوري الصحفي عصا ترحاله بين الورق والحروف، إلا أن الشاعر فيه استمر ليواكب ما تلى إغلاق «البرق» من أحداث، بدءاً من ١٩٣٢، وحتى إعلان الاستقلال الناجز للجمهورية اللبنانية، ولم يخفت له صوت حتى أقعده المرض بعد مبايعته أميراً للشعراء عام ١٩٦١.

ومما يدعو إلى الاعتزاز أن شاعر دورتنا هذه كان وبامتياز صحفي العروبة وناثرها المجيد ، جنباً إلى جنب مع كونه شاعرها وغريدها الصداح، لم تهن له قناة في الدعوة إلى القومية العربية ونبذ الطائفية ، ومناصرة القضايا العربية في سوريا وفلسطين والعراق وكل

أقطار العروبة التي ثارت على أيامه، ناصر الأقطار العربية وناصر الأدباء العرب وحتى الأفراد العاديين من منظور قومي وإنساني رفيع، تماماً مثلما ناصر ودافع عن قضايا لبنان الوطنية ومواطنيه، معلياً شأن الجميع، دافعه الوحيد في كل ذلك الوحدة الوطنية والقومية، لا فرق بينهم بسبب دين أو مذهب «فمن نحن ومن أنتم» على حد قوله.

ولنا وطيد الثقة أن يسد هذا الكتاب فراغاً في موضوعه، ويعرّف الأجيال الطالعة بكفاح الرواد والمبدعين من رموزهم الأدبية خلال هذا القرن.

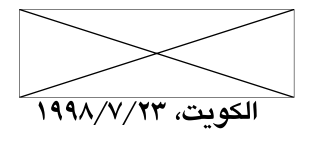
لقد كان جهداً مشكوراً قامت به الدكتورة سهام أبوجودة بجمعها مادة هذا الكتاب، فخدمت الجانب الإبداعي الصحفي والنثري للأخطل الصغير، خدمتها للجانب الشعري الغالب فيه، فلها بالغ الشكر.

كما يسعدني أن أنوه بالجهد القيم الذي نهض به الدكتور ياسين الأيوبي بمراجعته مادة الكتاب واختيار معظمها ووضع بعض الهوامش والتعليقات التي تفسر كلمة أو حدثاً وضبط كلمات الكتاب وتصويبها، وستبقى جهوده موضع التقدير والاعتزاز.

على أن الأمانة العامة لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، وقد راجعت الكتاب مراجعة شاملة ولأكثر من مرة، رأت إضافة هوامش كثيرة تتعلق بترجمات الأعلام وتوضيح الأحداث وإجلاء غموض بعض الإشارات والإيماءات ، إذ إنها وإن كانت جلية واضحة آنذاك، لم تعد كذلك بعد مرور تسعة عقود على إنشاء بعضها، الأمر الذي استوجب جهوداً كبيرة ووقتاً طويلاً واستعانة بمراجع كثيرة وبخاصة في تاريخ لبنان الحديث.

والله نسأل أن يكون هذا الكتاب نافعاً مع منظومة الإصدارات الأخرى للمؤسسة في دورة أمير الشعراء الكبير.

ولله الحمد والمنة على ما أنعم.



الكويت، ١٩٩٨/٧/٢٣

مقدمـة ..

ما أمتع أن يكتب الشعراء بحوثاً أو مقالاتٍ تتناول الحياة والمجتمع وتدخل إلى حرم الأسرار!

والأمتعُ أن يحترفوا الصحافة، ويكتبوا على صحفاتها الأولى، الافتتاحيات يَضمِّنونها خلاصات آرائهم، وزُبْدَ أفكارهم وتأملاتهم..

وأمتعُ المُتَع أن يمتلكَ الشاعر صحيفةً، ويتولى الإشراُ على تحريرها، وتنفيذ أهدافها وميولها واتجاهاتها.. لا رقيبَ عليه يَشطب ويُعدِّل أو يُلغي وتَحجب، وما سوى ذلك مما يفعله رؤساء تحرير صحف اليوم، في الكثير من المقالات والدراسات الواردة إليهم، يحذفون، ويَبترون، ويضعون العناوين التي يرتأون، فيصدُرُ المقالُ غيرَ المقال، ويُمنى الكاتب بالخيبة عوضاً عن الابتهاج.

ونادراً ما قُيِّض للشعراء مثلاك ناصبة التحرير والتصرف بنتاجهم المكتوب، بحرية وسلطة مطلقة.

وإنها نعمة النِّعم، وسانحةُ العمر، لا يَعلوها إلا نعمة الكتابة نفسها وممارستها: نقداً ودراسة وإبداعاً.

فكيف إذا جمع الكاتبُ مَجدَ النِّعمَتين، واعتلى صهوات الكلام، وبلغ فيه السِّما كَيْن؟.

ذلكم هو الشاعر الملهم، والكاتب المِغنُّ، بشارة عبدالله الخوري أو الأخطل الصغير، الذي أُوكل إلينا قراءة أعماله النثرية، وتقديمها إلى القارئ العربي الذي يعرفه شاعراً مُحلِّقاً، ويجهل الكثير من نحيال قلمه النثري، وهبه الله منه ملكاتٍ مختلفةٍ ألوانه ومذاقاته وأبعاده..

ومِن نعَم الصحافة عليه وعلينا أنها شرَّعت كلَّ النوافذ، ليُودعها مجمل كتاباته النثرية، فكانت «البرق» المصدر شبه الوحيد لهذا النتاج النثري، وعلهيا كان المعوَّل والرجوع.

طبيعة عملنا في هذا الكتاب

لا بد من التنويه – في هذا المقام – بالدور الهام الذي قامت به الدكتورة سهام أبو جودة، بجمع وتصوير معظم مقالات الأخطل التي كان ينشرها أسبوعياً، في جريدته المذكورة، منذ صدورها أول مرة في سنة ١٩٠٨ حتى ١٩١٤؛ ثم توقفت طوال سنوات الحرب الكبرى، ليُصدرها من جديد، يوميةً سياسية على مدى إحدى عشرة سنة (١٩١٨ – ١٩٢٩)؛ ثم تعود إلى الصدور، أسبوعية أدبية ما بين ١٩٣٠، و١٩٣٢.

وقد قامت الدكتورة أبو جودة بجمع افتتاحيات «البرق» طوال سنوات ثلاثٍ لإعداد رسالة للماجستير، ناقشتها في الجامعة الأميركية ببيروت في شباط ١٩٢٠ بعنوان: «الأخطل الصغير: بشارة عبدالله الخوري/سيرته وأدبه».

فقمنا بقراءة هذه المقالات، قراءة متأنية، سبَرْنا فيها الأغوار ورصدننا الفوائد، فأبقينا على معظمها، وأهملنا الباقي؛ لأنه يدخل في مسائل وأمور محلية تهم قارئ زمانها، ولا فائدة تذكر من إعادة نشرها..

وقد وجدنا في نص الأخطل شيئاً من التصحيف والكلام المحو، وبتراً في سياق الجمل، وشيئاً من الخلل اللغوي، وما إلى ذلك، جهِدْنا في تبيانه وتصويبه ما وسعنا إلى ذلك، وما سمحت لنا موضوعية النقل وأمانته، مع إشارات أثبتناها في الحواشي، وهي كثيرة: بعضها راجع إلى الأسلوب الصحفي أو ما يُعرف بلغة الجرائد التي يغلب عليها الارتجال والصياغة المتداولة.

ضبطنا النصوص جميعها، وصوَّبنا بعض سقطات القلم العائدة إلى سهو الناسخ أو الطابع، أو الكاتب نفسه، لم نشأ الإبقاء عليها تنزيهاً لقلمٍ مَتحَ من معين العربية وخبراً عرقَ أساليبها، نصائح منها الدرر في إطارَي الشعر والنثر؛ ومع ذلك فسيجد القارئ عدداً من الألفاظ والصيغ المضطربة، بقيت كما هي في المتن، وتمَّ تصويبها أو تشذيبها، في الحاشية؛ مُوفِّقين بين أمانة النقل من جهة، ودَفع التُّهم الجزافية عن الكاتب، من جهة ثانية.هذا في اللغة والتراكيب..

أما الموضوعات، فقد نحَّينا جانباً، معظم مقالاته الموسومة بعنوان: «الطائفية»، لأنها سجالات صحفية حول أحداثٍ دمويَّة جرت في غضون ١٩٢٠، قام بها طائفة من المتعصِّبين، أحدثت أصداءً أليمة، ودفعت الأخطل الصغير إلى الانتقاد، ووضع النقاط والأمور في مواضعها الصحيحة.

ومن أراد الاطلاع عليها، فهي في أعداد متفرقة من جريدة «البرق» ومنها الأعداد ١٠١٧ و ١٠٢١ و ١٠٢٨ من سنة ١٩٢٠ وأعداد أخرى غيرها.

مضامين الكتاب

تحدث الأخطل في مقالاته «البرقية» ع هموم زمانه، وانشغاله هو وإخوانه أهل الصحافة والقلم؛ كما تحدث عن قضايا العصر والمنطقة كحرية الشعوب واستقلالها، والمستعمر والانتداب، والحكومات العربية، والسلطنة العثمانية؛ وتوقف طويلاً عند القضية الفلسطينية وفصول المؤامرات الصهيونية المحوكة ضدها منذ زمن طويل؛ ومثل ذلك فعل في القضايا اللبنانية والعلاقات الأخوية مع سوريا، وما يدخل في صميم الوطن اللبناني، من هجرة، ومجالس وهيئات، ومساعٍ حثيثة لمعالجة المعضلة الطائفية.

ولم يفته الكلام على القضايا الأدبية التي دارت حولها مناقشات كثيرة بين أدباء عصره داخل لبنان وخارجه، والتي تشكل مع الباب الخاص: من بقايا الذاكرة – وجُلُّه في مناسبات أدبية حميمة – ثلث صفحات هذا الكتاب، تقريباً.

إلا أن هاجسه الأكبر، ودأبه الفكري الغالب، هما مجتمع وطني عربي لا طائفي، على درجة عالية من القيم الأخلاقية.

في البداية، كان الولاء الوطني مترجِّحاً ما بين سوريا ولبنان، تارة هو ولاء سوريٌّ عام، وتارة لبناني صرف، من غير أن يكون هناك أيُّ إشارة إلى مفهوم عقائدي حزبي.. فاطلاق الأخطل، النسبة الوطنية لسورية، مرتبط بالبيئة الجغرافية التي ينضوي فيها كلٌّ من لبنان وسوريا.

ولا ضابط عنده لهذا الولاء – فهو القائل – على سبيل المثال – «وإن الوطن

السوريّ واللبناني لم يزدهر بالعمران إلا بمال المهاجرين، من جهة، وبما نقلوه إليه من روح الديموقراطية والمعارف من جهة ثانية»[1].

ثم تأكد ولاؤه إلى لبنان وطناً لا طغيان فيه لفئة على فئة أو طائفة على طائفة؛ إلى أن انتهى به المطاف إلى مجتمع لا يدين إلا بدين الوطن والحب.

ولتكن له ديانة إنسانية كبرى موحَّدة، تأخذ من كل المذاهب والأديان، جوهرها لا قشورها وطقوسها الخارجية.

ففي مقالٍ افتتح به «البرق» يوم ٢١ تموز ١٩٢٣، العدد ١٨٨٠، كتب الأخطل تحت عنوان: «لو ملكتُ الأمر يوماً وليلة» صفحات مُضيئة، مفتتحا بأبيات شعرية للشاعر الصوفي ابن الفارض؛ أراد من ورائها التمثُّل بمضمونها وتطبيقه في مجتمعه، شريعةً لا تعرف التعصب والتزمت.. والأبيات هي:

لقد كنتُ قبل اليوم أنكِرُ
إذا لم يكن ديني على دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ
فمرعىً لغزلان، ودَيرٌ لرُهبانِ
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ
وألواحُ توارةٍ ومُصحَفُ قرآنِ
أدينُ بدين الحُبّ أنَّى توجَّهتْ
ركائبهُ، فالحبُّ ديني وإيماني..

فلو أنه ملكَ أمر وطنه يوماً وليلةً فقط، لسَنَّ كل الشرائع وجهَّز كل الوسائل والطقوس لتحقيق هذا الدين الإنساني الوجداي، قائلاً في نهاية مقاله:

«... وكان صباحٌ وكان مساءٌ. فإذا بيومَيْ سيادتي انتهَيَا، ولكنْ بعد أن جعلتُ من هذا الوطن البالي، وطناً فتياً في بُنيته، كبيراً في فكرته»..

كلُّ ذلك، ليقف في وجه الطائفية ومعوقاتها الاجتماعية، وليَحول دون وضعها في

---

(١) راجع باب: المقالات السياسية، فقرة: «في عهد الاحتلال والانتداب»

صلب الدستور اللبناني.

«.. ولا نظنُّ وظيفةً أو ظيفتين أو عشرة أو عشرين، تُضحّي بها الطوائف اللبنانية، توازي هذا العار الذي ستزداد وصمتُه توسُّعاً وقُبحاً، عندما ننزل الطائفية بمطلق إرادتنا في صُلب دستورنا.»[٢]

المنحى والأسلوب

يغلب على كتابة الأخطل طابع النقد الأدبي الساخر الذي يجمع في طياته التوعية البنَّاءة، وشَحن الأذهان والمشاعر بالأفكار والآراء التقدمية النيِّرة والهمم الإنسانية العالية، من جهة، والطرافة والعبث المتسربل بالهزء والاستخفاف والتحسُّر على غياب القيم والمبادئ الكبرى، لدى هذه الفئة أو تلك من طبقات المجتمع وطوائفه وشرائحه المختلفة، من جهة ثانية نتبين ذلك في كثير من مقالاته الأدبية والاجتماعية التي يبدو فيها باحثاً ومعالجاً لنواقص المجتمع وثغراته وحاجاته، كقوله، وهو يشخِّص واحدةً من أكبر علل التخصص العلمي وتبعات التحصيل العالي:

«فا لطبيب يأخذ من المريض ثمن الدواء وثمن العلم.

وأما المحامون فيأخذون ولا يعطون.

وأما المصورون والشعراء، فلا يأخذون ولا يعطون، إلاَّ إذا كان للخيالات ثمن، وإلا إذا كانت تصلح أن تكون دعامةً لبنيان أمَّةٍ في هذا العام الذي لا يعترف بغير المادة.

هذه هي مدارسُنا، وهذه هي بضائعها. وهي – على شديد تُخمتنا منها – لا تزال تكثر وتنمر، حتى لنخشى أن يجيئ يوم يصبح فيه لكل بيتٍ طبيبُه ولكل بيت محامحيه، ولكل بيتٍ صحافيُّه أو شاعرُه أو خطيبه.

وبعد كل هذا، إذا احتجنا إلى خيط نرتُق فيه ثوباً، شريناه من الخارج؛ أو إلى

(٢) انظر مقالته:«مباذا يبرر الطائفيون موقفهم». باب الطائفية – افتتاحية «البرق ٣٠ آذار ١٩٢٦، العدد ٢٥٦٢.

مسمار نغرزه في نَعلٍ، شريناه من الخارج..»[٣].

ما أصدقه من قول، وما أشدَّ انطباقه على الواقع العلمي الراهن!!

لئن تصدى الأخطل لهذه العلل، وبسطها بتؤدة على مشرحة النقد، فلأنه أدرك أن الأديب الحقَّ، والصحافيَّ الناجح، والمواطن الصالح، هم – في النهاية، الرجال الذين يرون العيب فيدلُّون عليه ويسلِّطلون الأضواء التي تنير جوانبه؛ ولا يكتفون بذلك، بل يحاولن ما وسعهم، رَتقَ الخروق، ودَمّلَ الجراح، وسدَّ الفراغات، وتقديم كل ما من شأنه شَيَدُ البناء على أقوى الأسس والدعائم وأسلم الأركان والجدران.

من هنا نظرتُه المخالفة لواقع حال جريدته اليومية، من إخبارية إعلامية، إلى مجلة تعنى وتُلمُّ بشتىٔ المسائل التي تتطلب معالجة جادة[٤].

أما اللغة، فله معها غير أسلوب رغير اتجاهك بحسب الموضوع والمناسبة.. تتَّسم مقالاته السياسية، بأسلوب خطابي منبري، يكثر فيه تكرار الكلام، واختصاره الذي إن ساغ للجمهور المتلقي وتبيَّنَه في لحظتها، أشكل على القارئ، البعيد عن صخب المنابر، وما يكتنف النفس من عناصر التعبئة بشتى الحواس والمدركات.

وما أكثر صيغ الانشاء الطلبي لديه، من استفهام وانكار وتعجب، وزجر ونداء وتمنٍّ وما شابه. ولا تفوتنا كلمة بعينها لا يكاد يتخلى عنها في مختلف مقالاته ومحاوراته هي : «أجَل!» التي بدَت وكأنها منطلق لأفكار ومطارحات ومعالجات تضجُّ في ذاته، فيفتتحُها ويُطلقها بـ «أجَلْ»..

على أن هذا الأسلوب الخطابي،لا يبقى على وتيرة واحدة.

فهو تارة عالي النبرة، مُزبدٌ صخَّاب لكثرة الصيغ والمصطلحات التي لا تقال إلا ارتجالاً، ومِنْ فوق المنابر..

وتارةً هادئ رصين، يصدر عن عمقٍ وتؤدة، وحرص على الوفاء بأصول

(٤) انظر مقالته «حاجتنا القصوى الي زرّاع وصنَّاع» في باب: المقالات الاجتماعية.

التعبير وتراكيبه.

أما المقالات الاجتماعية والأدبية، فتتخذ اللغة فيها منحى أكثر وجدانية وموضوعية من المقالات السياسية.. وبخاصة الباب الخاص «ببقايا الذاكرة» الذي عمد فيه الكاتب الى قدراته اللغوية المتنوعة يتبرع فيها أساليب العرض والتذكر والحوار والتحليل، يُنسِّق ما بينها، ويسكُب فيها خُلاصة تأثراته وجميل انطباعاته مع هذا الأديب وذاك، وهذه المناسبة الأدبية أو تلك، بحيث لا يتوقف القارئ عن متابعة القراءة إلا للمزيد، بسبب عنصر الطرافة والصدق الجميل في سرد الوقائع والأوصاف، وسائر عناصر التشويق الأدبي من سياقٍ قصصي مطَّرد وتراكيب رشيقة المتن خفيفة الوقع، حالية الوشذ؛ أضف إلى ذلك هذا الخليط العضوي ما بين الشعر والنثر والأمثال والحكم والأقوال المأثورة، وتلك العاطفة الصادقة التي تشع وامضة بين المقاطع والسطور.

ويقف القارئ المتأمل، حائراً أمام هذا الأديب الفذ الذي يمتشق سيف الكلام، من جهة، ويخطُّ بريشة الفن، من جهة ثانية..

فهو -أي القارئ - عندما يقرأ مقالاته وافتتاحياته السياسية ومذكراته في الحرب، وما بعد الحرب، لا يقول إنه هو صاحب «الهوى والشباب» و «الصبا والجمال» و «جفننُه علَّم الغزل»..

والعكس صحيح.. أي أنه يستبعد أن يكون الأخطل الشاعر، هو نفسه الكاتب السياسي والوطني المناضل، والقلم الحرَّ الجريء..

أيكون ذلك كله، من رَحِم الأصالة التي جعلت الأخطل الصغير، شاعراً أصيلاً وعاشقاً مخلصاً متبتلاً، ومناضلاً أبيّاً ووطنياً فارساً لا يُشَقُّ له غبار؟

لا غرو.. فقد حفلَ تراثُنا بأدباء جمعوا الرصانة والصلابة في الحياة، مع الرقة وخضوع النفس لمشاعر القلب ولُبانات العمر، كأبي تمام والمتنبي والشريف الرَّضي، قديماً، وأحمد شوقي ومحمد مهدي الجواهري ومحمود درويش وغيرهم، حديثاً..

وبوسع أي قارئ الاطلاع على عدد غير يسير من قصائد الحب والغزل لدى الشعراء المذكورين، لأنهم ذوو قلوب نابضة ومشاعر تهيجُها الأحزان ونداءُ القلب، كما تهيجها الرايات الخفاقة وغبارُ الساحات ونشيدُ النفوس العطشى إلى الحرية والسيادة في آن.. وبعد،

فإنَّ عملنا في هذا الكتاب، لم يقف عند حدود الاختيار، والضبط، والمراجعة، بل تجاوزها إلى شروحٍ وتعليقات تناولت الأحداث، والأعلام، والأماكن، والأمثال، وكثيراً من الأقوال والمعاني الغامضة.

الأمر الذي رفع من درجة جهدنا إلى قاب قوسين من التحقيق الذي لاندَّعيه بحالٍ من الأحوال.. مُلتمسين العُذر حيال كلِّ تقصير، من أي نوع كان..

راجين المولى العلي القدير، أن يُثيبنا على قدر ما نستحق!!

د. ياسين الأيوبي

طرابلس – لبنان ٢٨ مخرَّم ١٤١٩ هـ

الموافق ٢٤ نوَّار ١٩٩٨

كيف عرفت
الشيخ اسكندر العازار[١]

بين عام ١٩٠٦ - و ١٩١٤ - مكانة العازار الأدبية - تذكارات قديمة - العازار في مبازله.

ما عرفت رجلاً اجتمع له الجمال والجلال، كما اجتمعا للشيخ اسكندر العازار معتدل القامة، لطيف السمت، ناضر الابتسام، رصين الخطى، أبيض الوجه، مشرب بالحمرة، حسن اللحية، لا يتركها المقص تمتد عرضاً ولا طولاً، حاشا رأساً لها رفيعاً على شكل الإجَّاصة أو قريب منها.

ولكنك إذا جلست إليه، فقد جلست الى صناجة طرب تأخذ النكتة بطرف النكتة، والحديث بطرف الحديث، حتى إنه لا يكاد يجد جليسه منفذاً لكلمة يقولها. فهو وخليل مطران، صنوان في احتكار الحديث، على تباين نوعه واختلاف نغمه، مع تطرف قليل في الأول وتأنق كثير في الثاني.

لقد عرفت العازار وشمسه في الطَّفَل[٢]؛ فلم يسعدني الحظ بإدراكه أيام شمسه تتلألأ في متوسط الأفق.

كان العام ١٩٠٦ أو قريباً منه يوم أقيمت حفلة الأربعين للمرحوم نجيب حبيقة[٣]، وكنت قبل سنة أختلس فرصة المدرسة لأتردد على إدارة «المصباح»[٤] التي كان يرأس تحريرها؛ وكان يتردد عليها يومذاك الصديق يوسف نخلة ثابت، والشيخ سليم الدحداح، فصادفت منه عطفا كثيرا، وتشجيعاً كبيرا حتى نمت له في نفسي العاطفة التي رثيته بها.

وكانت «قاعة مار مارون» غاصة بنخبة أهل الأدب، يوم ألقيت قصيدتي في رثاء «النجيب» فما انفضت الحفلة، حتى أخذ الصديق ثابت بيدي وقال لي: لقد سألني الشيخ العازار عنك، وطلب مني أن يتعرف إليك لإعجابه بقصيدتك.

ولم ألتق بالعازار بعد ذلك اليوم حتى تركت المدرسة؛ وكانت مدرسة الفرير[٥] آخر مراحلي فأنشأت «البرق» سنة ١٩٠٨، والعازار يومذاك منصرف الى جريدة «الوطن» لصاحبها شبلي بك ملاط[٦]. ولم يأنس الى «البرق» إلا في أواخر عام ١٩٠٩، وهو العام الذي قدم فيه الرصافي[٧] إلى بيروت لأول مرة من بغداد، وكان واسطة عقدنا. ومنذ ذلك الوقت اتصل الشيخ اسكندر العازار «بالبرق» وتوثقت لنا تلك المودة، وفاض علينا ذلك النور، وشرع «البرق» يحمل الى قرائه مقاطع من خطبه العديدة القديمة والحواضر، و «الترلي ترلي» وغيرها من تلك الأطايب التي كانت خمورا معتقة.

لم يكن العازار منصرفا الى الأدب. فهو كان يأتيه لماما، نزولاً عند طلب جمعية خيرية أو تنفيساً لعاطفة، او انتقاداً لخلل. ولقد كان مع ذلك ركنًا من أركان النهضة الأدبية، لم تنطو الصحف على أسلس من عبارته، وأعذب من نكتته، وأحلى من خياله.

لقد قال لي مرارا: إنني رجل مالي أو رجل اقتصادي؛ فإذا كنت أواصل الأدب فإنها مواصلة شغف: «amateur» فكنت أغرق في الضحك لقوله عن نفسه إنه رجل مالي او اقتصادي (لم أعد أذكر الكلمة). فكان يفهم سر ضحكي، فينقلب ضاحكا معي.

والحق أن العازار شب واكتهل في إدارة «بنك سرسق» حاسباً مالياً اقتصاديا، ولكنه، لسوء الحظ، لم يكن هناك أبعد من الحساب والمال والاقتصاد، عن تصرفه.

وعلى ذكر المال هناك فقد رأت بلدية بيروت عام ١٩١٠ أن يعقد قرضاً بمئة ألف ليرة عثمانية،. فتقدمت لإقراضها هذا المبلغ، بالاتفاق مع بيت مالي في اوروبا. وكان الشيخ اسكندر يضع لي اللوائح، ويتولى الدفاع عنها، ولقد عثرت بين أوراقي على عريضة كتبها بخطه، أطلب فيها الى البلدية مهلة للبت في قضية القرض، فرأيت أن أحفرها على الزنك كأثر عزيز وذكرى جميلة، وهذه هي :

لجانب رئاستي بلدية بيروت الموقرة

المعروض لجنابكم وللمجلس البلدي الموقر، ومن مُوقِّع هذه العريضة، بشارة الخوري، صاحب جريدة «البرق» العارض إقراض البلدية مبلغا (   ) بشروط معلومة.

إنه في جلسة عقدت أخيراً، تقرر إعطائي مهلة عشرة أيام لكي يثبت المقرض اقتداره المالي. ومع أن مثل هذه المخابرات المهمة، تستلزم حصولها من البوستة[٨] لاستكمال الإيضاحات. لقد عمدت الى المراسلات البرقية، ولكن عناصر السماء حالت دون رغبتي ورغبتكم في إنجاز هذا العمل بأقرب ما يكون. فالعواصف التي هبت كل هذه الأيام، كما تعلمون، وكما لا شك قرأتم أخبارها في الجرائد، والثلوج المتراكمة التي وصلت حتى صواري – بيروت قطعت الأسلاك البرقية، ومنعت المخابرات التلغرافية، فيما أن القوة عالية سماوية، كما تشاهدون. فمن البديهي وجوب الانتظار أياماً، لا تقل عن خمسة عشر، حيثما أنتم (والعاجز)[٩] يتمكن من خدمة بلدية بيروت العزيزة خدمة صحيحة.

فالمسؤول أن تحلوا طلبي محل الاعتبار، وأرجو قبول مزيد إكرامي وإخلاصي.

٢٧ شباط ١٩٢٠

قلت: لقد اتصلت بالعازار بعد أن اصفرّت شمسه ولكنه بقي محتفظا بذلك الشعاع الضحاك، ينفذه إلى نفوس صحبه، وتلك الشوارد العطرة، يضمخ بها الجو الذي يظله.

لم يترك العازار آثاراً كبيرة، لأنه كما قلنا، لم يمارس الأدب لصنعة، ولكن في القليل الذي تركه ما هو أثمن من الدر وأنفح من العطر.

فكان كالمنهل العذب يتسابق الوراد إلى ارتشافه، أو الثمر الشهي يُدعون إلى اقتطافه.

وإنني لا أزال أحفظ من آثاره أبياتاً لي مكتوبة بخطه الفارسي الجميل، رفعتها، في عيد الجلوس[١٠] سنة ١٩١٠ إلى حازم بك والي بيروت، أستنهضه للإفراج عن جريدتي، وقد عطلها المجلس العرفي لأجل غير معين، وحكم بغرامة ستين ليرة عثمانية، وذلك على أثر ضرب السفن الطليانية مرفأ بيروت، وإنشاء مقال فُسِّر لأعضاء المجلس العسكري أني أُلمع إلى إيثار الراية الفرنساوية، وذلك في مقابلة شعرية بينها وبين

الراية الطليانية[١١]. ورأيت أن أخلد هذا الأثر بالزنك، للدلالة على ذلك الحب الصادق، والعطف الكبير اللذين كان يحيطني ذلك الصديق بهما – أما الأبيات فهي هذه:

مولاي

أبـــا بـــكــــرٍ ظَـــلــــمْتَ وأنتَ والٍ
فـــرُدَّ لـــنـــا زمـــانَ الـــراشـــديـــنـــا
أُخــــذتُ – وأنـتَ تَــــعـــــلمُ – دون ذَنبٍ
وسَلْ مَنْ شـئْتَ يُـخـبـركَ الـيَـقـيـنـا
فـإنْ أكُ مُـذْنـبـاً – لا كُـنْتَ (لـيـهـا)
فـإني جـاعل رأسي ضـمـيـنـا
وإن أنـا لـم أكنْ إلاّ بـريـئـاً
أعِـنـدكَ أنْ أكـونَ ولا تـكـونـا؟
يـعـزّ عـلى الـعـدالـة أنْ تَـراني
فـتُـغـمض من تـأثـرهـا الـعـيـونـا
ولـــولا أنـتَ والأمـلُ المُـرَجّى
لـكـانت َتـملأُ الـدنـيـا أَنـيـنـا
أتى عـيـدُ الجـلـوسِ فـأيُّ شـعـرٍ
إذا يُـنـشَـد سـمـعتَ لهُ رنـيـنـا
أيـنَـطـلقُ الـغُـرابُ عـلى هَـواهُ
ويـبـقى الـبـلـبلُ الـشـادي سـجـيـنـا؟
ويُـجـزى المخـلـصـون كـمـا جُـزيـنـا
وَيـشـقى الـصـادقـون كـمـا شَـقِـيـنـا؟
وعَـدْتَ الـعـفـوَ مُـدَّ لهُ يمـيـنـاً
فـيُـكـرمَـهـا أمـيـرُ المـؤمـنـيـنـا[١٢]

بشارة عبدالله الخوري

صاحب البرق

بيروت ٢٧/١٤ نيسان ١٩١٢

لم أدرك العازار خطيباً يرقص المنابر، بل لم أدركه محفلاً من تلك المحافل الخطابية التي تاهت بها بيروت على سائر المدن العربية، فقد سكت العازار وسافر فياض، وطراد وخار البستاني والحوراني وغيرهم من إخوانهم، وأنا بعد ضمن، جدران المدرسة. لقد جئت في الزمن الأخير ولكن «ما يرى وما لا يرى» و«زمور فرنكلان» و «جرائدهم وجرائدنا» وأخيرا هذه (الحواضر)[١٣] التي كانت سمر الأدباء وفاكهة الندامى، ثم تلك المقاطع الشعرية البارعة، تكفي لتضع العازار في المقام الأول بين أدباء عصره وقادة الأدباء من بعده.

وبعد فاسمع إلى هذه النغمة الناشئة من شعره:

يا ترابَ الحبيب فيكَ فتاةٌ
كلُّ أرواحنا تَحِنُّ إليها
هي كانت عليكَ ألطفَ ظلٍّ
أيها الترابُ لا تُثّقلْ عليها

وكانت قد ملكت عليه السوداءُ مشاعره، فأدمن على الشراب[١٤]، فكان ينهض من نومه، ليستحمَّ ويلبس ثيابه، فيجلس قليلا إلى مكتبه، ثم يخرج من البيت فيُعرِّجُ على صيدلية صديقه رشيد أفندي بدُّورة على مفرق المخلِّص، فيأخذ كأساً من «الأمير» (وكان هذا شرابه) ثم يمر بصيدلية (اختيارنا) داود افندي نحول فيأخذ كأساً أخرى، حتى يصل الى إدارة «البرق» حيث يكون (كل شيء جاهزا) فيبدأ عمله نقرة في القرطاس ونقرة في الكاس.

ولم يكن العازار، على ما يتوصمه[١٥] الناس، ملحداً. فلا أذكر أنه جلس على الطعام إلا وقد رسم إشارة الصليب. وكان لا يغفل ذلك – وقد قاله لي – عندما يجلس الى طعام، عليه غير النصارى. وما برحت أذكر إشارته، عندما كنا نأكل في الإدارة بيضتين مسلوقتين، مع قليل من النعنع الأخضر وشيء من الزيتون الأسود.

ما عرفت رجلا أخف روحاً من العازار، ولا ألمع نكتة؛ ونوادره كثيرة لا يتسع لها المجال هنا. ولكنني سأصطادها السانحة بعد السانحة.

ولا أذكر حادثاً وقع لي معه، إلا وقد ضحكت لنفسي – جاء الإدارة يوماً بعدما مر (ببدُّورة ونحُّول) وأطال الإقامة، وكانت الإدارة مقفلة بفرصة الظهر؛ وقد رحبت وهو بعد لا يزال على السلم؛ وإذا آثار بول على الحائط قرب الباب، فنظرت إليه وضحكت. فقال «جيِتْ ما شفتك. حطَّيْتلَّكْ كارت ڤيزيِتْ».

هذا ولا أنسى – وكنت لا أزال في جنون الصِّبا – كيف كان يُعنى الصديقُ العازار «بالبرق» عناية الجدِّ بحفيده الصغير؛ يعينه عليه الصديق الأوفى والكاتب القدير: يوسف أفندي نخلة ثابت؛ حتى لَيَستمرًّا الأسبوع والأسبوعين، دون أن يعلما على جناح أيِّ سحابةٍ أنا طائرٌ، أو في قلب أيِّ مهواةٍ أنا غائر.

ألا رحم الله ذلك البدر الذي أنار أفق الأدب العربي حقبةً من الدهر، وما برح يُرسل شعاعه من خلل ذلك القبر المكفَّن بوفاء هذا القلب وحنانه، ورحمة الله ورضوانه.

البرق، ١٩٣٠، عدد: ٣٣٦١، ص : ٦ – ٧

****

كيف عرفت
معـــروف الرصـــافي[1]

سبقت معروف الرصافي شهرته إلينا، بما كانت تنشره له صحف مصر، قبل إعلان الدستور[2]، من غرر القصائد، تنبعث منها لفحات الحرية، ويتطاير عن جوانبها شرر الوطنية، حتى اعتقدنا أن معروف الرصافي اسمٌ مستعارٌ لشاعرٍ عراقي كبير، وإلا فكيف يجسر رجلٌ يظله خيال عبدالحميد، ورجال عبدالحميد، على بعث هذه الثورة في قلب البلاد العثمانية، وينفخ في موقد الإصلاح الإسلامي، في بلدٍ كبغداد حيث تسود الرجعية الدينية وتطغى؟

فإذا أنت قرأت له في «سجن بغداد» وهي من أبرع قصائده:

بـلادٌ أنـــاخَ الــذلُّ فـــيـــهـــا بـــكَـــلـــكَلٍ

عـلـى كل مــفــتـول الــسِّــبـالــين أصــيْــدِ

ثم إذا قرأت له قصيدته «التربية والأمهات» :

وقـــالـــوا شِـــرعَـــةُ الإسلام تـــقـــضـي

بـــتـــفـــضـــيل الـــذين عـــلـى الـــلـــواتي

لـــقـــد كـــذبـــوا عـــلـى الإسلام كِـــذبـــاً

تـــــزولُ الـــــشُّمُّ مـــــنـه مُـــــزلْـــــزلاتِ

شككتُ في أن يكون الرصافي اسماً من لحم ودمٍ، يُستهدف لنقمة السلطان ومن تحت قدميه البوسفور، ثم لِمَنْ في بغداد من الرجعيين وهم حَربٌ على رجال الإصلاح، يخشون منهم أن يقطعوا ما بينهم وبين العامة، فيهوون صغارا ويموتون جوعا.

ولكن معروف الرصافي لم يلبث أن قدِمَ بيروت في أوائل شباط سنة ١٩٠٩،

فاجتمعنا إليه لأول مرة في «قهوة البحر» وقد ذهبتُ إليها مع الشاعر المعروف أسعد أفندي رستم[٣]، فإذا هو يحيط به الشيخ رشيد رضا[٤] والمرحوم الشيخ محيي الدين الخياط[٥] والشيخ مصطفى الغلاييني[٦] والمرحوم الشيخ محمد ياسين ومحمد أفندي الباقر. ولقد كان الرصافي، كما هو في هذا الرسم[٧] ، مجبباً معمَّماً، فذكَّرنا مجلسه معنا، تلك المجالس التي تقرأ عنها في كتب الأدب، عندما كان يجلس النابغة بين شعراء المدينة، ينصتون إليه ويقومون على تبجيله.

ولقد كان الرصافي، على ما أذكر، يَطرَب لطريقة رستم، حتى كثيرا ما كان يقاطعه قائلا: هذا هو الشعر!.

ولكنَّ الرصافي الشاعر، يفي الكأس كما يفي القرطاسَ حقه. فما لَبثنا أن انتزعناه – ممتناً – من حلقةٍ قطبها **الشيخ رضا**، إلى حلقة أخرى قطبها العازار، وما أدراك بالفرق بين الحلقتين.

وكان «الكلوب» وهو مكان يجابه «مدرسة الثلاثة أقمار» مقراً ليلياً لنا، ونحن عصبة من أعضائها المرحوم الشيخ يوسف أبي صعب، وسعيد صباغة، وإميل خوري، وأسعد رستم، وديب العم، ويوسف نخلة ثابت وجرجي نخلة سعد، وأمين تقي الدين، والياس فياض، صيفاً، لأنهما كانا يشتوان في مصر، وغيرهم من الأدباء وعشاق الأدب. ولا تزال تلك الليالي أعذب ذكريات الماضي، لجميع الذين ترشفوا زلالها وتفيأوا ظلالها.

ولم يطل الرصافي مقامه في بيروت، لأنه كان في طريقه إلى الآستانة، وقد دعي إليها ليتولى إنشاء جريدة «إقدام» العربية. ولكنه لم ينقطع بروحه عنا؛ فلقد جعل «البرق» روضته ينشد فيها أغانيه الخالدة. وكان أول ما تلقيناه منه، عن الآستانة، الرسالةُ الآتية المؤرخة في ٣ شباط، سنة ١٣٢٤ هـ[٨] ،[الموافق للعام ١٩٠٦/١٩٠٧م.]، ينشرها البرق بخط الرصافي[٩].

وعاد الرصافي من الآستانة، في أواخر آب ١٩٠٩، فأقبل توّاً على إدارة «البرق» –

عادة معظم أدباء ذلك العهد. وكنا ساعتئذٍ نَهِمٌّ بنزهةٍ في الجبل. فلم يتردد الأستاذ في قبول دعوتنا، لا سيما وقد كان الريحاني[١٠] في الفريكة؛ فأطبقنا به واحتللنا صيوانه[١١] وقد كان يصحبنا الفكه المرحوم الياس خليل شديد، يمتعنا بنكاته حيناً وبصوته حيناً.

في الحق، إنها متعة الأنفس ومشتهاها: «الرصافي والريحاني» يتلاقيان لأول مرة، تحت وابلٍ من الأحاديث العلمية، والآراء في الألوهية وتأثير القمر بالجاذبية، ومكان المرأة الشرقية من الرجل، إلى ألف «ضربة» أخرى؛ لا بل نسيتُ وقفتهما أمام مكتبة المُضيف العزيز[١٢] برهةً، يتناوبان كتبها.

لا أكذب.. إنها نبراتهما كانت تقع في أذني، وأنا ورفيقُنا جالسان إلى سفرة اعتنت بها سيدة المنزل الجليلة أيما عناية، فكانت كؤوسنا تُقهقه سراً وعلانيةً، حتى أيقظتْهُما من ذلك البُحران، فهرولا إلينا وشاركانا بما لدينا.

وودعنا الريحاني في الصباح، نضربُ إلى بيت شباب، فبكفيا، فالشوير، فبْحَنِّس، وقد اجتمعنا فيها بالمرحوم الشيخ كنعان الضاهر، وكان يومئذٍ قائمقام المتن. ثم هبطنا بْعَبْدات عند الظهر، فسرنا إلى منزل المرحوم نعوم اللبكي[١٣]، فكانت لنا فتكة بالكُبَّة والبصل. ولم يُفلح معنا غيرهما من ألوان الطعام، حاشا الجبنة الخضراء والقهوة البيضاء.

ولم نكد ننزل إلى بيروت، حتى تلقيتُ من الصديق الريحاني الرسالة الآتية، ولقد رأيتُ لها مجالا هنا.

عزيزي بشارة

إن يوما قضيته عندنا مع شاعرنا الرصافي المحبوب وذاك (الشديد) المضروب، لكوقفة الحسون على غصن الزيتون.

أما «البرق» فلا يفوتُك إرساله مع الموزع، كي لا يضيع في المدينة عند الأصحاب.

وما من أحد يكره البرق في الظلمات. ولا لوم على مَنْ يختطفُ مثل هذه الجريدة. فإن بعض الأشياء المقدسة مُتسامحٌ بسرقتها، في بعض الأحيان. و «البرق» عندي من هذه الأشياء. فإني وإن كنتُ لا أجد فيه دائما ما أتمناه، أنسى، عندما أطالع صفحاته المتقنة المرتبة الجميلة الظاهر والباطن، ما يتطلبه العقلُ دائما من بنيه والحقيقةُ من أنصارها. على أنكم لم تقصروا، والله في خدمة الاثنين ونصرهما. قوّاكم الله ووفقكم في جهادكم.

صديقكم أمين

وعاد الرصافي إلى بغداد. وكنتُ قد اقترحت عليه إثر نزولنا من الجبل، نظم قصيدةٍ في لبنان. فما هو أن استقر في بغداد حتى جاءني منه كتابٌ أشار فيه إلى هذه القصيدة؛ فرأيت إثباته هنا بخط صاحبه، لترى حكومةُ اليوم، أننا منذ ذلك العهد، ونحن نعمل في سبيل لبنان، وتحبيب الناس بالاصطياف في لبنان، دون أن نمس خزينة الحكومة كما هو حادث الآن.

ولقد كان للقصيدة التي نظمها شاعر العراق في لبنان وقعُها المستحب؛ فتناقلتها الصحف في سوريا، ومصر، وأميركا، حتى اقترح بعضها إقامة حفلة تكريمٍ للرصافي في مدينة بيروت، ليعرب له اللبنانيون عن شعورهم نحوه وتقديرهم تلك العواطف الطيبة التي ترقرقت على قصيدة الجميلة؛ فحال دون ذلك أسباب لا نذكرها. ولقد كنا نقترح على الحكومة اللبنانية أن تمنح الرصافي وسام الاستحقاق اللبناني أسوةً له بشوقي وحافظ، لولا علمُنا بشذوذه في مثل هذه الأمور.

وبعد فهذا كتاب شاعر العراق.

أخي ومولاي

أخذت كتابك، فطربت لصدق إحساسك، وعلو تصورك، ونزاهة مقالك. وها هي سيكارة أمامي، يتصاعد دخانها في الفضاء وخيالك نصب عيني، غير أنه يتلاشى في

بحر دخانها في الفضاء.

وقد أخذت تلغرافك أيضا، قبل كتابك ولم أجبك عليه، لأني على وشك السفر إلى بلادك ولأني أخذت عدة تلغرافات من مفاخرٍ[١٤] بك وأجبته عليها. أما تأخري عن السفر فلعدم وجود عربيات في بغداد. فأنا أنتظر ورود بعض العربيات من حلب الشهباء على ما يقولون قريبا ونسافر.

كتبت على غلاف رسالتك : (لا تنس قصيدة لبنان) وما كنت لها ناسياً ، ولكن الشواغل كانت مانعة عنها. غير أن كلمتك هذه منحتني قوةً تغلَّبتُ بها على تلك الشواغل فراجعت شيطاني في الشعر، فطاوعني حتى أخذت أكتب قصيدةً تم منها الآن زهاء أربعين بيتا. غير أنها لم تستوف المرام بعد بتمامه. وأنا أذكر لك هنا شيئا عنها تستأنس به حتى إذا ما تمت أرسلتها إليك، أو جئتُ بها معي هدية.

من نسيم جو العراق الهاب على شطوط دجلة والفرات، أبى شيطان الشعر إلا أن أقدم شيئا من النسيب في هذه القصيدة فقلت في مطلعها:

برزت تميس كخطرة النَّشوانِ

هيفاءُ مخجلةٌ غصونَ البانِ

وبعد أن كتبت عدة أبيات في النسيب، تخلصت إلى ذكر لبنان فيها بقولي:

لم أنس في قلبي صعودَ غرامها

إذ نحن نصعدُ في ربى لبنانِ

وهنا وصفت لبنان بأبيات ثم أخذت أخاطب صاحبي بشارة والياس[١٥]، بقولي:

يا صاحبيَّ أتذكران فإنني

لم أنس بعد كما سرى النسيان

إذ كان يغبطنا الزمان ونحن في

وهنا أخذت أَهيمُ في وديان لبنان، وهضابه ضارباً صفحاً عن ذكر «حوملٍ والدَّخول» إلى ذكر «بيت شبابه» و «بكفياه»[١٦] وعن ذكر «الغدير» إلى ذكر «الشوير» تخلَّصت إلى ذكر أهل لبنان بقولي:

تلك الربى أمَّا الجمالُ فواحدٌ
فيها وأمَّا أهلُها فاثْنانِ
رَجلٌ يَسيرُ إلى النجاح وآخرٌ
يسعى وغايتُه إلى الخُسرانِ

وأخذت في هذا الموضوع بما ستقرؤه ولم أدر هل أسقط هنا في سخط أهل لبنان الكرام أو في رضاهم.

وصلتني أعدادُ «البرق» وقدَّمتُ الأعداد الخمسة منه، إلى جميل أفندي الزهاوي[١٧]، وهو يشكركُ ويقرئك السلام، كما يقرئك السلام مشغوفاً بكل حب واحترامٍ، محبك وأخوك.

معروف الرصافي

٢٣ تشرين الأول: ١٣٢٥هـ/ [١٩٠٧م.]

ولم يُقم الرصافي في بغداد طويلاً، حتى أبرقنا إليه بالحضور، بناء على برقية من الآستانة، تأذن بتعيينه أستاذا للعربية، في مدرسة الحكومة، مع تحرير جريدة كان قد أزمع على إصدارها باسم «سبيل الرشاد». فنزل الرصافي في بيروت على قلوبٍ تشتاقه وترتقبه. وكنتُ قد هيَّأتُ مجلساً في «الكلوب» جمعت فيه بين الشيخ عبدالله البستاني[١٨] وبينه، فكانت حلقة بديعةً، كتبت على أثرها في «برق» ٤ ك١ من عام ١٩٠٩ هذه الشاردة:

«هي ليلةٌ التقى فيها الرصافي والبستاني. وكان «الكلوب» نقطة الدائرة».

وكنَّا، باركَ اللهُ – نحواً من خمسة عشر (ذاتا) – على لغة لبنان الرسمية – وكاد يُوحشنا شيخُنا العازار لولا الذي أنشده داود مجاعص وإميل خوري من شعره،

ووقف له الرصافي إعجابا[١٩].

وشرب البستاني نخب زميله، فقال:

إني لأشربُها على ذِكر امرئٍ
هو بالبلاغة والنُّهى معروفُ
إن كنتَ تنكره فليس بضائر
أبداً عليه، فإنه معروفُ

فرد عليه الرصافي بقوله:

إني لأشربُها على شرف الذي
الفضلُ فيه ليس بالمُتناهي
إن الفصاحة والبلاغة والنُّهى
والفضلَ أجمع، عند عبدالله

ثم كانت ليلةٌ أخرى، حضرها العازار وأنشدنا الرصافي فيها قصيدته «العالم شعر» فما هو أن انتهى منها حتى استكتبنا العازار هذين البيتين:

«ألا إنَّ هذا الشعرَ من أبدع الشعر»
فلا تعجبوا إن كان في شعره سُكري
ولا تعجبوا إن كنتُ أهواه إنَّهُ
«عيونُ المها بين الرصافة والجسر»[٢٠]

ومضت لنا ليالٍ على هذا النمط. حتى إذا هَمَمنا بالانصراف، نادى «أبو متري» «قيِّم الكلوب» بالخادم «فُوْت عالأُوضة كنِّس أشْعار»!

ولقد جمعت بين الرصافي والبستاني والعازار، في رسمٍ واحد، فكان أحسن أثرٍ في تاريخ الأدب العربي. وقد ظهر فيه الرصافي بالبذلة الإفرنجية التي كان يرتديها عند خروجه من بغداد، حتى إذا عاد إليها، عاد إلى جُبّته وعمِّته.

وقد كتب الشيخ عبدالله، تحت هذا الرسم، هذين البيتين:

إنْ نِلْتَ يا بَيْنُ مِنْ أجسادنا طَبَعَتْ

فيها، لشاكي النوى الأنوارُ أشباحا
تخالُ أرواحَها رُوحاً إذا اجتمعتْ
وإن تناءتْ تَخالُ الروحَ أرواحا

وأصبح الرصافي بعد ذاك، مبعوثاً[٢١]. وغامر مع مَنْ غامر في السياسة، فأصبح مقامُه في بيروت، كما يحط الطائر على الغصن. ولكنه كان لا يزال يحمل لواء الشعر العالي في الشرق العربي. غير أنَّ خروجه من بغداد، وملامسته الحضارة الغربية رقّقت من ديباجته الأولى، فلم يزد ذلك من قيمة شعره القديم الذي انفطر عليه فهو ما برح عندي شاعر «السجن في بغداد» و «التربية والأمهات» و «أم اليتيم» و «العالم شعر» و «اليتيم في العيد» و «الصديق المضاع».. وكلها مما نظمه الرصافي يوم كان عندنا «اسماً مستعارا» لشاعر محجوب. هذا عدا قصيدة «اليتيم في العيد»: فلقد بدأ بنظمها في الآستانة لسفرته الأولى إليها، وأتمها في النزهة القصيرة التي صرفناها معاً في الجبل.

وإنه ليؤلم الأدب والأدباء، أن يكون حظ الرصافي، ذلك الشاعر الذي حمل بقصائده الثورية على العرش الحميدي، وهو في قلب بغداد، أيام كان معظم القائمين في الأمر هناك، يتهالكون على نظرة رضىً وتعفير جبينٍ، أجل: إنه ليُؤلم الأدب والأدباء، أن يكون الرصافي مغموطاً حقه، مجنياً عليه؛ ولا يأكل الآكلون اليوم، سوى الفتات التي كانت تتساقط، في ذلك العهد المخيف، عن موائد الصحف الحرة والأقلام الحرة؛ فأين همُ الذاكرون؟.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣٠، عدد: ٣٣٦٤، ص: ٩٠٨

****

البـــاب الأول

من بقايـا الذاكـرة

ابيض

كيف عرفت إمام العبد[١]

تذكارات عن إمام العبد الشاعر المصري الشهير.

مكانة إمام العبد عند أدباء سوريا بين ١٩١١/١٩٠٨ .

آخر رسالة خطها إمام العبد قبل موته الى صاحب البرق.

إمام في سوريا

لم يكن لشاعر من شعراء مصر بين ١٩٠٨و ١٩١١ ما كان لإمام العبد في نفوس أدباء سوريا، فهو و ولي الدين يَكَنْ[٢] قد شغلا مكمن الحس منهم، واستقلا[٣] بعاطفتهم. وكانت تربة الأدب عهدئذٍ بِكراً تتفتح عن أزهارها الطاهرة الطيبة فجنيا ما طاب لهما منها.

ولا غرو إذا كان الأدب السوري وهو يومذاك في ميعة الصبا أن تستهويه تلك الألوان الجميلة ينسجها الخيال، والأنغام العذبة يوحي بها الجمال، والأنات الدامية ينفثها الفؤاد الممتحن بالحب والبؤس. أجل لا غرو إذا استهوى ولي الدين وإمام العبد تلك القلوب الفتية في سوريا ولبنان، القلوب المفعمة بالخيال، الساجدة للجمال وهما إنما يضربان على أوتارها وينزلان على اختيارها ولقد تنجح المقالة في المرء إذا صادفت هوى في الفؤاد.

قلنا إن إماما وولي الدين كانا أحبَّ شعراء مصر الى أدباء سوريا وأكثرهم رواجا عندهم، ولكن هذا لم يؤثر على المقام العالي الذي استقل به أقمار مصر الثلاثة شوقي[٤] وحافظ[٥] وخليل[٦] وما برحوا يستقلون به حتى يومنا هذا، وإنما كان ذلك لانصراف الأقوام بعد الحرب العالمية، إلى المادة لا لانشغافهم بها، بل لتوعر مسالك الحياة وقلة موارد المكسب على كثرة مطالب المعاش.

لنعد إلى إمام! فنحن إنما أردنا بعث ما بقي في زوايا الذاكرة من حديثه، ونشرنا ما انطوى من آثاره، وعندنا منها رسالتان: إحداهما آخر ما خطته يده قبل موته، وقد نمّت سطورها عما كان يكنه «للبرق» من عاطفة نبيلة، ونحن بعد، لم نقم نحوه بكل ما استحقه أدبه وظرفه.

ولقد كان في نية إمام أن يزور سوريا، لما أحسَّه وهو في مصر، من استلطاف أدبائها شعره، واستخفافهم روحه؛ فما كدنا نهيئ له هذه الرحلة، مع فريق من الأصدقاء، حتى فاجأنا خبر مرضه، ولم يلبث أن فاجأنا خبر وفاته[٧] رحمه الله.

كلمة أمين تقيّ الدين[٨]

ولقد حمل إلينا بريد مصر على أثر نعيه، رسالة من صديقنا الشيخ أمين تقي الدين، نشرناها بتاريخ أول نيسان ١٩١١ قال فيها:

«كان إمام في نحو الثالثة والثلاثين الى الخامسة والثلاثين من العمر، طويل القامة وممتلئ الجسم، عريض الأكتاف، عريض المنكبين، منبسط الصدر نافره، أسود فاحم «بالطبع» كبير الشفتين، مقلوب السفلى، ضخم العليا، يبتسم حقيقة عن عقد من اللؤلؤ! تصور أي عبد من العبيد، فتتصور إمام العبد»

«كان يتردد عليَّ كل صباح، الى إدارة تحرير جريدة «الظاهر» فيتغدى الفول المدمس: وجاءني في أحد الأيام؛ فاستصحبته الى طعام الغداء في منزلنا هنا. فأكلنا وكنا: الشيخ الخازن وسامي جريديني المحامي[٩] والياس فياض[١٠] والسيدة صاحبة البيت؛ فلما عرَّفناها بإمام، قالت «قرف» على الشعر الذي يخرج من بين هذه الشفاه!!!».

«أما أخلاقه، فلم يكن منها عبدا بكل قوة هذه الكلمة. إن الوسط الذي عاش فيه – وهو مولود في مصر – هذب قليلا من فطرته العبدية.

فإمام كان وفيّاً، وكان سهلا رضيّاً. وكان ذا مروءة حقيقية. أمّا ذكاؤه، فرآه الناس عظيما، لأنه عبد أسود، وليس يعرف الناس الذكاء في العبيد. أما أنا، فأرى أن

درجة ذكائه كانت متوسطة بالنسبة الى الذكاء الذي يصح أن يسمى ذكاء. قال الشعر، فقاله جيداً غير أن عبديته ذهبت بحسانه».

«حدَّثني حافظ مرة قال: أقص عليك حديث ابن الكلب، إمام العبد «وابن الكلب كلمة تحبب مألوفة في مصر» قال: كنت أتمشى في حديقة الأزبكية، فمر إمام في الشارع، فلمحني؛ فدخل الحديقة وجاء إليّ يقول: بكم تشتري مقالة سينشرها «المؤيد»[11] غدا تظهر عيوبك في شعرك وسرقاتك، سرقة سرقة؟: فقلت، ومن الكاتب؟ قال إمام: أنا! فوبخته. فما ارعوى. فساومته على المقالة لا خوفاً منها، ولكن تجنباً لفتح هذا الباب، لأن الهجامين كثيرون في مصر، ثم دفعت الثمن ريالين، فمضى وهو يقول: نجحت الحيلة! يعني أن إماماً لم يكن كاتبا تلك المقالة».

«عندي من شعره قصيدة واحدة، أُعجبتُ بها كثيرا، قالها إمام في شاب توفي مسلولا أذكر منها قوله:

أيُّـــهـــا المـــوتُ لا عَـــدِمْـــتُكَ خِلاً
طـــالمـــا أنـــقـــذَ الـــفـــتى مِنْ عـــذابِهْ

وقوله في وصف ضعف المسلول:

كـــيف تـــقـــوى كـــفَّـــاه في مَـــوقفِ الـــعَـــر
ض إذا كَـــلَّـــفـــوه حَـــمْلَ كِـــتـــابِهْ؟».

كلمة عز الدين صالح

وعندما اطلع حضرة عزالدين أفندي صالح، وكان من أصدقاء «البرق» يومئذٍ، على مقال الشيخ أمين، بعث إلينا بكلمة في الموضوع قال فيها:

استحسن الكاتب قصيدة إمام التي قالها في شاب توفي مسلولا، وهو بيومي أفندي ابراهيم، صاحب جريدة «التمثيل» الذي كان محررا بجريدة «الظاهر» مثل كاتب الترجمة. فأحببت أن أطلع قراء «البرق» عليها لرقتها، قال إمام:

عَـــشِقَ المـــوتَ مـــكْـــرهـــاً في شـــبـــابِهْ
رُبَّ مـــوتٍ تَـــحـــارُ في أَســـبـــابِهْ

قــبلَ أنْ يــدفــنــوهُ في الــرَّمسِ مَــيْــتــاً
دَفَــــنــــتْهُ الأيـــامُ في جِــــلْـــبـــابِهْ
فـــــاذا رُمْتَ أن تَــــــراه بِـــــعــــــيْنٍ
لا تَـــرى غــــيـــرَ أَنَّــــةٍ في ثـــيـــابِهْ
لــو تَــمــنَّى مــكــانَــةَ المــلكِ وهْــمــاً
لاكْــتَــفى بــالــنــحــول عن حُــجَّــابِهْ
كـــيف تَـــقـــوى كـــفَّـــاه في مـــوقف الـ
عَـــرْض إذا كـــلَّـــفُـــوهُ حَـــمْلَ كـــتـــابِهْ
كــاد يــجــتــاز الــعــزيمــة بــحــراً[١٢]
مـــزج الـــدهـــر لـــؤمه بـــعـــبـــابه
أيـــــهـــــا المـــــوت لا عـــــدمـــــتك خلا
طـــالمـــا أنـــقـــذ الـــفـــتى من عـــذابه

لا أوافق كاتب ترجمة إمام، «بالبرق» في قوله: إن درجة ذكائه متوسطة، لأن ذكاء إمام الفطري، أكثر من ذكاء حافظ ابراهيم، والمنفلوطي[١٣]، ومحرم[١٤] وغيرهم، من أكبر شعراء مصر الذين يزينون أشعارهم بثوب اللغة القشيب. وإذا أراد أن يعرف درجة ذكاء إمام، فليبحث عنها في مجالسه الأدبية حيث تتدفق النكتات من فمه تدفق السيل. وأقسم: لو كان إمام في إنكلترا، لكان رئيس تحرير جريدة.........[١٥] ؟ التي تمزج الجد بالهزل.

خذ! هذه بعض نكاته التي لم تنشر في الصحف، قالها إمام عن نفسه:

شَدَّ عنقه يوما بربطة سوداء؛ فقال أحدُ إخوانه، لمَّا رآه هكذا، حسب قميصه غير مزرر، فطلب منه أن يزرره. وجلس يكتب، فسقطت نقطة حبر أسود على القرطاس، فقال يومئذٍ، إنَّ جليسه قال له: (نَشِّفْ عَرقَك)!

وأراد يوما أن يذهب الى البيت، وليس في جيبه نقود. فركب عربة، حتى إذا وصل الى داره وولجها، أطل للسائق من النافذة وقال له: «يا عربجي، سيدي مش عاوز يركب»!.

ولإمام، قصائد من الطراز الأول في القريض، منها «عينيتُه» في مدح الخديوي والزنجية الحسناء. وقد أراد أن يعارض نفسه في هذه القصيدة، فنظم غيرها يتغزل في غادة بيضاء. قال في ختامها:

أنتَ عــــبـــــدٌ والــــــهـــــوى أَخـــــبــــرَني
أَنَّ وَصْلَ الــــعـــــبــــدِ في الحب حـــــرامْ
قـــلـتُ يـــا هـــذي أَنـــا عَـــبْـــدُ الـــهـــوى
والــــهـــوى يَـــحْـــكُم مـــا بـــين الأنـــامْ
وإذا مــــا كـــــنـتُ عـــــبـــــداً أســــوداً
فـــاعـــلـــمي أني فـــتى حُـــرٌّ الـــكلامْ

إني أعتقد كما يعتقد كاتب ترجمته[١٦] في «البرق» «أن عبديته ذهبت بمحاسنه» وقد أقام الكاتب البراهين على ذلك. غير أني أعتقد، في الوقت نفسه، أن عبديته، قد نفعته من الجهة الأخرى. وأنَّى لإمام، لو لم يكن عبداً أن يقول: أنا ليلٌ وكلُّ حسناءَ شمسُ.

ويقول في مطلع قصيدة رثاء البارودي[١٧]:

فِـداكَ أبي، لـو يُـفـتـدى الحـرُّ بـالـعـبـد

ويقول في رثاء الأستاذ الإمام[١٨] : (لبستُ حِدادي فيكَ مِنْ قبل نشأتي)

ويقول في الشكوى:

نَــســبــوني الى الــعــبــيــد مَــجــازا
بــعــد فـضــلي، واسـتـشـهـدوا بـسَـوادي
ضـــاع قَــدْري فـــقـــمت أنـــدبُ حـــظي
فـــســـــوادي عـــلـــيه ثـــوبُ حِـــدادِ

ويقول:

وسـوداءَ كـالـلـيل الـبـهـيمِ عَـشْـقـتُـهـا
لأجـمعَ بـين الحظ والـلـون في عـيـني

إذا ضـــمَّـــنـــا لـــيلٌ تـــبـــسَّم ثـــغـــرُهـــا
فـــلـــولا ســـنـــاهُ بِتُّ في جـــنـحِ لـــيـــلَـــينِ

بين إمام وصاحب البرق

ولقد توثَّقت الصلات بين أدباء مصر عندئذٍ، وجريدة البرق، فكانت رسائلهم وقصائدهم تترى إلى صاحبه.

ولما كنا في صدد الكلام عن إمام العبد، رأينا أن ننشر له قصيدة ورسالتين، وردتا علينا منه، كانت إحداهما آخر ما خطته يمينه، رحمه الله؛ وقد نشرنا بعضها على أثر وفاته، ورأينا اليوم أن ننشرها محفورة على الزنك كأثر حي لذلك الشاعر البائس الذي كان على علم تام بيومه الأخير. وليس في نشر هاتين الرسالتين خروج على ما هو مألوف في عالم الأدب، إذ يعمد رجال النشر، إلى التقاط الشوارد والأوابد من آثار الأدباء تكميلاً لإبراز صورتهم على حقيقتها، وتناولها من جميع جهاتها.

وإننا ناشرون هنا القصيدة التي وجهها إمام إلى صاحب هذه الجريدة، ومن بعد، الرسالتين[١٩].

تحية البرق

تَـــســـلَّى بـــالـــســـقـــام عن الـــســـقـــامِ
وأغْـــنَـــتْهُ الـــدمـــوعُ عن الـــغَـــمـــامِ
وبـــــــاتَ وبـــــــاتتِ الأرزاءُ مـــــــنـــه
مـــكـــانَ الـــنـــصلِ من جَـــفْن الحُـــســـامِ
تجـــمَّـــعتِ الـــهـــمُـــوم عـــلـى إمـــامٍ
وســـــرُّ الـــــهم في صـــــدر الـــــظلامِ
يـــنـــوحُ معَ الحَـــمـــامِ بـــغـــيـــر شـــوقٍ
وكم قـــــلـــبٍ يـــــذوبُ بـلا غـــــرامِ
ســـئـــمتُ من الحـــيـــاة بلا حـــيـــاةٍ
ومَنْ يـــرضَى الحـــيـــاةَ بلا نـــظـــامِ؟

تَــنَــكَّــرتِ الحــقــائقُ وانْــتَــهَــيْــنــا
إلى مــــعــــنىً تَــــنَّــــكــــرَ في الــــكلامِ
ومَنْ عَــــشِقَ الحــــيــــاةَ بلا دلــــيلٍ
رأى في الــــعــــشق أنــــواع الملامِ
نــسـيــر عــلى الــتــراب ونــحنُ مــنه
وهــــذا الــــودُّ مِنْ طَــــبع الأنــــام
فــكــيف أعــيش في الــدنــيــا عــزيــزاً
ومــا عُــرف الــوجــودُ بــغــيــر ذام[٢٠]
رضــــيتُ من الحــــيــــاة بــــودٍّ خِلٍّ
ســلــيمِ الــطــبع في دِينِ الــكــرامِ
له نــــثــــرٌ بــــلــــغتُ به الأمــــاني
فــتــاهَ به الــزمــانُ عــلى إمــامِ
ولاح «الــبــرق» إكــرامــا وفــضلاً
فــأرشــدني ونــلــتْ بـه مــرامي
إلــيكَ تحــيــتي وأنــا بمــصــرٍ
ولي قــلــبٌ يَــحِنُّ إلـى الــشــآمِ

محمد إمام العبد

البرق، ١٩٣٠، عدد ٣٣٦٠، ص: ٨-٩

****

كيف عرفت

معــروف الرصــافي[1]

سبقت معروف الرصافي شهرته إلينا، بما كانت تنشره له صحف مصر، قبل إعلان الدستور[2]، من غرر القصائد، تنبعث منها لفحات الحرية، ويتطاير عن جوانبها شرر الوطنية، حتى اعتقدنا أن معروف الرصافي اسمٌ مستعارٌ لشاعرٍ عراقي كبير، وإلا فكيف يجسر رجلٌ يظله خيال عبدالحميد، ورجال عبدالحميد، على بعث هذه الثورة في قلب البلاد العثمانية، وينفخ في موقد الإصلاح الإسلامي، في بلدٍ كبغداد حيث تسود الرجعية الدينية وتطغى؟

فإذا أنت قرأت له في «سجن بغداد» وهي من أبرع قصائده:

بـلادٌ أنــــاخَ الــــذلُّ فــــيـــهـــا بــــكَــلــكَلٍ

عـلـى كل مــفــتــول الــسِّــبــالــين أصــيْــدِ

ثم إذا قرأت له قصيدته «التربية والأمهات» :

وقـــالـــوا شِــرعَـــةُ الإسلام تـــقـــضـي

بــتــفــضــيل الــذين عــلـى الــلــواتي

لـــقــد كـــذبـــوا عـــلـى الإسلام كِــذبــاً

تـــــزولُ الـــــشُّمُّ مــــــنـه مُـــــزلْـــــزلاتِ

شككتُ في أن يكون الرصافي اسماً من لحم ودمٍ، يُستهدف لنقمة السلطان ومن تحت قدميه البوسفور، ثم لِمَنْ في بغداد من الرجعيين وهم حَربٌ على رجال الإصلاح، يخشون منهم أن يقطعوا ما بينهم وبين العامة، فيهوون صغارا ويموتون جوعا.

ولكن معروف الرصافي لم يلبث أن قدِمَ بيروت في أوائل شباط سنة ١٩٠٩،

فاجتمعنا إليه لأول مرة في «قهوة البحر» وقد ذهبتُ إليها مع الشاعر المعروف أسعد أفندي رستم[٣]، فإذا هو يحيط به الشيخ رشيد رضا[٤] والمرحوم الشيخ محيي الدين الخياط[٥] والشيخ مصطفى الغلاييني[٦] والمرحوم الشيخ محمد ياسين ومحمد أفندي الباقر. ولقد كان الرصافي، كما هو في هذا الرسم[٧]، مجبباً معمَّماً، فذكَّرنا مجلسه معنا، تلك المجالس التي تقرأ عنها في كتب الأدب، عندما كان يجلس النابغة بين شعراء المدينة، ينصتون إليه ويقومون على تبجيله.

ولقد كان الرصافي، على ما أذكر، يَطرَب لطريقة رستم، حتى كثيرا ما كان يقاطعه قائلا: هذا هو الشعر!.

ولكنَّ الرصافي الشاعر، يفي الكأس كما يفي القرطاسَ حقه. فما لَبثنا أن انتزعناه – ممتناً – من حلقةٍ قطبها **الشيخ رضا**، إلى حلقة أخرى قطبها العازار، وما أدراك بالفرق بين الحلقتين.

وكان «الكلوب» وهو مكان يجابه «مدرسة الثلاثة أقمار» مقراً ليلياً لنا، ونحن عصبة من أعضائها المرحوم الشيخ يوسف أبي صعب، وسعيد صباغة، وإميل خوري، وأسعد رستم، وديب العم، ويوسف نخلة ثابت وجرجي نخلة سعد، وأمين تقي الدين، والياس فياض، صيفاً، لأنهما كانا يشتوان في مصر، وغيرهم من الأدباء وعشاق الأدب. ولا تزال تلك الليالي أعذب ذكريات الماضي، لجميع الذين ترشفوا زلالها وتفيأوا ظلالها.

ولم يطل الرصافي مقامه في بيروت، لأنه كان في طريقه إلى الآستانة، وقد دعي إليها ليتولى إنشاء جريدة «إقدام» العربية. ولكنه لم ينقطع بروحه عنا؛ فلقد جعل «البرق» روضته ينشد فيها أغانيه الخالدة. وكان أول ما تلقيناه منه، عن الآستانة، الرسالةُ الآتية المؤرخة في ٣ شباط، سنة ١٣٢٤ هـ[٨] ،[الموافق للعام ١٩٠٦/١٩٠٧م.]، ينشرها البرق بخط الرصافي[٩].

وعاد الرصافي من الآستانة، في أواخر آب ١٩٠٩، فأقبل توّاً على إدارة «البرق» –

عادة معظم أدباء ذلك العهد. وكنا ساعتئذٍ نَهمُّ بنزهةٍ في الجبل. فلم يتردد الأستاذ في قبول دعوتنا، لا سيما وقد كان الريحاني[١٠] في الفريكة؛ فأطبقنا به واحتللنا صيوانه[١١] وقد كان يصحبنا الفكه المرحوم الياس خليل شديد، يمتعنا بنكاته حيناً وبصوته حيناً.

في الحق، إنها متعة الأنفس ومشتهاها: «الرصافي والريحاني» يتلاقيان لأول مرة، تحت وابلٍ من الأحاديث العلمية، والآراء في الألوهية وتأثير القمر بالجاذبية، ومكان المرأة الشرقية من الرجل، إلى ألف «ضربة» أخرى؛ لا بل نسيتُ وقفتهما أمام مكتبة المُضيف العزيز[١٢] برهةً، يتناوبان كتبها.

لا أكذب.. إنها نبراتهما كانت تقع في أذني، وأنا ورفيقُنا جالسان إلى سفرة اعتنت بها سيدة المنزل الجليلة أيما عناية، فكانت كؤوسنا تُقهقه سراً وعلانيةً، حتى أيقظتْهُما من ذلك البُحران، فهرولا إلينا وشاركانا بما لدينا.

وودعنا الريحاني في الصباح، نضربُ إلى بيت شباب، فبكفيا، فالشوير، فبْحَنِّس، وقد اجتمعنا فيها بالمرحوم الشيخ كنعان الضاهر، وكان يومئذٍ قائمقام المتن. ثم هبطنا بْعَبْدات عند الظهر، فسرنا إلى منزل المرحوم نعوم اللبكي[١٣]، فكانت لنا فتكة بالكُبَّة والبصل. ولم يُفلح معنا غيرهما من ألوان الطعام، حاشا الجبنة الخضراء والقهوة البيضاء.

ولم نكد ننزل إلى بيروت، حتى تلقيتُ من الصديق الريحاني الرسالة الآتية، ولقد رأيتُ لها مجالا هنا.

عزيزي بشارة

إن يوما قضيته عندنا مع شاعرنا الرصافي المحبوب وذاك (الشديد) المضروب، لكوقفة الحسون على غصن الزيتون.

أما «البرق» فلا يفوتُك إرساله مع الموزع، كي لا يضيع في المدينة عند الأصحاب.

وما من أحد يكره البرق في الظلمات. ولا لوم على مَنْ يختطفُ مثل هذه الجريدة. فإن بعض الأشياء المقدسة مُتسامحٌ بسرقتها، في بعض الأحيان. و «البرق» عندي من هذه الأشياء. فإني وإن كنتُ لا أجد فيه دائما ما أتمناه، أنسى، عندما أطالع صفحاته المتقنة المرتبة الجميلة الظاهر والباطن، ما يتطلبه العقلُ دائما من بنيه والحقيقةُ من أنصارها. على أنكم لم تقصروا، والله في خدمة الاثنين ونصرهما. قوّاكم الله ووفقكم في جهادكم.

صديقكم أمين

وعاد الرصافي إلى بغداد. وكنتُ قد اقترحت عليه إثر نزولنا من الجبل، نظم قصيدةٍ في لبنان. فما هو أن استقر في بغداد حتى جاءني منه كتابٌ أشار فيه إلى هذه القصيدة؛ فرأيت إثباته هنا بخط صاحبه، لترى حكومةُ اليوم، أننا منذ ذلك العهد، ونحن نعمل في سبيل لبنان، وتحبيب الناس بالاصطياف في لبنان، دون أن نمس خزينة الحكومة كما هو حادث الآن.

ولقد كان للقصيدة التي نظمها شاعر العراق في لبنان وقعُها المستحب؛ فتناقلتها الصحف في سوريا، ومصر، وأميركا، حتى اقترح بعضها إقامة حفلة تكريمٍ للرصافي في مدينة بيروت، ليعرب له اللبنانيون عن شعورهم نحوه وتقديرهم تلك العواطف الطيبة التي ترقرقت على قصيدة الجميلة؛ فحال دون ذلك أسباب لا نذكرها. ولقد كنا نقترح على الحكومة اللبنانية أن تمنح الرصافي وسام الاستحقاق اللبناني أسوةً له بشوقي وحافظ، لولا علمُنا بشذوذه في مثل هذه الأمور.

وبعد فهذا كتاب شاعر العراق.

أخي ومولاي

أخذت كتابك، فطربت لصدق إحساسك، وعلو تصورك، ونزاهة مقالك. وها هي سيكارة أمامي، يتصاعد دخانها في الفضاء وخيالك نصب عيني، غير أنه يتلاشى في

بحر دخانها في الفضاء.

وقد أخذت تلغرافك أيضا، قبل كتابك ولم أجبك عليه، لأني على وشك السفر إلى بلادك ولأني أخذت عدة تلغرافات من مفاخرٍ[١٤] بك وأجبته عليها. أما تأخري عن السفر فلعدم وجود عربيات في بغداد. فأنا أنتظر ورود بعض العربيات من حلب الشهباء على ما يقولون قريبا ونسافر.

كتبت على غلاف رسالتك : (لا تنس قصيدة لبنان) وما كنت لها ناسياً ، ولكن الشواغل كانت مانعة عنها. غير أن كلمتك هذه منحتني قوةً تغلَّبتُ بها على تلك الشواغل فراجعت شيطاني في الشعر، فطاوعني حتى أخذت أكتب قصيدةً تم منها الآن زهاء أربعين بيتا. غير أنها لم تستوف المرام بعد بتمامه. وأنا أذكر لك هنا شيئا عنها تستأنس به حتى إذا ما تمت أرسلتها إليك، أو جئتُ بها معي هدية.

من نسيم جو العراق الهاب على شطوط دجلة والفرات، أبى شيطان الشعر إلا أن أقدم شيئا من النسيب في هذه القصيدة فقلت في مطلعها:

برزت تميس كخطرة النَّشوانِ

هيفاءُ مخجلةٌ غصونَ البانِ

وبعد أن كتبت عدة أبيات في النسيب، تخلصت إلى ذكر لبنان فيها بقولي:

لم أنس في قلبي صعودَ غرامها

إذ نحن نصعدُ في ربى لبنانِ

وهنا وصفت لبنان بأبيات ثم أخذت أخاطب صاحبي بشارة والياس[١٥]، بقولي:

يا صاحبيَّ أتذكران فإنني

لم أنس بعد كما سرى النسيان

إذ كان يغبطنا الزمان ونحن في

وادي الفريكة منبت الريحاني

وهنا أخذت أَهيمُ في وديان لبنان، وهضابه ضارباً صفحاً عن ذكر «حوملٍ والدَّخول» إلى ذكر «بيت شبابه» و «بكفياه»[١٦] وعن ذكر «الغدير» إلى ذكر «الشوير» تخلَّصت إلى ذكر أهل لبنان بقولي:

تلك الربى أمَّا الجمالُ فواحدٌ
فيها وأمَّا أهلُها فاثْنانِ
رَجلٌ يَسيرُ إلى النجاح وآخرٌ
يسعى وغايتُه إلى الخُسرانِ

وأخذت في هذا الموضوع بما ستقرؤه ولم أدر هل أسقط هنا في سخط أهل لبنان الكرام أو في رضاهم.

وصلتني أعدادُ «البرق» وقدَّمتُ الأعداد الخمسة منه، إلى جميل أفندي الزهاوي[١٧]، وهو يشكركُ ويقرئك السلام، كما يقرئك السلام مشغوفاً بكل حب واحترامٍ، محبك وأخوك.

معروف الرصافي

٢٣ تشرين الأول: ١٣٢٥هـ/ [١٩٠٧م.]

ولم يُقم الرصافي في بغداد طويلاً، حتى أبرقنا إليه بالحضور، بناء على برقية من الآستانة، تأذن بتعيينه أستاذا للعربية، في مدرسة الحكومة، مع تحرير جريدة كان قد أزمع على إصدارها باسم «سبيل الرشاد». فنزل الرصافي في بيروت على قلوبٍ تشتاقه وترتقبه. وكنتُ قد هيَّأتُ مجلساً في «الكلوب» جمعت فيه بين الشيخ عبدالله البستاني[١٨] وبينه، فكانت حلقة بديعةً، كتبت على أثرها في «برق» ٤ ك١ من عام ١٩٠٩ هذه الشاردة:

«هي ليلةٌ التقى فيها الرصافي والبستاني. وكان «الكلوب» نقطة الدائرة».

وكنَّا، باركَ اللهُ – نحواً من خمسة عشر (ذاتا) – على لغة لبنان الرسمية – وكاد يُوحشنا شيخُنا العازار لولا الذي أنشده داود مجاعص وإميل خوري من شعره،

ووقف له الرصافي إعجابا[19].

وشرب البستاني نخب زميله، فقال:

إني لأشـــربُـــهــا عــلى ذِكـــرِ امـــرئٍ

هـــو بــالــبلاغــة والــنُّــهى مــعــروفُ

إن كــنتَ تـــنــكــره فــلــيس بــضــائــر

أبـــداً عـــلـــيه، فـــإنه مـــعـــروفُ

فرد عليه الرصافي بقوله:

إني لأشـــربُـــهــا عــلى شـــرف الـــذي

الــفــضلُ فــيه لــيس بــالمُــتــنــاهي

إن الــفــصــاحــة والــبلاغــة والــنُّــهى

والــفــضلَ أجــمع، عــنــد عــبــدالــلهِ

ثم كانت ليلةٌ أخرى، حضرها العازار وأنشدنا الرصافي فيها قصيدته «العالم شعر» فما هو أن انتهى منها حتى استكتبنا العازار هذين البيتين:

«ألا إنَّ هــذا الــشــعــرَ من أبــدع الــشــعــر»

فلا تــعــجــبــوا إن كــان في شــعــره سُــكــري

ولا تـــعـــجـــبـــوا إن كـــنتُ أهـــواه إنَّهُ

«عــيــونُ المهــا بــين الــرصــافــة والجــسـر»[20]

ومضت لنا ليالٍ على هذا النمط. حتى إذا هَمَمنا بالانصراف، نادى «أبو متري» «قيِّم الكلوب» بالخادم «فُوْت عالأُوضة كنِّس أشْعار»!

ولقد جمعت بين الرصافي والبستاني والعازار، في رسمٍ واحد، فكان أحسن أثرٍ في تاريخ الأدب العربي. وقد ظهر فيه الرصافي بالبذلة الإفرنجية التي كان يرتديها عند خروجه من بغداد، حتى إذا عاد إليها، عاد إلى جُبّته وعمَّته.

وقد كتب الشيخ عبدالله، تحت هذا الرسم، هذين البيتين:

إنْ نــلْتَ يــا بَــيْنُ مِنْ أجــســادنــا طَــبَــعَتْ

فيها، لشاكي النوى الأنوارُ أشباحا

تخالُ أرواحَها رُوحاً إذا اجتمعتْ

وإن تناءتْ تَخالُ الروحَ أرواحا

وأصبح الرصافي بعد ذاك، مبعوثاً[٢١]. وغامر مع مَنْ غامر في السياسة، فأصبح مقامُه في بيروت، كما يحط الطائر على الغصن. ولكنه كان لا يزال يحمل لواء الشعر العالي في الشرق العربي. غير أنَّ خروجه من بغداد، وملامسته الحضارة الغربية رقّقت من ديباجته الأولى، فلم يزد ذلك من قيمة شعره القديم الذي انفطر عليه فهو ما برح عندي شاعر «السجن في بغداد» و «التربية والأمهات» و «أم اليتيم» و «العالم شعر» و «اليتيم في العيد» و «الصديق المضاع».. وكلها مما نظمه الرصافي يوم كان عندنا «اسماً مستعارا» لشاعر محجوب. هذا عدا قصيدة «اليتيم في العيد»: فلقد بدأ بنظمها في الآستانة لسفرته الأولى إليها، وأتمها في النزهة القصيرة التي صرفناها معاً في الجبل.

وإنه ليؤلم الأدب والأدباء، أن يكون حظ الرصافي، ذلك الشاعر الذي حمل بقصائده الثورية على العرش الحميدي، وهو في قلب بغداد، أيام كان معظم القائمين في الأمر هناك، يتهالكون على نظرة رضىً وتعفير جبينٍ، أجل: إنه ليُؤلم الأدب والأدباء، أن يكون الرصافي مغموطاً حقه، مجنياً عليه؛ ولا يأكل الآكلون اليوم، سوى الفتات التي كانت تتساقط، في ذلك العهد المخيف، عن موائد الصحف الحرة والأقلام الحرة؛ فأين همُ الذاكرون؟.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣٠، عدد: ٣٣٦٤، ص: ٩٠٨

****

كيف عرفت

الشيخ يوسف أبي صعب[١]

كان في عداد من سلبتنا الحرب العالمية، الشيخ يوسف أبي صعب المتشرع القدير. وقد كان له مشاركة في الأدب، يتناول الشعر فيرسله، على الغالب، زوجين زوجين، بعد أن يصوغه في قالب حسنٍ على معنى دقيق جميل.

فمن شعره وقد اقترحته عليه إحدى السيدات على «رأس العين» في بعلبك:

يــا بَــعــلــبكّ، مــديــنــةَ الــشــمسِ الــتي
نــاغت قــبــابُك مَــطْــلِع الــقــمــرَيْنِ
لــو لم تــكــوني مَــنْــزلاً لــلــشــمس مــا
طَــلَــعَتْ كــواكــبُــهــا بــرأس الــعــينِ

ومنه، وقد ذهب لنزهة مع بعض أصدقاء، إلى نهر الكلب، وفيه إشارة إلى الخرافة القائلة بأنَّ ديانا إلهة الأحراش أقامت على مياه نهر الكلب أرصاداً:

كُــنــوزٌ نَــحَــوْنــاهــا عــلـى مَــتْن ضُــمَّــرٍ
وأرصــادُ نــهــر الــكــلــبِ فُــكَّتْ من الــضَّــرْبِ
وإنِّــي لأرصــاد الــكــنــوز وأصــلُــهــا
وُقــوفٌ أَمــام الأُسْــدِ في المــوقف الــصَّــعْبِ

وكان على ظاهر الشيخ يوسف أبي صعب، مسحةٌ من العَنْجهية، وفي حديثه نبرةٌ فيها شيء من العنف، قد تنبوان بك عنه لأول مرة. حتى إذا عرفت أن تمزق هذين الحجابين عن نفسه، وعرفت كيف تستميله بقليلٍ من المصانعه، أنست إلى مجلسِ طربٍ نادرِ المثيل؛ قد يكون هو محور النكات التي يُرسلها الإخوان من كل جانب.

ولقد كان – كما رأيت في حديثنا عن العازار والرصافي – أحد أركان الحلقة الأدبية، لا يكاد يتغيب ليلة. كان إذا تأخر طلبناه بجميع الوسائل، وبعثنا في أثره

الرسل نحمّلهم إليه ما نكون قد اختلقناه مما نعرف أنه يدفعه إلينا مسالماً أو محارباً راضياً أو مغاضباً.

ولقد كان له شيطانان لا يزايلانه: أنا وإميل أفندى خوري، يحاول كل منا أن يطعن في الآخر عنده، مختلقاً له عن رفيقه كل كلمة تُسيئه. فمن سَبَق إليه رمى بصاحبه في هوة غضبه أياماً إلى أن يعمل الإخوان على إصلاح ذات البين، فنجتمع على مائدة تتصافح فيها الكؤوس والنفوس، ثم لا نلبث بعد أيام أن نعيد الكرة. وهكذا دواليك.

ولقد كنا في الأشهر الأولى من الحرب العالمية – أي قبل دخول تركيا في الحرب – تجمعنا «قهوة المرصد» – كاريون اليوم – وفينا الشيخ عبدالله البستانى، والكونت طرازي، وكامل بك حمية، وشقيقه فؤاد بك، ويوسف نخلة ثابت، وجرجي أفندي نقولا باز، والأستاذ جبرائيل نصار، وإلياس أفندي الريف، والمرحومان يوسف خطار غانم، ويوسف عباس الحلو وغيرهم. وكنا نعتقد يومئذٍ أن الحرب لن تطول أكثر من أشهرٍ معدودة. فرحنا نقطع الأيام في القهاوي قتلاً للملل، وكانت لعبة «المتشكا أو البطشكا» دارجة في تلك الأيام. فأخذنا بعض دروسها على يد أستاذنا شبلي بك ملاط والمرحوم يوسف خطار غانم الذى كان يردد مفاخراً «أنا رب الطشكا في هذا البلد». (فيطيّب) له شبلي هادراً بغمغماتٍ من شعر المهلهل في كليب «لو كنت حاضر أمرهم لم يَنْبسوا»[٢]

وأقبل الشيخ يوسف يوماً يحمل ورقة؛ فانتبذ ناحيةً ودعانى إليه. فإذا هو قد نظم ثلاثة أو أربعة أبيات في مدح المرحوم الدكتور حبيب درعوني – وقد كان من أبرع أطبائنا – أذكر أنه ابتدع معنى جميلا في البيت الأخير، ولكنه لم تتفق له صياغته كما يجب؛ فرحنا نقدح الفكرة معاً حتى استوى له. فنهض ينفض السرور عن جانبيه. وقد كنت حفظت الأبيات تقريباً ولا سيما البيتُ الأخير. فعدت إلى يوسف خطار غانم، وقلت له: ما قولك في أبيات تقدمها باسمك إلى الدكتور درعوني، وهو صديقك الحميم، وقد شفي من مرضه؟ فأدرك أن في الأمر لعبة، فكشفتها له. فنهض للحال، وكتب ما هو قريب جداً من الأبيات الأولى، والبيت الأخير بحرفه. وقد وضع الأبيات ضمن إطار، وقدمها للطبيب درعوني، في ذلك اليوم. فعلقها هذا على جدارٍ في حفلة بيتية صغيرة.

ولسنا نحدثك عن الموقف في اليوم التالي، عندما جاء الشيخ يوسف بأبياته، بعد أن ضربت لها الطبول. فإذا هو يراها معلقة بتوقيع يوسف خطار غانم.

لقد اصطلينا حرباً ثانية منذ تلك الدقيقة، وكاد يكون حطبها المرحوم يوسف غانم لو لم ينقذه إخوانُ «المرصد» منه. أما أنا فلبثت متوارياً أسبوعاً لا أجرؤ على الظهور، حتى عملت على تبرئة نفسي، أن زعمت أنني لكثرة إعجابى بالأبيات ، حفظتها ورويتها لغانم، عن سلامة نية، ففعل هو فعلته الممقوتة، ومن ثم عادت المياه إلى مجاريها .

لم يكن في القلوب، أطيب من ذلك القلب، ولا في المروءات أعظم من تلك المروءة، بل لم أعرف ذاكرة – بعد ذاكرة الأستاذ حبيب أسطفان– أحفظ من ذاكرة الشيخ يوسف؛ وهو فوق ذلك، قد كان حجة في الشرع الإسلامى؛ تقف الفتاوى على بابه، فيجلو غوامضها، ويفك مشاكلها، ولكنها خفة الشباب، كانت تغرينا بذلك العبث البريء، والهفوات الصغيرة، فيغسلها هو بفيض من مكارم أخلاقه ويرسل عليها بوارق مستعذبة من شفتيه وعينيه.

ولقد عثرنا بين أوراقنا المبعثرة، على أبيات نظمناها له تهنئة في ميلاد طفلته عام ١٩١٥، على نية أن يتيح لنا الزمان مجلساً مطمئناً نقرأها فيه، فإذا الدهر يواصل تهجمه، والحربُ تواصل ويلاتها، والإخوان يتبعثرون في كل مكان؛ حتى بلغنا ويا لهول ما بلغنا– أن الشيخ يوسف، مات بالتيفوس، وكان ذلك على ما نظن: عام ١٩١٥؛ فكان خطبه خطب العلم والأدب والظرف والمروءة.

وإني ناشر هنا القصيدة التى أشرت إليها، وقد سلكت فيها الطريقة التى أعرف أنها تهزه وتلذه:


أهلاً بها كالقمرِ
في مُسْتَهلِّ الشَّهَرِ
لها ابتسامُ الزَّهَرِ
لقَطَراتِ المَطَرِ
ونَغَماتُ القَمَرِ
لِنَسَماتِ السَّحَرِ

يا حُسْنَها في الصِّغَرِ
دراجةً في حُجُرِ
لِسَيدٍ مُشَهَّرِ
مُرأَّسٍ مُصدَّرِ
علامَة مُقْتَدِرِ
مُحدِّث مُحرِّرِ
مُعيد فقْه زُفر [٣]
ولغة الزَّمَخْشَرى [٤]
ومُرْقصاتِ البُحتري
ومُعجزاتِ عَنْتَر
مِن آل صعبِ الغُرَرَ
ما فيهمُ غيرُ السَّرِي

✡✡✡✡✡

وحُسْنُها في النظرِ
وهْي بعُمْر القَمَر
طالعةٌ في نَفَر
من تِرْبِها، مُزْدَهِر
مصونةٌ بالخَفَر
محفوفةٌ بالطُّهُر
هاديةٌ بأثَرِ
لأمها، مُشْتَهَر

✡✡✡✡✡

وحسْنُها في الكِبرِ
قُرْبَ فتىً منْحَدِر
عن والدٍ ذي خَطَر
مؤمَّلٍ مُؤَمَّر

فتىً كنور البَصَرِ
حلو المُحَيَّا أسمرِ

ذي أدبٍ وبِدَرِ
من أَبيضٍ وأصفرِ

ليس له مِنْ وَطَرِ
بِغْيرها في البَشَرِ

وهْي بِما مِنْ حَوَرِ
في طَرْفها المُكَسَّرِ

تَفْعل فعْلَ السُّمُرِ
بقلبه المُنْشَطِرِ

وما بذاك الثَّغَرِ
مِن الرحيق المُسْكِرِ

تَجْلي غيوَم الكَدَرِ
مِنْ رأسه المُعْتكر

✲✲✲✲✲

وبعْدَ بعُضٍ العُمُرِ
من ذا الزواج المُثمِرِ

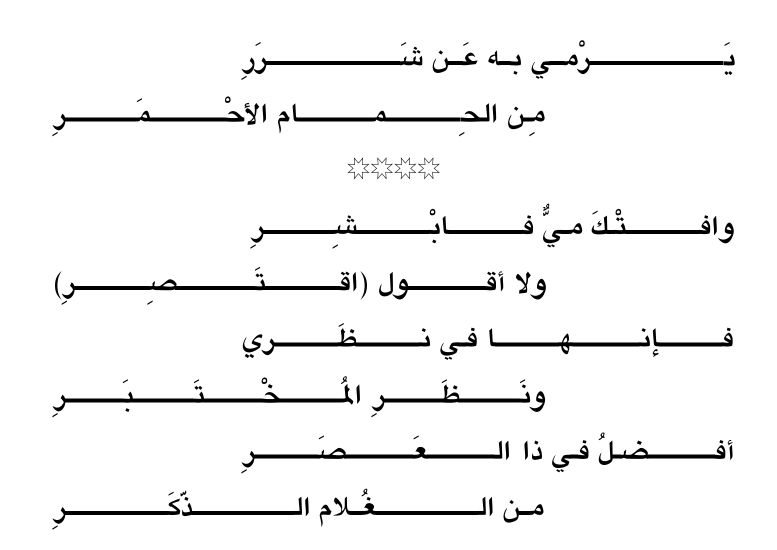
يجْني لذيذ الثَّمرِ
مِنَ البنينَ النُّضَّرِ

ما نغماتُ الوَتَرِ
إذا شَدَوْا في الوُكَرِ

وإن مشَوْا للِكِبرِ
قادوا زِمام الدَّهرِ

كَجَدِّهِمْ إذ يَنْبري
للخَطْب دامي الظُّفَرِ

مُقلَّدٌ بأسمرِ
مقْتَطَعٌ من صَقَرِ



يَرْمي به عَن شَرَرِ
مِن الحِمام الأحْمَرِ

✡✡✡✡✡

وافتْكَ ميٌّ فابْشِرِ
ولا أقول (اقتَصِرِ)
فإنها في نظَري
ونَظَرِ المُخْتَبَرِ
أفضلُ في ذا العَصَرِ
من الغُلام الذّكَرِ

هذا ، وإني ما برحت أذكر ليلةً جمعتنا دار الشيخ، وحفلت بنا سفرته الفخمة اللذيدة، وكان ذلك في تشرين عام ١٩١٢ . فقلت يوم ذاك في تقريظه، وكأنما تنبَّأت عن زواجه واسم قرينته:

نحن في جنة الخلود ببيت
الشيخ بيت الفخار والعلياء
شيخنا (آدم) به فمتى يسفر
هذا الخلودُ عن حواءِ

فاهتز الشيخ للشعر اهتزاز المهند، وتلطف معنا بأن أقترح على الإخوان نظم هذا المعنى وهو « لا بدع أن يصدر (البرقُ) على هوله، عن فتىً كصاحبه، لأن الصواعق، على هولها، هي من الغمام اللطيف».

فقال جرجي أفندي عطية:

عَجَبْت هِنْدُ كيفَ ينشأُ (برْقٌ)
هائلٌ مِنْ ينبوعِ لُطفٍ سامي
قلتُ لا بدْعَ! فالصواعق تَنْشأ
يا ابنةَ العُربِ مِنْ لطيف الغَمامِ

وقال جرجي أفندي سعد:

لا بدع في البرقِ ينْشا
بَزَهْوه المَعروفِ
فما الصواعقُ إلاَّ
مِنْ الغَمَام اللَّطيف

وقال يوسف أفندي نخلة ثابت:

عَجِبتْ لهذا البَرق يصْدُرُ عن فتىً
هو في لطافته شبيهُ مدامِهِ
لا تعْجَبَنَ فالصاعقاتُ بهَوْلها
ليستْ سوى نَفثَاتِ ثَغْرِ غمامِهِ

وقال الشيخ يوسف رحمه الله:

لا بِدْعَ إن كان هذا البَرقُ مَصْدَرُهُ
لُطْفٌ يحاكي نُسَيْمات الصَّبا سَحَرا
فما الصَّواعقُ في أهوالها هَبَطَتُ
إلا بَنَاتِ سحابٍ رقَّ فانْتَشَرا

وعلى الجملة فلقد كان الشيخ يوسف أبى صعب روضاً جنياً وماءً روياً تنشقُّ عنهما أزهارُ العلم والأدب، وتسجعُ فيهما بلابلُ الشِّعر كلَّ عشية.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣٠، عدد: ٣٣٦٥، ص: ٨-٩

****

كيف عرفت طانيوس عبده[1]

إذا عُدَّ أعلام الأدب العربى بين الشام مصر، جاء فيهم طانيوس عبده يزجي أمامه جيشاً من الكتب، لا تكاد تفي أيام السنة ولياليها، بمطالعتها. وحسبك منها هذه الروايات الخالدة التي عربها، والتى جعلت اسمه على شفة كل أديبٍ عربي في كل بلدٍ فيه عربي يقرأ.

ولقد كنت في عصر الحداثة، من الذين أولعوا بمطالعة الروايات، فما كنت أرقب بريد مصر ولا البحث في مكاتب بيروت إلا عن رواية عليها اسم طانيوس عبده.

فلقد كان له في التعريب طريقة عرفته فيها بعد أن رجع إلى بيروت، وذلك على ما أذكر عند إعلان الدستور في تركيا (أيلول عام ١٩٠٨).

أنظر إلى هذا الرجل الضئيل الشاحب، أو بالأحرى إلى هذا الوجه المحروق بالسويداء والكحول جالساً إلى طاولة صغيرة عليها كأس من العَرق في قهوة – خضراء – وبيده روايةٌ فرنسية، يطالع العشرين صفحة من صفحاتها دفعة واحدة، ثم يضعها جانباً ويتناول أوراقاً وقلم رصاصٍ بطول الإصبع ويأخذ في (دَرْز) الكلمات (درزاً) سريعاً، فما هو إلا نصف ساعة حتى يملأ نحو الخمسين ورقة بحجم وسط، إذن فقد عرفت أن طانيوس عبده كان يستوعب الفصل، حتى إذا تملاه أخذ هو في وضعه من غير أن يراجع كلمة، أو يأتي بحركة، إلا أن يمد يده إلى الكأس المرة بعد المرة. وكان ذلك بدء التعارف بيننا ثم أصبح شريكاً لفائق بك غرور في جريدة «الأيام» التي أصدرها عام ١٩٠٨، وما لبثا أن افترقا، فأنشأ مجلة «الراوي» ثم ما لبث أن تركها، وانبرى من هناك يكتب في بعض صحف الثغر، ويعرّب الروايات فيبعث بها إلى بعض مكاتب مصر.

ولم يكن طانيوس عبده خلال السنوات الخمس (بين ١٩٠٩ و ١٩١٤) ليحدث دوياً في العالم الأدبي، لأنه كان من عادة الصحف في بيروت أن لا تأذن لمحرريها أن يعلقوا

أسماءهم في ذيل مقالاتهم. فخمل ذكره أو كاد إلا ضمن دائرة محددة من صحبه، يرسل فيها المقطع إثر المقطع من شعره، لغرضٍ من الأغراض الخاصة، يضمنه نكتة لطيفة سائغة، فينتشر في الحلقات الأدبية الأخرى، فينعش ذلك من ذكره بعض إنعاش.

كان حظ طانيوس عبده في الحرب كحظ الأكثرين منا شؤماً وتعساً، فلقد قضى عليه سوء الطالع أن يكون تحت سن العسكرية عندما اضطر الأتراك إلى تجنيد الاحتياطي فكان يلوذ حيناً بالاختفاء، وحيناً بالسعي لجمع البدل العسكري[٢]، وهو مع ذلك رب عائلةٍ لها عليه واجبات المعيل. وعلى الجملة، فلقد كانت سنوات الحرب عليه قاسية جداً، صورها في بعض شعره فقال يصف ملاحقة الجند له:

سَجينٌ في البيوت وليس ذنبي
سوى أني أخاف من القتالِ
أروحُ فتبحثُ الأجنادُ عني
كأني من صَناديد الرجالِ
أيُرْجى مِنْ خيالاتي [٣] قِتالٌ
وقد أصبحتُ أفزعُ مِنْ خيالي؟

وقال مِن ضيق ذات يده:

أموتُ كي أكسبها ليرةً
عَزَّتْ عِنْدَ قومٍ وقَوْم
أموتُ كي أُبْدِلُها فضةً
رائجةً من بَعْد خُسرٍ وسَوْم
أموت حتى أشتري إنْ أجدْ
خبزاً بها من بعد جُوع وصَوْم
فيا له عيشاً نذوق الردى
ثلاثَ مرّاتٍ به كلَّ يوم

وقد وجه بهذين البيتين الى المرحوم يوسف خطار غانم، وكان يومئذٍ خازناً في شركة القمح التي تولى إدارتها الدكتور نجيب بك الأصفر.

يــا يــوسفُ اذْكُــرْ ســمــيك يــوســفــاً [٤]
وَاذكْـــر أخـــاك به وفـــرِّج كُـــربَـــتَهْ
قـــد كـــان مـــثْـــلَكَ خـــازنـــاً، ولـــكـــنهُ
لم يـــنسَ في زمن المجـــاعـــة إخـــوتَهْ

كان ذلك على ما أذكر، في أواخر سنة ١٩١٧، عندما تلقيت – وأنا مغترب في معتزلي قرب نهر بيروت، وذلك بعد انقضاء عهد الفزع الأكبر– تذكرة من طانيوس عبده يطلب إليَّ فيها أن ألاقيه إلى «قهوة النهر» لشأن من الشؤون، ولم أكن ساعة وصول التذكرة في المنزل حتى إذا عدت أسرعت إلى «القهوة » فإذا هو قد مل الانتظار فذهب تاركاً لي هذه الأبيات:

إلى الأديب الـــفـــاضل ابْنِ الخـــورِي
والـــشـــاعـــر المـــتَّـــقِـــدِ المـــشـــهـــورِ
أرجـــو بـــأن تـــدْفَعَ عـــني قـــهـــوة
قـــد رســبَتْ من ثِـــقـــلِـــهـــا في الـــركـــوةْ
غِبَّ اطِّلاع لـــلـــخـــواجـــا مِـــتْـــري
في حـــانـــةٍ في الـــنـــهـــر قُـــرب الجِـــسْـــرِ
ربْـــعَ ريـــالٍ ورقـــاً لا فـــضَّه
فـــقـــد مَـــضَتْ أيـــامُـــهـــا المُـــبْـــيـــضَّه
وهـــذه الـــقـــيـــمـــةُ لـــلـــجَـــنـــابِ
تـــدْفَـــعُـــهـــا في مـــوقفِ الحِـــســـابِ
حُـــرِّرَ والـــيـــوم بـــأخـــريـــيـــه
مِنْ شَـــهْـــرِ تـــشـــرين بـــأوَّلَـــيْـــهِ

وبينما أنا في اليوم الثاني، أتفقد بقرة لي، كنت اقتنيتها في بستانٍ استأجرته للاستعانة على ضنك تلك الأيام، إذا بطانيوس مُطل عليَّ من البيت، يناديني ضاحكاً من موقفي هذا. فما إن أقبلت عليه حتى ابتدرني بقوله:

عــــهــدْتُكَ مِنْ قَــبْل تَــرعى الــبَــشَــرْ
فــمـــا بـــالُكَ الـــيــومَ تَــرعَى الــبَــقَــرْ

وكانت زيارته توسطاً لبيع مطبعة «البرق». فتمت الصفقة على يده، بعد شهرين من هذه المقابلة، فبعنا ما ثمنه ألف ليرة ذهبيةً بألف ليرة تركية، وكان سعر الليرة ستة عشر غرشاً، وكانت المطبعة آخر ما نملك.

وكان عام ١٩٢٢ عندما أصبح طانيوس عبده رفيقاً في تحرير «البرق»؛ فكان يتولى فيه تعريب الرواية، ومقالة السياسة الخارجية، فنَقَداتِ طائرٍ، هو العنوان الذي كنا نكتب تحته بعض الشوارد بتوقيع «دوري».

وكتب في اليوم الأول، نقدته الأولى بدون توقيع أو بوضع نجمة تحتها على ما نذكر، ووضع في رأس الرواية: تعريب «البرق». وشد ما كان عجبه عندما صدر «البرق» في اليوم التالي، وقد رأى اسمه تحت «النقدات» وفي رأس الرواية، لأنه كان من عادة الصحف، كما قلنا، التحريم على محرريها توقيع ما يكتبون، فالتفت إليّ، رحمه الله، وقال: عجباً منك كيف تثور على عادة زملائك؟ فقلت له مازحاً: أو تظن أني أرضى أن يُنسب إليَّ نقدتك هذه ... وكان قد كتبها على أنها ستنشر بدون توقيع فجاءت على غير ما أرضى، ولكنه عندما علم أن اسمه سيعلق على جميع ما يكتبه شرع يعتني به، حتى أصبحت النقدات قبلة القارئين، وبُعثت بها شهرة طانيوس عبده، بعد أن كان علاها الصدأ في السنوات الأخيرة.

لم يكن طانيوس عبده يعنى بإنشائه معشار عنايته بشعره. وربما ذلك بتأثير الإنشاء الروائي المتراخي، حتى إن النقدات نفسها، كان يعوزها بعض الشد في أوتارها، ولا سيما في ختاماتها؛ كأن تختم بنكته أو بسجعةٍ مستقاةٍ من نكتة، لتبقي أثرها في نفس القارئ. وهو ما لم يكن ينتبه إليه، ولكن اسمه كان يسيطر على القارئ فيخضعه لسلطانه. أما دقته في شعره، وحيلته الى النكته يرسلها علي أجنحةٍ من ذهبٍ، تحت أشعة الشمس، فهو فيه نسيج وحده.

لم يكن طانيوس عبده يخالطنا كثيراً. فهو كان من حلقة ثانية، أذكر من أركانها الشيخ وديع نفاع الذي كان شديد العطف عليه، وقد صدفنا يوماً أن أحد أعضاء حلقتنا الليلية، وأظنه المرحوم يوسف عودة، أهدى أعضاء الحلقة التي كان طانيوس من أعضائها . هدية من العرق حكمت الحلقة بعدم جودتها، وكلفوا طانيوس أن يكتب للمُهدي أبياتاً يداعبه بها فقال:

يــــا مُـــــهـــــديَ الــــراحِ إنـــــهـــــا
جــازْت بــرقــتــهــا مــعــانـي الــرَّاحِ
أَهــــــدى إلـيَّ مُـــــدامـةُ وكــــأنمـــــا
أهـــــــدى إلـي خـلاصـــــــــة الأرواحِ
ولــقــد شــمَـمْـنـاهـا قُـبـيـل مـذاقــهـا
فــإذا بــنــا لـم يَــبْـقَ فــيــنــا صــاحي
وتــبــلــجـت وتــأرَّجتْ فــزفــفــتُــهـا
لابنَ الـسَّـحـاب فـلـم تـطبْ بـنـكـاحِ
حــتـى إذا أدركتُ ســرَّ شُــعــاعــهـــا
وفــهـمـتُ مـعـنـى عـطـرهـا الـفَـيَّـاحِ
أشــفَــقْتُ أشــرَبُــهـا لـبـاهـرِ نـورهـا
فـأنـرْتُــهـا وجـعـلـتُـهـا مِـصـبـاحي

فنظم المرحوم الشيخ اسكندر العازار، باسم صاحب الهدية، أبياتا رد بها على أبياته، هذا بعضها:

إنِّي زَفــفتُ الى الــكــريم سَــبِــيَّــةً
لـــولاهُ لم تـــر مِن يَـــدَيَّ سَـــرَاحـــا
كـــانت لـــروحي راحـــةً ولـــطـــالمـــا
أهَـــدَتْ إلى ذُوَّاقِـــهـــا الأرواحـــا
والـــله مـــا هي خَـمـرةٌ لِـيَـظـنَّـهـا
الأعـشى، بـحـالـةِ سُـكـره، مِـصـبـاحـا
هي بِـنْـتُــهـا، مـاءُ الـفـرات أديمُــهـا
والـعـطـرُ كـان بـردْنـهـا فـيَّـاحـا

مـــا أســكـــرتْ بـــالـــشَّم إلاَّ شـــاربـــاً
مـــا عَــدَّ لــيــلـــةَ شُـــرْبِه الأقـــداحـــا
فـصـحـا يُـمـزِّقُ عِـرْضَـهـا بـقـريـضِه
وعـــلـى ربـــابــتـه غـــدا نَـــوَّاحـــا
هي لم تـكن كُـفـؤاً فـجُـدْ بـطلاقـهـا
وكـفى الإلهُ الـصـاحـبـينَ صـيـاحـا

وتسعرت نار الحرب بين الفريقين؛ فنظم المرحوم طانيوس باسم المُهدى إليه قصيدةً طويلةً، حكمت عليَّ الحلقة التي أنا منها أن أردَّ عليها، باسم صاحب الهدية؛ ففعلت.

وها نحن ننشر بعض القصيدتين للتفكهة:

قصيدة طانيوس عبده:

وَرِهتْ[٥] قـصـيـدتُك الـتي ضـمَّـنـتَـهـا
دُرَّ الـــبـــيـــانِ بمـــنـــطق الأعـــرابِ
ورأيــتُـهـم يـتـحـمَّـسـون كـأنـهـمْ
يـــتـــأهـــبـــون حـــوالـــهـــا لـــضـــرابِ
يـتـهـافـتـون عـلى انـتـقـاد قـصـيـدتي
في خـــمـــركم وملامـــتي وعـــتـــابي
مـا إن عـتـبتُ عـلى انـتـقـاص قـصـائدي
يـــومـــا فـــلـــيس الـــشـــعـــرُ من آرابي
لـكنْ عـتـبتُ عـلى الـنـدامى أنَّـهمْ
يـــتـــنـــقَّـــصـــون مـــكـــانـــةَ الـــشُّـــرَّابِ
أنـا مَنْ عـرفْتَ فـإنْ جَـهـلتَ مـكـانـتي
فـانـظـرْ إلى مَنْ شـئتَ مِنْ أصـحـابي
مِن كل مـشـغـوفٍ بـفـاتنٍ حُـبِّـهـا
مُـتـنـكِّبٍ فـيـهـا عـلى الأحـبـابِ
لـو أَعْـوَزَتْهُ وأحـبَـستْ أنـفـاسَهُ
لـغـدا بـهـا ثَـمِلاً بـغـيْـر شـرابِ

هـــذا هـــو الـــرهطُ الـــعـــزيـــزُ ورأيُهُ
في الخـــمـــر رأيَ تـــعـــقُّل وصَـــوابِ
وَهَب الـــتلامـــذةَ الـــكـــرامَ تـــخـــبَّـــطـــوا
في حُـــكـــمـــهـــم لـــتَـــدفُّقِ الأكـــوابِ
مـــا عُـــذْرُكم في مـــا ارتـــأى أســـتـــاذُهُمْ
وهـــو المـــشـــارُ إلـــيه في ذا الـــبـــابِ
أَفُـــتـــنـــكِـــرونَ تـــضـــلُّـــعي وتـــثـــبـــتي
وأنـــا ربـــيـــبُ بـــواطئٍ[٦] وخـــوابي؟
والـــلـــه لـــولا أن يـــقـــالَ أســـأْتَ في
رَدِّ الـــهـــديَّـــةِ لـــلـــحـــبـــيب جـــوابي
لـــردَدْتُـــهـــا والـــطـــبلُ يَـــضْـــرب حـــولـــهـــا
والـــزَّمـــرُ يَـــصْـــحَبُ زُمـــرةَ الأصـــحـــابِ

قصيدة بشارة الخوري:

أمَّـــا الجـــوابُ فـــقـــد عـــنى لـــبـــيـــانِهِ
رأسُ الأئـــمـــةِ مِنْ بـــنـــي الأعـــرابِ
دُررٌ من الألـــفـــاظ لـــو تَـــمَّتْ لـــهـــا
غـــررُ المـــعـــاني طـــار بـــالألـــبـــابِ
لم يُـــغْـــلَقِ المـــعـــنى عـــلـــيكَ وإنمـــا
جـــرَّبْتَ أنْ تـــمـــشي بـــغـــيـــر صَـــوابِ
أســـتـــاذَ مَنْ نـــهبَ الـــكـــؤوسَ مـــشـــعَّـــةً
عَـــفـــواً فـــحِـــلـــمُكَ فـــوق كل حـــســـابِ
هـــو مـــا زعـــمتَ فـــأنتَ من نـــدمـــائـــهـــا
في عـــنـــفـــوان المَـــلْكِ والحُـــجَّـــاب
مـــفـــتـــاحُ هـــيـــكـــلـــهـــا لـــديكَ مـــنَـــعْـــتَهُ
إلاَّ عـــلـــى رَهْـــطٍ من الأصـــحـــابِ
بـــرعـــوا فـــلـــم يَـــســـلَمْ لـــهـــم نَـــطْقٌ بلا
لَـــحْـــنٍ ولا رأسٌ بـــلا دولابِ

مِنْ كل مخمور الدماغ إذا مشى
يَكبْو فتُنهِضُه، فيرجعُ كابي
جحَظَتْ لواحظُهُ وجفَّ دماؤه
فكأنه نُصبٌ من الأنصابِ
أنا إنْ أكنْ من غير رَهْطكَ في الطِّلا
فعلى هياكلها حرقتُ شبابي
سارت مسيرَ دمي، فأعصابي إذا
أشعلْتَها شَعَلَتْ بها أعصابي
وتخيرتْ لي مَعْشراً عرِفوا بها
فغدتْ لهم نَسَباً من الأنسابِ
نقدوا معانيها وإنْ دَقَّتْ، كما
نقَدَ النحاةُ الشكل في الإعرابِ
أكوابُهُمْ أبداً تدفَّقُ ولْيكُنْ
للأرض حصَّتُها من الأكوابِ
سهروا ونمْتَ، فلو رجَعتَ إليهمُ
وقَّفْتَ منهم مَوقفَ الطلاَّبِ
إني جنيتُ فكم جنَيْتُ لأنني
أهديتُ للأصحاب خيرَ شراب
ولكنتَ لو أدركتَ مبلغ علمهم
فيها بدلت الخمر (بالجلاب)
رُدُّوا الهديةَ واشربوا من غيرها
يا بادلِينَ حَمَامةً بغُرابِ

وذهب طانيوس إلى مصر سنة ١٩٢٦، تحت ضغطٍ داخلي قاهر. وقُطع ما بيننا وبينه، حتى كدنا نجهل أثَرَه لولا ما كنا نقرأه من حين إلى آخر، في صحف مصر الكبرى؛ فكتَبنا الى صديقنا الكريم شاعر القطرين خليل بك مطران، نعتبه[٧] وطانيوس لسكوتهما على سابق وعدهما بالمواصلة؛ فجاءنا من الخليل بعد أسابيع الرسالةُ الآتية:

أخي الحبيب

كتابُكَ أقام في القاهرة أياماً طوالا، ينتظر عودتي من رحلة صيفية؛ ولم أدَعْ في مدتها – كعادتي – ، عنواناً يخاطبني به أحدٌ؛ لأنني التمستُ شيئاً من الراحة بعد عناء مُجْهد وشغلٍ بغيضٍ ثقيل. فلما رجعتُ كان الكتاب وتلقاءه أعدادٌ جمَّةٌ من «البرق» على المنضدة تجاهي. فأما «البرق» فقد سُررتُ كثيرا بعَوْده شائقاً مملوءاً حياةً، وأما الفرصةُ التي سنَحَتْ لي، وتولَّت قبل أنْ أستطيع انتهازها، لخدمةٍ أُؤدِّيها إلى الأخ العزيز والأديب الذي يباهي به البيانُ العربيُّ كلَّ أديبٍ، فهذا قد آسفني نهايةَ ما تُؤسفُ معاكساتُ الزمن.

على أنني سأهدي إلى «البرق» أشياء ربما كفَّرْتُ عن ذنب الزمن لا ذنبي، ويومئذٍ ينشرح صدري بعد انقباض.

الأخ طانيوس عبده مريضٌ من مدة باليرقان، وهو على ضعفه وأَخذِ العلة مأخَذَها منه، يكتب لأن واجباته غير مقصورة على ذاته. فإن هان ما يختص به فجانبُ العيلة، وهي بعيدة عنه، غيرُ هَيِّن. لهذا لم أقرأ له عتابَكَ، واكتفيتُ بأن أُبلِّغَه سلامَك. وشَدَّ ما اهتزَّ له طربا، كما أنني دعوتُ له بالشفاء العاجل، حتى يتسنى له ولي بجانبه، أن نفي ببعض ما علينا للأخ النابغة الحبيب.

وأَختَتِمُ بِلَثم عارِضَيْكَ مشتاقاً، وبإهداء أزكى تحياتي إلى إخواني الأعزاء من كل أديب ومنتسبٍ إلى الأدب؛ وإنَّ بي لحنيناً إلى كلّ منكم وأسألُ اللهَ أن يُقَيِّضَ لي لقاءكم في الصيف الآتي.

المخلص

خليل مطران

مصر ٢٧ ت١/ ١٩٢٦

✡✡✡

ولم تمض أيامٌ على وصول هذه الرسالة، حتى فُوجئنا ذاتَ مساءٍ برسولٍ يقول لنا:

إنَّ طانيوس عبده يريد مقابلتي، وهو الآن في مستشفى الروم ويظهر أنه ثقل عليه المرض سريعا فاحتملوه إلى بيروت ثم إلى المستشفى رأسا.

لا نذكر الرفيق الذي صحبنا ذلك اليوم إلى المستشفى، وكانت الساعةُ الثامنةَ مساءً. فدخلتُ إلى الغرفة التي أقاموه فيها، لقد كان النور ضعيفاً ولكني وقفتُ عند الباب وقد وقعت عيني على خيالٍ أسود مُسجًّى على سرير أبيض أخطر ببالي تلك المومياء التي ليوسف بك كرم(٨) في إحدى كنائس اهدن. ولكنه أسرع فبادرني بكلمة ألبسها – نكتة على عادته – نكتة كانت أشبه بحرتقة عظامٍ على حفافي قبر جديد.

مر ذلك بسرعة البرق، وكنت قد دنوت منه وصافحته متكلفاً الابتسام، ومتكلفاً النكتة أريد أن أُهوِّن عليه موقفه، وأُبدِّد ولو قليلا، هذه الغيوم السوداء التي حَجَبتْ كلَّ وجهه. فما استطعتُ أن أنفذ منها إلى تلك الابتسامة الحزينة التي كانت تقف حائرة على شفتيه أيام الحياة، أقول: أيام الحياة، لأنَّ طانيوس عبده كان بالفعل قد مات وما هو إلاَّ تراب الذي حمله – كما يقولون – إلى بيروت التي استقبل فجره الأول فيها، وسكب آلامه عليها، وصبَّ فضلةَ كأسه على جبينها، وصرف وجهه إلى الأبدية عنها يائسا منها حانقاً عليها.

فلقد وهبها أبهر مواهبه، وترك في جيدها أجمل جواهره، فما ظفر منها بابتسامة، ولا بادلَته الوفاء قدرَ قُلامة.

وانصرفتُ عنه ساعةً أُدوِّنُ بعض ما أراده مني على أن أجيء في اليوم الثاني، ولقد جئتُه، ولكن لأسكب عليه الدموع؛ فأطرقتُ عند سريره برهة كأنني واحدة من تلك الشموع!

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣٠، عدد: ٣٣٦٦، ص: ٧–٨

****

كيف عرفت جميل الزهاوي[1]

الرجوع إلى ١٩١١

شاء الزهاوي شاعرُ العراق، أن يختص «البرق» بهذه التحفة النفيسة من شعره، فكان له بذلك فضلانِ: فضلٌ للسبيل الودي وقد تلطف بتمهيده بيننا، وفضلٌ لهذه العناية (بالبرق) مع ما هو عليه الأستاذ من انحراف صحة.

وهذه الصورة الجميلة لنفس الشاعر الكبير، ونريد بها القصيدة، هي آخر ما شداه من الشعر، كما صرح لنا في كتابه إذ قال:

«.. وقد منعني الأطباء في بغداد إجهاد الفكر؛ يريدون بمنعهم أن يعودَ اليَّ قليلٌ من الصحة. ولكني أعصيهم، فأشدو الشعر؛ وهذه النفثات آخر ما شدوته منه، أهديها إلى «البرق» المتألق في سماء الصحافة العربية».

جميل الزهاوي

بغداد ١١ حزيران، ١٩١١

✡✡✡✡

أما القصيدة التي أشير إليها هنا، فهي عندنا من محاسن شعر الزهاوي، وقد نشرت في «برق» ٢٤ حزيران سنة ١٩١١ نختار لهذا المقام بعض أبياتها:

لقد هَاجَ ليلُ البَيْنِ شجوي ولا غَرْوا

إذا هاجَ ليلُ البين من مُغرمٍ شجوا

متى أيها الأثْلُ[2] الذي ظلَّ ساكناً

تهُبُّ الصَّبا إنَّ الصَّبا وفدُ مَنْ أهوى؟

بــكَـيْتُ وخــلـتُ الــدمعَ يُــجــدي من الأسى

فــمــا كــان دمــعـي إذ بــكـيـتُ بــذي جَـدوى

ولا يَـــعْـــلـم الـــصَّبُّ المــصــارعُ لــلـــهــوى

أيــقـوى عــلــيهِ، أم عــلــيه الــهـوى يَـقـوى

لِـــيَـــجْـــتَـــنبِ الإنـــســـانُ أول ســـكـــرةٍ

فــقــد لا يُلاقي بـــعــد ســكــرته صَـحــوا

ومن كـــان فـــيه غـــلَّـــةٌ[٣] من صـــبـــابـــة

فــقــد يَـشــرَبُ المــاءَ الــقــراحَ ولا يَــروى

ودِدْتُ لـــو أنَّ الحب يَـــقـــسِمُ مـــنـــصِـــفــاً

فَـيَـسـلُـبَـني عـضـواً وَيـتـركَ لـي عُـضـوا

في نصرة الزهاوي

وكان هذا فاتحة الوداد بيننا، وبين فيلسوف العراق وشاعره، وطَّدَه أننا جمعنا لِنُصرته – وكان قد أُسيء إليه من زعانف بلده – المرحومين الشيخ العازار والشيخ محيي الدين الخياط شاعر بيروت وكبير أدبائها. وذلك عندما علمنا أن الزهاوي أُقصي عن وظيفته في مدرسة الحقوق، عهد ولاية ناظم باشا عليها. فرُحنا نرتقبُ مرورَ جمال بك، واليها الجديد ببيروت، لنثيرَ ضجة في صُحفها حول عزل الزهاوي، وتقصير حكومة (المشروطية)[٤] نحو كبار أدباء العرب الذي ساعدوا بأدبهم على دكِّ صروح الظلم، ومهدوا للدستور سبيل الظهور، كما فعل فيلسوف العراق جميل صدقي الزهاوي، في العهد الحميديِّ من غير ما خشية.

وإننا ناشرون هنا، بعض كلمةٍ للعازار في هذا الصدد، مأخوذةٍ من «برق» ٢٦ آب سنة ١٩١١ بعنوان «نحو بَغدا»[٥] قال:

خطر في بالي «غطا» موالٌ بغداديٌّ كانوا يغنونه في صباي:

بــغــدادْ دارِ الــسَّــعــد ســكــانْــهــا إسلام

ويـا حـسـرتـي مـا طِـلـعْ لي من الـرفـاق خـوّه

أتُرى يردد مثلَ هذا جميل الزهاوي، على ضفة دجلة كاسفَ البال:

«**يا ماء دجلة ما أراك تلذ لي**»؟

الجواب في ضمير الشاعر.

أعجبُ والله لصحيفة «البرق» الحبيبة إليَّ؛ فإنها قامت بشأن الرصافي البغدادي[٦]. إنها تسمعنا رنة الهناء في كرمة ابن هاني المصري[٧] فعلام لا تشجينا بأنة الشقاء في أنفاس الزهاوي[٨]؟

سعى به ساعي شَرٍّ عند ناظم باشا، وهذا الوالي عسكريٌّ خالص، خالي الذهن من مفاسد الوشاة؛ فقطع راتبه من مدرسة الحقوق، ثم حاول أن يُكفِّر عن الإساءة، ولكن بعد ضياع اللبن؛ أما جمال بك، وقد عُيِّن لولاية بغداد، فلا شك أن يُقدِّر الرجل قدره.

وفي النهاية أجسر وأذكّر حضرة جمال بك [أن] في بغداد، مثلما في كثير من مدن الشرق الداجي، ألسنةٌ كاذبةٌ نمامةٌ. وإن دار السلام هذه، تعودت أن يهجرها أدباؤها، وأن لها في كل زمن ابن زريقٍ البغدادي.

ولقد نشر المرحوم الشيخ محيي الدين الخياط، في «الاقبال» ورئيس تحرير «لسان الحال»، كلمةً بهذا الصدد، ساعدنا على إيصالها إلى جمال بك، عند وصوله إلى بيروت، سعادة عبدالغني سني بك[٩]، وكان لنا صديقاً حميما، وحسني بك مدير بوليس بيروت عهدئذٍ؛ وكان قبل ذلك مدير بوليس أضنة وله بجمال صلة صداقة.

ولم يكد يستقر والي بغداد فيها، حتى صدر الأمر بتعيين الزهاوي براتب أربعين ليرة عثمانية في الشهر.

الزهاوي في بيروت

جرى كل هذا، ولم نكن قد عرفنا الزهاوي وجهاً لوجه؛ فما هي إلا الرسائل تتردد بيننا، إلى أن كان صيف ١٩١٤ حين فاجأنا في الإدارة شيخ نحيل الجسم مسترسل اللحية والسالفين، حسبناه، لأول وهلة، أحد أحبار اليهود. فسألنا عما إذا كان بشارة الخوري موجودا في الإدارة، يحسبنا أحد «المتمرنين»، وقد ألحق سؤاله عنا بقوله: أنا جميل الزهاوي! فنهضنا نحتفي به؛ وكان الوقت قد قارب الظهر، فإذا العازار يدخل علينا؛ فعرفنا أحدهما للآخر، وتركناهما في خلوة مباركة الناصية، وانصرفنا إلى إلقاء آخر نظرة على الجريدة، ثم عدنا إليهما، ومضينا معاً إلى حديقة الأزبكية حيث تناولنا الغداء بين الماء والشجر.

لم تكن صحة الزهاوي تساعده على الخمر، وكأني به يحتسي القليل منها، وهو مع ذلك ربان بأدب المجالس، لا تُمَلُّ له الأحاديثُ، يُصرفها في الفنون والأدب، مُسندة إلى العلم، واطلاع بعيد الغور.

وإننا لا نزال نذكر ذلك الاجتماع الذي كان للأستاذ الزهاوي في مكتب «البرق»، مع الشاعر المبدع أمين تقي الدين(١٠)، وما أفاض به علينا من أحاديث «الأدب الخاص» في بغداد، وما كان يدور حوله من الأهاجي بين كبار شعرائه(١١).

أدب الزهاوي

ولبث فيلسوف العراق عندنا أياماً قليلة، كان خلالها موضوع إجلال الأدباء، تُعقد له المجالسُ، وتطوف بها كؤوس الأدب مترعةً. ولا غرو فلقد كان للزهاوي في الأدب العربي أثره البليغ بما كان يُحلِّي جيد الصحف من قلائده نظماً ونثراً. فضلا عما كان

له في الأدب السياسي، من مواقف جلتها تلك القصائد الخالدة ليحمل بها على الظلم، غير مبالٍ بطرقه أن تكون أذاةً أم نجاةً أم هلاكاً. وهو هذا الذي مهد لشهرته البعيدة عندنا، وحببه إلى النشء السوري اللبناني، المتوثب يوم ذاك إلى الحياة الحرة، يركب لها الآمال فإذا هي أوهام، ويطالع لها ابتسامات المستقبل، فإذا هي تستحيل إلى جرح دام.

وعندنا أن الزهاوي أحد بحور الشعر، ما ينفكُّ يقذف بأمواجه بين الهادئ البطيء والمتوثب السريع، لما ينبعث في نفسه من المؤثرات، أهي العواصف المهيلة أم النسائم العليلة.

ولقد قيل لنا أمس إنَّ الزهاوي قادمٌ إلى الشام، فلبنان، انتجاعاً للعافية التي نرجو أن تكون ثوبه الذي لا يبلى، وهو دعاء للعلم برفع مناره، وللشعر بحفظ ابن روميه وبشاره[١٢].

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣٠،عدد: ٣٣٧٢، ص: ٨

****

لصقة رماد

كان ذلك اليوم، من أيام كانون الثاني سنة ١٩١٨. فهو إذن من أيام الغيوم التي كان في نفسي منها الكثيف الممطر؛ ولا غرابة، فهي الحرب العالمية بعواصفها الهوج وأنا في مهابِّها: الورقةُ الصفراء، لا تكاد تستقرُّ في جوفٍ حتى يعصف بها ثانية إلى جوفٍ آخر.

على أنَّ هذه الظلمات من أيام كانون ١٩١٨، أي بعد مغادرة جمال السفاح سوريا، واستقرار كوجك جمال باشا محله، وبعد إعلان هذا الأخير العفو عن ذنوب الماضي مهما كانت، والاقتصار على الذنوب المقبلة، كل هذا أعاد إلى النفس بعض اطمئنانها، فأصبحت أزور إخواني في الجديدة – مركز حكومة المتن[1] – على نور الشمس، وكانوا نفراً كريما حبيبا أعُدّ منهم ذلك الطيب ابن الطيب المرحوم فائز شهاب الذي كان يسهر عليَّ سهر الأخ الرفيق، والأستاذ جبرائيل نصار والشيخ سليم علم الدين ونجيب بك الحكيم والشيخ ابراهيم المنذر وملحم أفندي الزغزغي والمرحوم اسكندر عازار والإخوان الأنسباء يوسف وجرجي ومتري فاضل وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم.

صدفة[2] جميلة

وكان أن جمعتنا «الجديدة»[3] في يوم واحد بالصديقين الكريمين جورج بك ثابت والشيخ أمين تقي الدين بعد فرقة وشوق؛ وكان جورج بك قبل الحرب، لا يصبر عن مجالسنا، فنجتمع إليه حلقة تحتل حيناً حديقة قصره، وأحيانا الخوان عليه ألوان الشراب والطعام، تتصدره على الغالب السيدة النبيلة والدته، فنصرف الليل بين المطارحات الشعرية والمباحث الاجتماعية. وإني لأذكر أن ثلاثاً أو أربعاً من القصائد التي عربتها عن الفرنسية[4]، له عليها حق الأبوة من حيث إنه هو الذي اقترح عليّ تعريبها.

ورأت السيدة النبيلة لبيبة ثابت، بعد أن نقل إليها جورج خبرنا، أن تجمعنا على مائدتها في مثل مجالسنا السالفة، فنطالع ولو بسمة واحدة، في وجه ذلك الزمن الكالح فيما وسعني النزول إلى بيروت وبعض «كرام» بوليسها لي في المرصاد؛ فاحتضنتنا يومئذٍ دار الأصدقاء الوجهاء آل فاضل في البوشرية. فامتدت لنا مائدة فخمة اجتمع حولها أكثر الذين اشتاقت إليهم نفسي من إخوان الصفاء؛ وكانوا لا يقلُّون عن خمسين شخصاً، في طليعتهم حضرة الخطيب الأشهر الدكتور حبيب اسطفان. فكان أول تعرفي إليه. وفي صدر كل واحد منا نفس العاطفة نحو الآخر، ونفس الشوق إلى معرفته.

استدراك

وكان من الذين اعتذروا عن الحضور، وهو من أحب الناس اليَّ: الصديق الأوفى والكاتب القدير «المتقاعد» يوسف نخلة ثابت، فغمَّني أن يتخلف عن شديد شوقي إليه وتعلقي به. فبعثت إليه أستحثه على الحضور بالأبيات الآتية، ففعل:

عُدنا إلى سالفِ الليالي
نَعْبَثُ في سالف الحِسانْ
نَصْدَعُ قلبَ الدجى بشمسٍ
مَطلِعُها من حشا الدِّنانْ
تُديرها أُختُها علينا
كِلا الشقيقتين خمرتانْ
فقل لِمَنْ كأسُه زجاجٌ
ونُقله[٥] فضلة الجفانْ
إنَّا متى نفرع الحُمَيَّا[٦]
فالطرفُ والخدُّ واللسانْ

☆☆☆☆

إن شاقكَ اللهوُ والتصابي
أَطلِقْ لخُطواتكَ العِنانْ

ولا تــــقل: مــــطـــرحٌ بـــعـــيـــدٌ
وأنـت فـي قـــــوَّة الحــــصــــانْ
فــــمَنْ جـــنى الــــوردَ لا يــــبـــالي
بـــشـــوكـــةٍ تجـــرح الـــبــنَـــانْ

الشعر والخمر

وكانت الكؤوسُ لا تَفرغُ حتى تمتلئ. فحمَيت الرؤوسُ واحتدمتِ الصدورُ، فكان ميدانٌ للشعر العامي، انقسَمنا فيه إلى فريقين؛ في طليعة الواحد الدكتور أسطفان، وفي طليعة الثاني خليل أفندي الجلخ، يفتحان الردة ويغلقانها، ويتنقلان على أغصان المعاني، ما شاءت لهما حدةُ الذهن وبراعةُ القول.

وفاء واجب

أما أنا فما نسيت صاحبة الفكرة الأولى، في هذا الاجتماع؛ وكانت عقيلةُ ثابت في تلك الأيام ترأس عدةً من جمعيات الإحسان التي أخذت على نفسها حماية العذارى، ووقاية الفتيان، ورعاية العُجَّز. فهي ما كانت تُغادر ملجأً إلا لتدخل ملجأ؛ فرأيت من واجبي أن أعد لها هذه الأبيات، وقد أنشدتُها في تلك الليلة:

لــــو نـــافس الـــروضَ يـــومـــاً
بـــزهـــرةٍ كُـــنت طـــيـــبَةْ
لــــو هـــامَ قـــلبُ المــــعـــالي
لــــكـــنتِ أنتِ الحــــبـــيـــبةْ
لــــو مَـــرَّ ثـــغـــرُ الــــلـــيـــالي
لـــكـــنتِ فـــيه عــــذوبةْ
لـــو كـــان مـــثـــلُك فـــيـــنـــا
هـــانتْ عـــلـــيـــنـــا المُـــصـــيـــبةْ
فـــكـم كَـــفَـــفْت لِـــعَـــينٍ
مِنْ أدمعٍ مـــســـكـــوبةْ

فـــــدائـــــمـــــا قـــــطـــــراتٌ
عـــــلى يـــــديك رطـــــيـــــبهْ
إن تـــفـــخـــر الـــغـــيـــد يـــومـــا
بـــحـِـلـــيـــهـــا المحـــبـــوبهْ
تـــركتِ أبـــهـــر مـــنـــهـــا
في دُرجـــهـــا مـــحـــجـــوبهْ
وجـــئـــتِـــهـــنَّ ولـــكـــنْ
«بـــأربعٍ مـــنـــخـــوبـــة»[٧]
مـن مَـــعـــدنٍ تـــابـــتـــيٍّ
حـــيَّـــا الإلـهُ «فـــلـــيـــبَهْ»[٨]
وقـــلـــتِ لـــلـــغـــيـــد قـــولاً
مـــا شـــابـه قـطٌّ ريـــبـــه
يـــا مَـنْ حُـلاهـــا الـــلآلي
حـلاليَ هـــذي الـــشَّـــبـــيـــبهْ

لصقة رماد

وكنتُ قد هجرتُ الخمر، إلا نادراً. وهي إذا هُجرت انتقمت، وكان انتقامها لئيما. وكنت لفرط سروري، أتبع الكأس بالكأس من غير طعام، كمألوف عادتي. فأثَّر ذلك فيَّ تأثيرا لم أعتده، حتى إذا أويت إلى السرير عمدت «ستنا أم يوسف» والدة الأصدقاء آل فاضل، إلى لصقة رمادٍ فوضعتها على بطني، فبقيت إلى الصباح حيث تركت بعدها حروقا احتملت ألمها أشهرا. وإني لا أشهد أثرها مرةً إلا جددت عهدي للخمرة، خشية انتقامها مرة أخرى؛ ولأني ما برحت أذكر كيف كان يعلو بي السرير، حتى يلتصق بالسقف، ثم يهوي بي إلى الأرض، فأنتفض ويا لها من انتفاضة.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣١، عدد: ٣٣٨٨ ، ص: ١-٢

****

عشرون يوما
في ريفون باسم حنا فياض [١]

بين حزيران وأيار من سنة ١٩١٦ - ساعة خوف - الصديق يوسف عباس الحلو - جمعية أرز لبنان - القبض على سليم بك المعوشي[(١)] - يومان قبل الفرار.

بروق في غيوم

كانت السنة ١٩١٦، إذن فعهد الإرهاب كان في عنفوانه، وجمال السفاح ماضٍ في اصطياد مَنْ بقي من نابهي البلاد، ممن عُرف لهم ضلعٌ في السياسة أو هوىً مع الأهواء؛ وكنتُ يومذاك في عزلةٍ أُسيغُ مرارة تلك الليالي، من عزوبة الحب الذي بنيتُ في شجرته «عشي العائلي». وكان البيت الذي يضمني والذي طالعت «نجمي» فيه، قائما وسط أحراج الصنوبر، على مسافة دقائق من نهر بيروت - ألهو حيناً بالغزل شعراً وهمساً، وحيناً بالدبق نصطاد به العصافير؛ ونلتقي في الليالي، حول «قصّاصٍ» بادنٍ يدعى سليماً يحكي لنا عن فيروزة وعنترة ودليلة وأضرابهم.

وإني في هذا الحال، أعدُّ الليالي وأخشى مفاجآتها، إذا بصديقٍ هو من هؤلاء الذين تمطرهم السماء برداً على نيران القلوب، أو تُطلعهم الأرض رياحين بين أشواك اللؤم والضغينة؛ إذا بهذا الصديق يدخل عليَّ حاملا في شفتيه ابتسامةً مصطنعةً يحاول بها تهدئتي؛ فبادرته: إن وراءك لأمراً يا يوسف، فأسرع!

يوسف عباس الحلو

لا أخلو مرةً إلى نفسي، منذ سلَبَنا الموت المرحوم يوسف عباس الحلو، إلا وقد شعرت بمثل الحراب تعمل في قلبي؛ ذاك لأني لم أَفِ ذاكَ الأخ الكريم حقه عليَّ وعلى الأدب وعلى الأخلاق؛ إذ كثيرا ما يُداهمك الواجبُ، وأنت في حالةٍ نفسية أو حالة

شخصية تكون فيها أولى بالإشفاق من الميت نفسه. وكذلك كنتُ ساعة سِير بنعشه ووُورِيَ في رمسه.

لقد كان المرحوم يوسف عباس الحلو، في طلائع الفوج الذي عمل للأدب حوالي عام ١٩٠٠، قبلها وبعدها قليلا، يطلع بمقالاته في الصحف خفاف الجوانح، تعلق على الغصون حالية الأزاهير؛ فهو إذا بكى ألبس بُكاءه غلافاً من البسمات، يطفو التهكم على حِفافَيْها. وأغلب ما يُرسل كلمته أساطر[٢] قلائل، كالقنا القصار لا تلتوي على الغمز، ولكنه كان لا يبالي، بعد إرسال المقالة بما أحدثته من أثر، حتى إنه كان لا يُطالعها بعد نشرها. ولقد يبقى الأشهر دون أن يتناول قلم «الأديب»، منحرفا إلى «قلم المحاسب» ولكنه يحدث أن يتألم من أمرٍ فيعمد إلى القلم، بعد سهرة طويلة أتعب فيها الكؤوس مما تروح وتغدو، أو على وجه فجرٍ باسمٍ من أيام الأحد البيضاء.

هذا هو الصديق الذي فاجأني بين ٢٧ – ٢٨ نيسان من سنة ١٩١٦، يحمل اليَّ إيعازاً شديداً لوجوب مبارحتي المكان الذي أنا فيه، لأن رضا باشا[٣] يريدني حيّا أو ميتاً.

ساعة خوف

إذا كنتُ أنا أعجزُ عن وصف الاضطراب الذي أحدثه الخبرُ فيَّ، إذن فلا يقوى أجنبيٌّ عنه، أن يُحيط بجهة من جهاته. فكيف يستطيع سَبر عمقه في نفس صاحبه؟

هي عاطفة، أنا نفسي لا أذكر الآن كيف كان وقعُها عليَّ، ولا أستطيع استعادة أشباحها إلى خاطري، فلقد كانت بهذا المقدار شديدةً حتى إنها لم تترك ألماً بعد مضائها فيَّ، كما تفعل الشفرةُ الحادّةُ في الجسم: تقتلُ ولكنها لا توجع.

وكان قد قُبض في ذلك الوقت، على المرحوم سليم بك المعوشي رئيس جمعية «أرز لبنان» – وكان رئيسها – فقضى التحقيقُ في قضيته إحضاري بصفتي كاتباً للجمعية، ثم لأن إدارة جريدة «البرق» كانت مركزا لها، تشتمل على أوراقها وسجلاتها. وكان من ضيوف الديوان الحربي يومئذٍ، المرحومان الشيخ فيليب والشيخ فريد الخازن. فأيقنتُ أن العزمَ مشحوذٌ لإعدام جديدٍ ولا سيما في سجلاتِ الجمعية مخابراتٌ مع قنصل فرنسا وغيره من القناصل.

– عليك إذن أيها الصديق، أن تنزل إلى المطبعة وتعدم جميع ما فيها من أوراق الجمعية – ومن ثم تعمدُ إلى بيع ما هنالك من الورق والغلافات؛ وهي كميةٌ غير قليلة. وجئني بما تَيَسَّر من المال. ولا تنس النظارات السوداء وأدوات الحلاقة!.

وعاد الصديق يوسف الحلو مسرعا إلى المطبعة يُنجز ما طلبت إليه، وقد طلعَ عليَّ مع فجر اليوم الثاني، يحملُ نحو مئتي ليرة تركية، هي ثمنُ ما باعَه.

احتياط للأمر

وهنا قلت للصديق يوسف: ربما فاجأ البوليس المطبعة، وقد لحظتُ أن أوراقاً بيضاء، منسيةٌ في دفتر الكوبيا، فاكتب ثلاثة كتب بلساني: الواحد لإلياس ساروفيم، وكان قد جاءني كتابٌ بتوقيعه يطعن فيه بالدولة ورجالها ويتمنى زوالها. والثاني لتوفيق مارون والثالث لشكري الخوري صاحب «أبو الهول». أما الأول فخطأه[٤] على ما جاء في كتابه؛ وأَشدْ بمدح الدولة العثمانية، وبما نتمتع به في ظلها من النِّعم، وأما الثاني فقلْ له: إنني لا أرى لكم أن تُسَموا جمعيتكم «جمعية الاتحاد السوري»، وقد كان الأجدر لكم أن تُسَمّوها «الاتحاد العثماني» فتضموا إليها جميع العثمانيين المخلصين، فتقووا أدبياً ومادياً. وقل للثالث: إن الذين يغرونه من حين إلى آخر، بالإساءة إلى الدولة العثمانية، يسيئون إلى بلادهم قبل كل أحدٍ، فضلاً عن أن الخُلُقَ اللبناني، يُحتِّم علينا بالوفاء في هذه الأزمة التي ستعرف بها دولتنا أصدقاءها من أعدائها».

أمليت هذه الكلمات على الصديق يوسف الحلو، وطلبت إليه أن يكتبها ويقلد إمضائي فيها، ويطبعها في الورقات البيضاء المنسية في دفتر الكوبيا، وفي نفسي أنه إذا قبض عليَّ وضبطت أوراقي، أدليت بهذه الحجة على قديم «إخلاصي» للدولة. ثم افترقنا: هو يعود إلى البلد، وأنا أدخل إلى البيت أُعد عُدَّة السفر.

ولقد كانت الساعات القليلة في ذلك البيت الذي غرست فيه حبي واخترت منه «رفيقتي»، من أفجع الساعات التي عرفتُها في حياتي؛ فلقد قام هناك شبه مأتم

اشتركت فيه العائلة بأسرها، على أني اغتنمت ساعة متأخرة من الليل، كتبت فيها رسالة الى صديقي الأستاذ جبرائيل نصار، سيرد ذكرها في ما بعد[٥]، وهذين البيتين من الشعر وقد تركتهما على الطاولة في غرفتي:

تَــذكَّــريــني لــدى الــغــابــات كُلَّ ضُــحىً

فــقــد خــلَــعْتُ عــلــيــهــا بــيضَ أيــامي

تـــركتُ آثـــارَ أقـــدامي هـــنـــاكَ وقـــد

طـــبَـــعتُ روحي عـــلـى آثـــار أقـــدامي

ولم يكد ينبثق فجر اليوم الأخير من نيسان ١٩١٦، حتى أقبلت العجلة التي أقلَّتني في طريق كسروان[٦]... وقد كنت قد قررت المكان الذي أنا قاصده.

بشارة الخوري

البرق ، ١٩٣١، عدد: ٣٣٩٠، ص: ٢

****

عشرون يوما في
ريفون باسم حَنَّا فياض [٢]

مديح جمال باشا - الشيخان الخازنيان - الأب العام أوغسطين - بولس سري - الأمير شكيب.

مدح جمال باشا

كانت «الجديدة» مركز حكومة المتن عام ١٩١٥ - ١٩١٧ حافلةً بعدد الأصدقاء، نأنس إليهم في أكثر الأوقات وتعقد لنا مجالس نقتنص فيها سوانح الأنس مقصوصة الجوانح.

وأردت أن يُذاع هناك أني قصدت إلى حوران أو إلى الشام. حتى إذا سُئلت القائمقامية عني، كان لها من هذه الإذاعة مستندٌ. فأرسلت وأنا على أهبة الرحيل رسالةً إلى الأستاذ جبرائيل نصار، أشكو له فيها وطأة الزمن، وأكاشفه بما اعتزمته من السفر إلى حوران، علّي أجد فيها مرتزقاً. وقد ختمتها بهذين البيتين:

أَمَّمْتُ حَوْرانَ كَيْ أقضي به وَطَراً
فإن يَفُتني فإنّي هابطُ الشامِ
لَعلَّني وجمالُ الشرق يَرمِقُني
أحيا هناكَ بآمالي وأحْلامي

الشيخان الخازنيَّان(٧)

تركتُ هذه الرسالةَ باسم الصديق نصار، وامتطيتُ العربةَ في الفجر الباكر تُخَضخِضُ بي في ساقية الدورة(٨). حتى إذا استقبلتُ الطريقَ العام، وكدتُ أكونُ على مسافة أمتارٍ من «الجديدة» إذا بي أرى المرحومَيْن الشيخ فليب والشيخ فريد

الخازن، وبينهما الشيخ كسروان الخازن، على ما أُرجِّح، تسير بهما العربةُ إلى جهة بيروت؛ فاستوقَفتُهم أسألُهم إلى أين يقصدون؟ فقالوا إنهم قد استأذنوا جمال باشا لأيام يصرفونها بين أهلهم، وقطعوا له عهداً برجوعهم في يومٍ معينٍ، وأنَّ مُروءتهم تأبى عليهم أن يَنكُثوا بالعهد، وأنهم مطمئنون إلى سلامتهم ونيَّة جمال من نحوهم؛ فقلتُ إنها لمُخاطرةٌ غيرُ سَليمةِ المَغَبَّة. قالوا، وأنت، إلى أين من هنا؟ قلت: إلى بلدكم الذي تركتموه، فقد أرى لي فيه ملجأً.. ثم افترقنا، وفي نفسي من القلق على هذين الأخوين الطيبين، ما فيها.

في جونية

ولقد كان الحوذيُّ الذي أقلَّني من البيت، قد اشترط إيصالي إلى «جونية»؛ فوقعتُ على حوذيٍّ نَدٍّ اسمه عني من درعون[٩] قلت: بكم توصلُني إلى رَيفون؟[١٠] قال: بما تريد يا بك! قلت أيكفي خمس ليرات؟ قال: كما تأمر! وسارت بنا العربةُ، ولكن على عَجلٍ؛ وكيف تقوى الخيل على العجلة وثمن رطل الشعير «كمشة» من الورق الملون؟[١١].

لقد كان ذلك اليوم، الأول من أيار ١٩١٦، وكانت السماء نقيةً صافيةً، حتى كأننا في مطلع الصيف، لولا قرص البرد في الفجر والليل؛ وكان كلُّ ما يحيط بي جميلاً؛ بل غايةٌ في الجمال. ولكن أنَّى لتلك الشمس الساطعة في الأفق أن تُمزق الغيوم المتلبدة في نفسي؟.

وسألت الحوذيَّ: أترى أجدُ (لوكندة)[١٢] حسنة في ريفون؟- ولو .... رَيفون وما فيها (لوكندات)؟ بتكفيك لوكندة يوسف مانوك.

- حسن، خذنا إلى لوكندة يوسف مانوك!

وكانت الشمس قد تزحلقت عن الأفق، وأخذت أشباح المغيب تتخايل في الفضاء كأجنحة طوال رقيقة، أو كغلائل من الدخان بين الرماديِّ والقاتم، إلى أن تتلاشى رويدا، رويدا على ستارة الظلمة الزاحفة.

ووقفت بنا العجلة عند مدخل النزل؛ فأخذ الحوذيُّ «الشنتة» ووقف ينتظر حسابه.

الأب العام أوغسطين

لقد كانت لي دالَّةٌ كبيرة، في ذلك العهد، على سيادة الأب أوغسطين البستاني رئيس الرهبنة الحلبية العام – سيادة المطران البستاني اليوم – ولقد مكَّن لشخصه الكريم في نفسي، تلك المزايا العاليةُ والفضائلُ الغالية التي يتحلى بها؛ وهي إلى اليوم آخذة بالنمو ماضية في السمو، حتى بلغت الذروة العليا واستقرت، وهو فوق ذلك يجمع إلى هذه الحلى الدينية، ما لا يقل عنها جمالا في سعة الصدر، وبُعد نظرٍ إلى مروءة إنسانية ومهزة وطنية، وكان يومذاك في دير فيطرون(١٣). فأول ما خطر لي، منذ فوجئت بنبأ عاليه(١٤)، أن ألجأ إلى ذلك الدير، وأقيم في ذلك الكنف، ولهذا أسرعت، عند دخولي إلى النزل، بكتابة كلمةٍ إلى سيادته أوجز له خبري، وأكشف له عن نيتي في الالتجاء إلى الدير، وقد أنبأته أني اتخذت لي اسم «حنَّا فياض» أستتر به ما دمت هنا؛ ودفعت الرسالة إلى الحوذيِّ فمضى بها إلى فيطرون، وهي على قيد ثلثِ ساعة من ريفون تقريبا؛ وما لبث أن عاد يحمل في عربته، راهبين حملا إليَّ تحية سيادته، وكتاباً منه يقول فيه ما خُلاصته: «إن الدير لم يعد ملجأ أمينا، لأن الجنود اللبنانيين كثيرا ما يفاجئونه ليلاً في طلب يوسف أفندي دريان؛ وقد كان مطلوبا للتجنيد». فهو إذن لا يتحمل تبعة ما يقع لي فيه، مع شديد رغبته بقربي، ثم قال لي الراهبان باسم سيادته، إنهما سيزورانني كلَّ يومٍ ويقومان بما يلزمني.

بوليس سري

كنت أول زبائن «النَّزل»، لأن المصطاف لا يقصد إلى الجبال قبل أواسط حزيران. هذا إذا أبكر؛ وأنا جئتها اليوم الأول من أيار. فمن ذا عساني أكون؟ وما هو السر في هذا التكتم؟ ولماذا تمضي عليَّ الأيام، دون أن أبرح النزل، ولو لنزهة صغيرة؟... كنت أقرأ هذه الأسئلة على شفتي الخواجة يوسف مانوك دون أن يلفظها، وأخيرا شعرت أن الرجل يرى فيَّ ضيفاً غير عادي، ولكنه على كل حال ضيف خفيف، هادئ حَسَنُ المعاملة؛ فكنت أتصور نفسي كأحد هؤلاء المجاذيب، الذين يُحجر عليهم، أو يحجرون هم على أنفسهم، لا سيما عندما كنت أبقي على ذقني أياماً دون حلاقة، رغم أني إذا

اضطررت إلى التنكر، في زيٍّ قسيسٍ، كانت اللحيةُ موجودةً جاهزةَ. هذا كله زاد في هجسِ صاحب النزل، ومن كان يلفُّ حوله من أهل القرية؛ فما لبثت الألسن أن همست: أنّ في نزل مانوك بوليساً سريا.

فإذا كان من المصائب ما يُضحك، فهذه؛ أنا أخشى أهل البلدة وأخشى على الأخص، هذه الإشاعة التي قد تنتقل بالتواتر إلى مناطق الخطر، وهناك البلية. وهم يرون فيّ البوليس السِّري، وهو يومذاك شبح الرعب والهول.

إخلاء سبيل المعوشي

وكان قد بلغني، بعد وصولي ببضعة أيام، أن الأمير شكيب أرسلان[١٥] يومئذٍ ذو الكلمة المسموعة، قد توسَّل لدى جمال باشا بإطلاق سراح سليم بك المعوشي فأفلح ولكن، أتُراني كنت أجد لي شفيعا لدى جمال، وقد سبق لي أن حملتُ في بوقي على الأمير شكيب أرسلان عفواً، نزولاً عند رغبة أحد الأدباء الدروز وهو من أصدقائي، وقد قام اليوم أحد أنسبائه يكافئني على تلك الصداقة التي كادت توردني موارد الحتف لو سقطت في يدي السفاح وكان من حق الأمير شكيب أن ينتقم مني.

ولقد سرني كثيرا إخلاء سبيل الصديق المرحوم سليم بك المعوشي لما كان له من الحب في قلبي؛ ثم لاعتقادي أن في إخلاء سبيله تمهيداً للتجاوز «عن هذه القضية» لا سيما وأن الأمير عادل كان عضوا في جمعية الأرز، إذن فقد تجمعت الأسباب لإطفائها وذلك لحُسن حظي.

بشارة الخوري

البرق،١٩٣١، عدد: ٣٣٩١، ص: ٥

****

عشرون يوما في
ريفون باسم حنًّا فياض [٣]

الخوري الياس ريشا - شنق الشيخين الخازنيين - خاتمة المشانق السياسية - ادوار لوار - مصطفى بك الحكيم - فراق غير أليم - مشهد للبدر عند المغيب.

الخوري الياس ريشا

الحق يقال: إن في الإكليروس الماروني رجالاً يفخر بهم العصر الذي نشأوا فيه؛ ولكن أمثال هؤلاء من الرجال، يتغذون بالحس العلوي إذا تغذى غيرهم بهرج الدنيا. ولكنهم على كل حال، أطيب من سواهم عنصراً، وأشرف غايةً كتلك البنفسجة التي تغطيها أوراقها، فتكتفي بنشر الطيب في الوسط الصغير الذي تقيم فيه. أما البنفسجة التي تنشَّقْتُ عَرْفَها على تلك الذرى، بين ريفون وفيطرون، فهو الخوري الياس ريشا - سيادة المطران ريشا اليوم -. فما كاد يَعْرفُ بخبري حتى قصدَ إليَّ يعرض الخدمة التي أريدُها؛ وإني لا أزال أذكر قوله لي: إننا رجال الاكليروس، ملزمون بأن نضحي بأنفسنا في سبيل أبنائنا وإخواننا؛ فإذا لم نفعل اليوم، والسيف على الأعناق، فمتى نفعل؟ فشكرت هذه العواطف وأكبرتُها، ثم طلبت إليه أن يقابل الأستاذ الشيخ ابراهيم منذر وكان، كما سبق القول، مستنطقا في حكومة المتن، فيعلمه بمقامي ويحمل إلي منه ما يهمني علمه من أخبار عاليه وغيرها، مما له علاقة بموقفي. ولقد قام حضرة الأب الياس ريشا ثلاث مرات بهذه المهمة الشاقة فمحا بمروءته الكثير من سيئات غيره.

شنق الشيخين الشقيقين

كان الخبر شديد الوطأة على النفوس، حتى لكدت أقرأ على الجباه القليلة التي كانت تمر من تحت نافذتي أسطراً دكناء، وألمس خلل الشفاه حزناً موثقاً، ذلك ساعة قيل: إن الشيخين فليب وفريد الخازن شُنقا.

ولبثت على أحر من الجمر أنتظر صحيفة من بيروت أقرأ فيها شيئا عنهما، فإذا الصحيفة عندي في اليوم التالي، وإذا هي تذكر خبر الشنق مقتضبا، ولكنها أفاضت في وصف رجل ثالث شُنق معهما، فقالت إنه يهزأ بالموت وإنه طلب قبل أن يشنق صحن فول مدمس أكله بشهية ثم مشى إلى المشنقة لاعبا هازئا.

ومن الطبيعي أن تزيد هواجسي تلك الليلة وتتكاثر عليّ الأحلام المزعجة، ولقد زاد فيها تلك الأخلاق السافلة التي ظهر بها بعضُ اللبنانيين حتى تنكر الصديق لصديقه واستراب الأخ أخاه؛ وإذا قلت لك إني لم أجرؤ أن أعلم بأمري الثلاثة الذين كانوا يحكمون قضاء كسروان وهم من أصدقائي، تبينتَ بعض ما خفي حتى الساعة من أثر اللبناني في اللبناني وشاية ودسا ونكاية.

لقد كان على قائمقامية كسروان الأمير أمين أبي اللمع وعلى قيادة الجند حنا بك حنا ضاهر وعلى مديرية الناحية الفونس أفندي منصور. وإني لأذكر بملء الأسف يوما وقعت فيه عيني من النافذة على المدير منصور، فخشيتُ أن أكلمه. وهذا يدلك على مقدار ضعف الثقة وهو أقتل ما ابتُليتْ به بلاد.

أقول هذا ولا أريد منه أن أمسّ شخصية الذين سميتهم ولكن لأدلّ به على الحالة الروحية التي سادت لبنان مدة الحرب، وكان أبناؤها بلاءً على أبنائه.

خاتمة المشانق

ويظهر أن شنق الأخوين الطيبين كان خاتمة أعمال الرعب في لبنان وسوريا. فلقد حل محل جمال السفاح جمال باشا الصغير «كوجك جمال»[١٦] وأذيع على أثر وصوله منشور قيل فيه إنه الآن لا يؤخذ أحد بأي جرم سابق، وإن حياة كل فرد أصبحت مصونة بقوة القانون.

فأعاد هذا المنشور وما تلقَّيتُه من الصديق المنذر بعض الطمأنينة إلى نفسي؛ فسكَنْتُ قليلاً وأصبحت أتساهل بالخروج من النزل كل يوم، فأصرف الشطر الأكبر من نهاري في دير فيطرون، أو في كرسي ريفون، وأقطع الشطر الأكبر من الليل في

مطالعة روكامبول[١٧] وغيرها من الروايات التي عَمَرتْ بها صناديقُ النزل العتيقة، وكنتُ لا أزال حتى الساعة، أُدعى الخواجه حَنَّا.

إدوار لوار

كثيرون هم الذين يذكرون إدوار لوار ذلك الشابَّ الافرنسيَّ وليدَ بيروت، فهو إذن يتكلم اللغتين، وهو إذن يضرب في الجنسيتين، ثم هو يلعب على الحبلين. فلقد كان الفرنساويَّ الوحيد الذي خان وطنه ووضع نفسه تحت تصرف محيي الدين بك مدير البوليس في ذلك العهد، ومكّن له الثقة لدى الأتراك أنه اكتشف لهم آلة لاسلكية في جونية، وفي عينطورة ثم جردوا منه جاسوساً يهبط المدن والقرى فَيَجُرُّ وراءه ذيلا من الخوف يَقصر أو يطول، بنسبة ما كان يُحاط به من الزُّلفى ويُراق في جيبه من المال.

هذا هو الشخص الذي وقفت به عربته أمام باب النزل، ثم نز ل منها ودخل على الخواجا مانوك يسأله غرفة، وكنتُ لا أزال منكمشا في غرفتي، وقد شعرت بدبيب الخوف في مفاصلي، ولكنني شعرتُ فجأة بقوة اليائس على مجابهة المخاطر. وفي تلك اللحظة انكشف لي السرُّ في جراءة الذين كانوا يمشون إلى المشانق أبطالاً يتغنَّون ويتطرَّبون، وأيُّ شيء تريد أن يخطر لي، سوى أن إدوار لوار مُرسلٌ في أثري، وأنني بعد ساعاتٍ سأكون في دائرة البوليس، ومن هناك في طريق عاليه.

وسأل إدوار لوار صاحب النزل: هل عندك أحد؟

– الخواجا حنا فياض!

– إذاً فسيكون لنا شيء من السلوى.

– وحانت من الخواجا لوار لفتةٌ إلى داخل غرفتي، وكان البابُ مشقوقاً فلم ير بأسا في الدخول... «بونجور مسيو فياض». أُقدِّم لك نفسي: إدوار لوار!

– «صار لي الشرف أهلاً وسهلاً». ثم قدمت له كرسياً وطلبت له القهوة، وكان المسيو لوار خفيفاً، فيه شيءٌ من الطيش؛ فشرع منذ الساعة الأولى، يُريني صورة

قرينته وطفلته ويُحدِّثُني عن علاقة محيي الدين بك بهم، وصداقته للعائلة. ثم تناول من جيبه رسالة بتوقيع قائد البوليس، يَضعُ فيها تحت إمرته قوَّات البوليس و «الجندرمة». فنظرت إليه شذراً وقلت له، بحزمٍ فيه شيء من اللين: إجمع هذه الأوراق حالا؛ وأرجو أن لا تكون أطلعت عليها أحدا. فأنت هنا لتعمل واجبا، لا لتعكر راحة الناس الأمناء، واستأنفت الكلام بشيءٍ من عدم الاكتراث: أَلا قُلْ لي، يا مسيو لوار: كيف هي الحالة اليوم بين عزمي بك[١٨] ومحيي الدين بك؟ ولا أعلم تماما ما الذي أنطقني بهذه اللهجة، ولكني قرأت في هيئة جليسي تغيراً، مع شيء من التضاؤل أمامي، لم أستطع تفسيره إلا أنه توهمني عاملا سريا للحكومة يتمتع ببعض السلطة، ثم قال لي: أتأذن أن نتعشى معا هذا المساء؟ قلت: أنت وما تريد. فخرج يخاطب صاحب النزل بإعداد العشاء.

في أثر يوسف دريان

وإني لفي هذا الموقف الدقيق، إذا برسالةٍ تصل إليَّ من الأستاذ نصار تقول، إنَّ سؤالاً ورد على القائمقامية بشأني، فأجاب القائمقام عليها، أني توجهت إلى دمشق، والقائمقام الأمير فائز[١٩] توجه خصيصا إلى عاليه، لمعرفة الأسباب التي طُلبِتُ من أجلها. فكان خلاصة ما تجمع لديه من ذلك، هو أن اسمي ورد في معرض التحقيق في قضية «أرز لبنان»، ثم لخبر نُمي إلى الديوان العرفي، أن زورقاً أقلع إلى أرواد، من بين ركابه بشارة الخوري، ثم لأن اسمي ورد في لائحة المبعدين الأولى، وعهد إلى مغفر[٢٠] الجميزة[٢١] بطلبي، لأني كنت مقيماً في ذلك الحي؛ فأجاب المغفرُ بنزوحي عنه. تجمَّعت كلُّ هذه الأسباب، في معرض البحث عن قضية «أرز لبنان».، فساء رضا باشا أن لا أُطال في واحدة منها؛ فكانت منه تلك الكلمة العنيفة بطلبي. غير أنه، لحُسن الحظ، كان المدعي العام لدى الديوان العرفي في ذلك الوقت، حضرة الصديق الكريم مصطفى بك الحكيم؛ فعمل على طمس الأوراق، وهو يُطمنني بواسطة الأمير فائز، ويزيل كل خوفٍ في نفسي.

قرأت هذه الرسالة، بينما كان إدوار لوار والخواجة مانوك، منصرفين إلى إعداد العشاء. ولا لزوم للقول، بأنني استعدت كثيرا من نشاطي، فأخذت أُنفقُ عن سعة، حتى

أصبح السيد لوار لا يصدر إلا عن إشارتي؛ وكنت قد علمت منه أنه قدم في طلب الخواجه يوسف دريان؛ فحملتُ الخبر بنفسي إلى فيطرون، حيث أبلغته سيادة الأب العام أوغسطين.

فراق غير أليم

وشدَّ ما سُررت عندما أعلمني ذات مساء، أنه عائد إلى بيروت في صباح اليوم التالي. وبالفعل فإنه ترك النزل في الصباح الباكر، وكنتُ قد استعدت نشاطي وحريتي بعد كتاب الأستاذ نصار، فكشفت لصاحب النزل عن حقيقتي وأخذت أزور بعض البيوت في ريفون، حيث لقيت فيها كل عناية وإكرام.

إن ريفون، من أجمل قرى الاصطياف وأجودها هواءً، وأشرقها سماءً. وإني ما برحت أذكر مشهداً للبدر وقد مال إلى المغيب بين الغلس وانفتاق الفجر؛ فأوحى اليَّ هذه الأبيات:

يا بَدْرُ يا مُؤْنسَ الزهَّادِ ها أنا ذا
منهُمْ وإنْ كان ثَوبي غيرَ ثوبِهِمِ
أما تراني َمذْ عامَيْنِ مُعتزلاً
كراهبٍ بفناء الدير معتصمِ
يَمضي النهارُ ولا أدري به فإذا
جَنَّ الدجى أيقظَتْني للسُّرى هِمَمي
فألبَسُ الليلَ جوَّاباً بساحته
أخوضُ فيه ببحر غَيرِ ملتطمِ
كأنني شَبَحٌ طوَّافُ أنديةٍ
لا تستقر على خد الثرى قَدَمي
في السفح حينا وأحيانا على الأكمِ
في ظاهر السهل أو في باطن الأجَمِ

✲✲✲✲✲

وشاقني منظرٌ للبدر أرْسُمُهُ
وقد تقنَّع زاهي وجهه بِدَمِ

وذاك لمَّا تهاوى نحوَ مغْربِهِ
وقبَّلَ البحرَ منه ثغرُ مبتسمِ
فخْلتُهُ غادةً حسناءَ خافيةً
في الماءِ جسماً علاهُ وجهُ مضطَرمِ
رأتْ على البعد - فاستحْيَتْ - خيالَ فتىً
يدنو مع الغلس الطافي على الظُّلَمِ
فكلما قاس باعاً في الثرى حجَبَتْ
من وجهها إصبعاً آياتِ مُحْتَشِمِ
حتى إذا ما دنا غاصَتْ وقد تَركَتْ
في صفحة الماءِ آثارا من الضَّرَمِ

☆☆☆☆☆

وعدْتُ عنه وطَرْفُ الفجرَ يرْمقُني
لا كنتَ يا فجرُ؛ قد نَغَّصْتَ لي حُلُمي

وقد غادرتُ ريفون في الواحد والعشرين من أيار سنة ١٩١٦ إلى منزلي في الساحل، بعد أنْ خلعتُ عني مخاوفي وهمومي، ولكنْ إلى أجلٍ، فانصرفتُ إلى المطالعة والنَّظْم، أَقتُلُ بهما الوقتَ طيلة ثلاثة أشهرٍ: من حزيران سنة ١٩١٦ إلى آخر آب من السنة نفسها. وأذكر أنَّ كل ما نظَمتُهُ مدة الحرب، كان خلال هذه الأشهر الثلاثة، ما خلا بعض المقاطع.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣١ ، عدد: ٣٣٩١-٣٣٩٢، ص:٥-٦

****

بين أيلول ١٩١٦ وكانون ١٩١٧ [١]

تيار من هواجس - نعوم أفندي باخوس - ساعة يأس - سليم أفندي مقصود.

تيار من هواجس

وكانت الضائقة قد أخذت بالخِناق في ذلك العهد، فأصبحت حبةُ القمح كحبة التبر؛ كلاهما يَصعُب الحصول عليه، أو هما أصبحا في عداد المستحيلات على الضعيف العاجز والأديب الخائف. وكانت الأشهرُ الثلاثة: حزيران وتموز وآب، قد أكلت ما بقي معي من الدراهم القليلة، وكان عليَّ أن أقوم بأوَدِ عائلةٍ فيها بضعةُ أطفالٍ ألقاهم القدَرُ على عاتقي، وأيُّ عاتق ضعيف هو؟ فَطَويتُ «الأغاني»(١) وكان رفيقَ ليلتي ونهاري؛ وانصرفتُ عن قلمي وطِرْسي، أنظرُ تارة إلى تحت مخدتي، فأحسَبُ ما هناك من دراهم، وكانت لا تفي بنفقة أسبوع، وتارةً أُطلق العنان لمخيلتي، أستعيد أخيلةَ الأصدقاء القادرين، فأُحدِّثُ النفس بالالتجاء إليهم، ولو في سِلفةٍ أفيها؛ ولكني كنت أهتزُّ فجأة لما أتصور أنه عالقٌ في نفوس هؤلاء الأصدقاء من عجزي عن الوفاء، وأنَّ المال الذي سيرسلونه إليَّ، إنما هو على سبيل الهبة أو المساعدة؛ فأقطع عن مخيلتي طريقها وأرجع إلى الحالة الراهنة التي أنا فيها.

نعوم باخوس

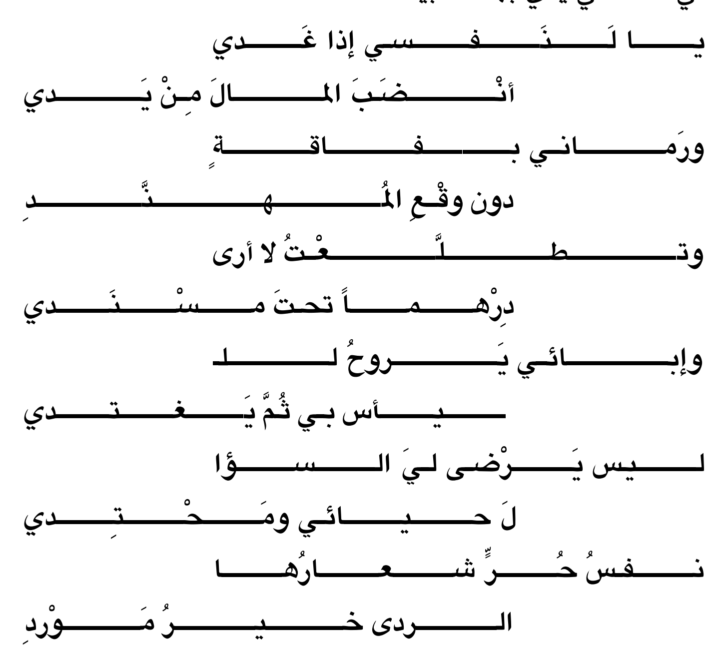
وإني لأصارعُ هذه الأفكار، فتصرعني، فآخذ القلم وأكتب هذين البيتين، وفي نيَّتي أن أبعث بهما إلى أقدر وأوسع أصدقائي، وهما:

أتيتُك والدنيا ظلامٌ فمُرْ بها
فتُسْفِرَ عن شمس السُّعود سماؤها
فلستُ، ونبعُ المال جَفَّ براحتي
سوى سَمْكةٍ نهريةٍ جَفَّ ماؤها

على أني ما كدتُ أستعيد قراءتها، حتى أخذتُ الورقة بيدي، فدعكتها ورميت بها إلى الأرض؛ ثم نهضت لأرتمي في سريري، فإذا بعربة تقف أمام البيت، ترجل منها الصديق الكريم نعوم أفندي باخوس، فأسرعتُ إلى استقباله فالتقينا على وسط السلم مشوقين. ثم بادر الى السؤال عن أحوالي؛ فحمدت الله عليها، وقلتُ له إني في خير. فعرض عليَّ نحو ألف ليرة وألحَّ بأن آخذها منه، على أن أردَّها إليه بعد الحرب، فأنكرت أني في حاجة إلى المال من غير أن أعلم سبب الحياء الذي استولى عليَّ. فنعوم باخوس من أصدق إخواني وأقربهم إليَّ، ومن أعفِّهم يداً وأسبقهم ندىً وأكرمهم محتدا؛ وأنا على يقينٍ أني قادرٌ على الوفاء لأني لم أكن قد بعتُ مطبعتي بعد.

ساعة يأس

وشيَّعتُ الصديقَ نعوم أفندي باخوس، حتى إذا غاب عن بصري عدت إلى غرفتي، أتفحص ما بقي معي من الدراهم، فإذا هي قد فني أكثرها، فارتميتُ في سريري حائراً مُضعضعاً، وقد أخذ الشِّعرُ اليائس يعتلج في نفسي، فإذا أنا أسوِّد الصفحة التي كانت في يدي بهذه الأبيات:


يا لَنَفْسي إذا غَدي
أنْضَبَ المالَ مِنْ يَدي
ورَماني بِفاقةٍ
دون وقْعِ المُهنَّدِ
وتطلَّعْتُ لا أرى
دِرْهماً تحتَ مَسْنَدي
وإبائي يَروحُ لـ
ـيأس بي ثُمَّ يَغتدي
ليس يَرْضى ليَ السؤا
لَ حَيائي ومَحْتِدي
نفسُ حُرٍّ شعارُها
الردى خيرُ مَوْرِدِ

فــــأخي في خـــــصــــاصـــــتي
كـــالجــــنــــيب المــــعـــــبَّـــدِ[٢]
ومعَ الــــــيُـــــسْــــــر مَنْ نـــــأى
كـــــأخي مـــــنــــذ مــــولـــــدي
هــــكــــذا مـــــنـــــذ نــــشـــأتي
غـــــــــيــــــــرَ ذا لـم أُعَـــــــوَّدِ

✲✲✲✲✲

أخـــــــــذ المــــــــالُ ثــــــــأرَهُ
مـن جَــــــــواد مُــــــــبَــــــــدِّدِ
حـــــــقَّــــــر المــــــالَ كـــــفُّهُ
فـــالـــثـــرى مـــثْلُ عَـــســـجـــدِ
فـــــنــــأى عــــنه حــــاقــــدا
أي من هــــــنت يـــــحــــــقـــــدِ
أيـــــهـــــا المـــــال إن تَـــــبِنْ
بـــــعـــــدمـــــا كــــنت في يـــــدي
لــــست آتـــــيك ضـــــارعــــا
جــلَّ عــن ذاك ســـــــــــــؤددي
لـي شـــــــفـــــيعٌ إلى الــــــردى
هــــــو مــــــنـي بمـــــرصــــــد
جــــرعـــــةٌ إن كــــرعــــتُــــهــــا
فـــلـــقـــد نـــلتُ مـــقـــصــــدي
ســــجِّـــــلي يـــــا يـــــراعـــــتي
وَمُــــرِي الــــطـــرس يـــشــــهـــد

سليم مقصود

ليس سليم مقصود بالأديب الكاتب، ولا هو بالغني الطامح، ولكنه نشأ في حضن السياسة اللبنانية، ودرسها في بيت حبيب باشا السعد خاصة، فكنا نلتقي به هناك

عهد يوسف باشا[٣] حيث تُبسط الآراء وتُطبخ المؤامرات، فعجمنا منه عوداً صلبا، واعتمدنا منه ذكاء فطريا مدهشا وعرفنا فيه إخلاصا عجيبا يدل عليه بقاؤه على ولائه لحبيب باشا أكان في السراي رئيسا أو في بيته حبيسا، وإن تعجب أن يستحق سليم مقصود هذا التنويه مني، فقد تراني مُحقاً متى علمتَ أنه الرجل الذي بعثته العناية إليَّ في أحرج الساعات. فقد رآني وهو في طريقه إلى الجديدة فجُنَّ جنونه وانبرى يستمطر الأفق سبابا، ثم انحنى علي بالأسئلة: أين كنت؟ وماذا تفعل؟ وكيف أنت؟ ثم استطرد: إني سأنقل خبرك إلى نجيب بك الأصفر، وأنا واثق أنه ليسر بمساعدتك، ثم لوح بإشارة من وجهه، أراد أن يقول بها «إنهم» يحتاجون إلى شهادة مثلك فيهم، بعد أن تضع الحرب أوزارها.

وكان سليم مقصود موظفا في شركة القمح، وكان يومذاك في دورة تفتيشية – على ما أذكر – وإذا علمتَ ان قنطار القمح كان يباع في الشركة بين العشرة إلى العشرين ليرة تركية، في حين أن ثمنه في السوق كان يتراوح بين المئة إلى الخمسمائة ليرة تركية، أدركت مبلغ النعمة التي كان يتقلب فيها الذين رزقوا حظوة في عيون أولي الأمر في ذلك الزمن، ولم تعد تعجب لجامعي الثروات منهم لأنهم كانوا يبيعون ما يفضل عنهم من القمح بمبلغ كبير.

ولم تمض أيام على هذا اللقاء، حتى حمل إليَّ أحدُ المُكارين، نحو نصف قنطارٍ من القمح، مصحوباً برسالة من سليم مقصود مع بيان الثمن فأدَّيتُه للرسول مغتبطا، لأنه إذا وُجدَ القمحُ في ذلك الوقت، فقد وُجد كلُّ شيء حتى الذهبُ نفسهُ.

مفاجأة مؤلمة

وكأن القدر قد كَتَب لي أنْ لا أطمئنَّ ساعةً. فلقد زارني على أثر هذا، بعض الأصدقاء أتذكر منهم الشاعر حليم دمُّوس[٤] والتاجر جبرائيل غرزوري والأديب المرحوم طانيوس عبود[٥]، فكان مما بادرني به أحدهم، أنهم تحدثوا في قطار الشام أنَّ زورقاً سافر من الشاطئ اللبناني إلى أرواد، ويقال إنَّ عليه بشارة الخوري، وإنَّ نعيم صوايا كان من شهود هذا الحديث، ولا تسل عما تركته هذه الإشاعة في نفسي من الألم الممزوج بالخوف.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣١، عدد : ٣٣٩٣، ص: ٥

****

بين أيلول ١٩١٦ وكانون ١٩١٧[٢]

نجيب بك الأصفر – موظف ثلاثة أشهر – شتاء في بكفيا – إشاعة الصلح – بؤساء ١٩١٧.

نجيب بك الأصفر

لقد تضاربت الأقوال في نجيب بك الأصفر، مدير شركة القمح اللبنانية[٦]. ولا غَرو إذا كثُرَ الناقمون؛ وهو يومذاك في معتقد القوم، أنه يستطيع وقفَ المجاعة، ونثرَ أكياس الحنطة هنا وهناك وهنالك. ولكنهم جهلوا أن مدير شركة القمح، لم يكن مستقلاً، وأنه كان هناك علي منيف يوجه إليه بالوثائق لفلان وفلانة؛ ثم إنه لم يكن في وسعه أن يراقب معاونيه، وقد تفشّى في معظمهم، داء الارتكاب، واشتدَّ ظمأهم إلى جمع الثروات. فهو إمّا أنه كان يعرف ويستحي أن يعاقب، أو أنه كان ذا ثقة بمن حوله، فيتسلحُ هؤلاء بهذه الثقة ويتمادون في اتباع نفوسهم. ولقد كان في وسع نجيب الأصفر أن يجمع ثروةً لا تحصدها السنون، من وراء وظيفته تلك. فإذا هو يكدح بين أوروبا ومصر والعراق، في طلب مشروع يبني عليه مركزه المادي ولمَّا يزل.

أقول هذا، لا لِمَا سبق إلي من رعاية، لأني ما اعتدت أن أصانع حتى في ذلك الزمن الكالح. ولكنها كلمة أملاها الوجدانُ، وحداها العرفان، وما شاء ربُّك كان.

موظف ثلاثة أشهر

كان ذلك اليوم في أيلول أو تشرين من عام ١٩١٦، عندما أقلَّتني (العربية) إلى جنب الأمير المرحوم فائز شهاب، لأني لم أكن بعد لأجسر على الذهاب وحدي إلى بعبدا. فسِرنا توّاً إلى إدارة الشركة؛ وشدَّ ما كان فرحُ الأصحاب بذلك الملتقى! وقد استقبلني نجيب بك استقبالاً حسنا مرفوقاً بكثير من العتاب، لعدم إخباره بمكاني وعرض حاجاتي عليه؛ فشكرتُ له وأثنيتُ عليه؛ ثم عرض علي وظيفة في دائرته، فآثرتُ

أن أكون بعيداً عن مركز الحكومة. وكان للإدارة مركزٌ في بكفيا، فأُرسلتُ إليه بمُرتَّب ثلاثينَ رطلا من الحنطة.

في بكفيا

لم أكن لأشهد الشتاء في الجبال قبل تلك السنة؛ ولقد كان أكثر ما انطبع في نفسي، تلك الملآت من البرد الصغير تتساقط طيات طياتٍ على الشجر والأرض؛ والحق يقال: إن تمضية أسبوع في أعالي الجبال، حول الموقد، وعلى سَعَةٍ من العيش، لَمِمَّا يُستطابُ. ولقد كان رفيقيَّ في تلك المهمة، إلياس أفندي الحويك وسامي بك الخوري – مدير العدلية اليوم – فكنَّا نصرف أكثر أوقاتِ الفراغ، بما يُنَفِّس الكَرْب ويخفِّفُ وقعَ المصائب، إلى ما هنالك من آمال نُحيكها للمستقبل – والمستقبل عندنا نهاية الحرب –. ولقد كانت لي سَلوةٌ أخرى ببعض الرفاق الأدباء، يقصدون إليَّ من القرى المجاورة، فنتناشدُ الشعر ونتشاكى بعض ما يختلج في الصدر.

إشاعة الصلح

ولقد راجت إشاعةٌ بعقد الصلح في مستهل عام ١٩١٧. وكنا لا نزال في كانون الأول من عام ١٩١٦. فرحنا نرقصُ فرحاً ونتبادل التهاني، ونحن لا نصدِّقُ أننا خارجون من هذا السجن الكبير – لبنان –، أو أنَّ نورَ العالم الوسيع سيَنفُذُ إلينا، فنُبصر حقيقة ما جرى في ساحات الحرب وغيرها، لأننا لم نكن نُعطى من الأخبار إلا ما وافق مصلحة الدولة التركية وحلفائها. ومما يستحق الذكرَ أن الضائقة كانت قد بلغت أشدها. حتى إنَّ بعض الناس – على ما اتصل بنا – كانوا يُنقبون في رَوث الدواب عن حبوب القمح، ويحسبون الجيفة النتنة وليمةً فاخرة.

خيبة أمل

وشدَّ ما كانت الخيبة أليمةً عندما أقبل العام الجديد، دون أن تحمل الأنباء بشرى السلام. فتكاثفت الظلمة في عيوننا ونفوسنا، ورحنا نطرق وجوماً، ونتساءل همساً عمَّا حال دون السِّلم، ونحن لا نقوى أن نطيل فيه بحثاً. ثم رحنا نتساءل: كيف يقوى هؤلاء الضعفاء على البقاء في الحياة، إذا استمرت الحرب سنةً أخرى؟

وكأنَّ تلك المؤثرات قد أوحت إلينا الشِّعر، والشعرُ عند الشاعر كالدمع، لا يستطيع حبسه إذا هو جاش في نفسه. فتمَّ لنا في فجر تلك الليلة قصيدة بعثنا بها إلى نجيب بك الأصفر، وقد جعلنا عنوانها «بؤساء ١٩١٧» وقد أودعنا فيها من وصف الحالة، ما لو وقع عليه أولو الأمر في ذلك العهد، لكان المصيرُ وبالاً.

بؤساء ١٩١٧

إلى نجيب بك الأصفر:

أنجيبُ والدُّنيا تدورُ
ستَلي بها الأمورَ أمورُ
فإذا ندبتَ فكن كما
يُملي على الشَّرف الضمير
روحاً تذوب مع الفقيـ
ـرِ فدمعةُ الله الفقيرُ
وترقُّ للعاني الكسيـ
ـرِ وكلّفنا العاني الكسيرُ
ونحنٌّ تحنانَ الغديـ
ـرِ يحفُّه نَوْرٌ ونُور
طَلْقُ المشاعر مَنْ يَرِدْ
فهنالك العَذْبُ الغزير

✡✡✡✡✡

بئساً لمولود القرونِ أتى
وما عَزَفَ البَشيرُ
لا مرحباً بالطفل أشـ
ـلاءُ الأنامِ له سرير
كذِبَتْ به الآمالُ وانـ
ـطفأت وقد كانت تُنير

✡✡✡✡✡

كـــــشَفَ الــــــضـــــحى عن أوجُهٍ
خـطُّ الحــــــيــــــاة بــــــهنَّ زُورُ
عُــــرِي المـــــنــــاكب، والـــــريـــاحُ
أَخــــــقُّـــــهُنَّ الـــــزمــــــهــــريـــــر
عــــبثَ الــــنــحـــولُ بـــــهـــا فـــشَـــقْ
فَتْ عن دخـــائـــلـــهـــا الـــصــــدور
حـــال جـــــهــــنم عــــنـــدهـــا
الـــفــــردوسُ والـــعَـــيشُ الـــنـــضــيـــر
يـــشـــقى بـــهـــا الـــشـــيخُ الـــكــــبـــيـ
ـــرُ ويـــهـــلِك الـــولـــدُ الـــصـــغـــيـــر

✡✡✡✡✡

وافى صـــــبـــــاحُ الـــــعــــيــــد والـ
أجـــراسُ نَـــغــــمـــتُــــهـــا زفـــيـــر
فـــأتـــوا الـــكــــنــــيـــســـةَ تـــزدهي
بــــــلآلـئ الـــــدمعِ الـــــنّـــــحــــــورُ
وجـــــثـــوا عـــــلى ذاك الـــــتــــرا
بِ وإنّه المـــــلـــــجــــا الأخـــــيـــــر
قــــالـــــوا، ومِلْءُ نــــفـــــوســــهمْ
تـــــقـــوى، وتــــقـــواهُـمْ شُـــعـــــور
وصلاتُـــــــهم مَــــــلَـــــكـــــيَّــــةٌ
وشـــــذا صلاتـــــهـمُ بَــــخُــــور
يــــا ربُّ نــــحن بــــنُــــوكَ لـــيـ
س لـــنـــا من الـــدنـــيـــا نَـــصـــيـــرُ
يــــا ربُّ مـــــا ذنبُ الـــــصـــــغـــا
رِ ومـــــا دَرَتْ بـــــهـمُ الــــشُّـــــرور
رُحْــــمـــاكَ فـــالـــذنبُ الـــكــــبـــيـ
ـــر يُـــزيـــله الـــعـــفـــو الـــكـــبـــيـــرُ

✡✡✡✡✡

قـــــــــال الإلــه وكـــــــــــفُّـهُ
لَــــمَلاكه الــــبـــاكي تُـــشـــيـــر
إنــي عَـــــــفَـــــــوْتُ لأجـــــــلـه
وَيُــــشَـــفَّع المـــلك الــــطَّـــهُـــور
فــبــعــثتُ لــلــنــاس الــنَّــجــيـ
ـبَ وفـــيه مـــــرحَـــمـــــةٌ ونُـــور
عـــــوذوا بـه في الـــــنـــائـــبـــا
تِ إذا دَهَـتْ، وإلــــيـه ســــيـــروا

هذا ولم يَطُلْ بعد ذلك بقاؤنا في بكفيا، لانتهاء مَهَمَّتنا فيها. وما هي إلا بضعةُ أشهرٍ من ذلك التاريخ، حتى زالت «الشركةُ»، وكانت الضائقةُ لا تنفكُّ آخذةً بخناق الناس، حتى كثرتْ ضحاياها، وحتى أصبح ثَمنُ البستانِ لا يَشتري قنطارَ حِنطة.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣١، عدد: ٣٣٩٤، ص: ٥

****

كيف تعرفت إلى شوقي[١]

في عاليه

كان ذلك حوالي الثلثِ الأخير من حزيران سنة ١٩٣٠؛ لا أذكر اليوم، ولكني أذكر أنني كنتُ جالساً عصاري يومٍ إلى طاولةٍ في باحة نَزْل شاهين، فإذا بالصديق الأستاذ شكري بخاش «قيس شوقي» كما يقال «قيس ليلى» لِشدة شَغَفه به وإكباره إياه، إذا بالبخاش يُبادهني بقوله: ألم ترَ شوقي؟ إنه هنا في النَّزْل، وإنه خارجٌ بعد هنيهة. قلتُ إني إلى الآن لا أعرفُ وجهه. فحَمْلق شُكري في وجهي، حتى خفتُهُ، ثم هدأ من حدَّته وقال: معَ أنك كنت بعض حديثنا في أكثر مجالسنا معه، وإذا بشوقي يخرج من النزل إلى الباحة.

يا باشا! يا باشا... هتَفَ شكري، فإذا بشوقي بك يلتفتُ مبتسماً، ثم يتابعُ. نقلَ خطواته إلينا، فنهضنا له، وشكري يشير إليّ هذا هو يا باشا... الخوري... الأخطل، ثم كانت جلسةٌ قصيرةٌ كحاشية الشَّفق.

في الرستوران[٢] الفرنساوي

وكان اليوم العاشر من شهر تموز، من السنة نفسها موعدَ الحفلة التي أقامتها دمشق لتأبين فقيدها الكبير المرحوم فوزي الغزي[٣]؛ وكنت أتردد كل مساءٍ إلى الرستوران الفرنساوي، فأنتبذُ مكاناً مُعتزلاً، فلا يكاد يمضي بعضُ الساعة حتى يُقبلَ شوقي – طيَّب الله روحه –. فما هو إن يُسَرِّح طرفه قليلا، في الجلوس، حتى يُقبلَ إليَّ ويستلقي على كرسيِّه، إلى الجانب الثاني من الطاولة. وكان قد أسمعه صديقانا الأستاذ جبران التويني[٤] والأستاذ ميشال أبي شهلا[٥]، بعضَ ما علِقَ في ذهنهم من قصيدتي في فوزي الغزي، وهو يومذاك من شعراء الحفلة؛ فكان يسألني من حينٍ إلى

آخر، أنْ أروي له بعض أبياتها مما سمع عنه من الصديقين، وكانا لم يحفظاه - وأخصُّه في المقابلة بين المرأة والحية -.

ولم تكن تمر الدقائق، إلا وتحمل إلينا جليساً جديدا، حتى كان يتجاوز عدد الجلوس أحياناً العشرة من الأصفياء المختارين. وكان أقلَّ الجميع حديثاً، شوقي. فهو لم يكن ينتبه إلا لنادرةٍ يسمعها، أو نُكتة يرسلها، أو حديثٍ شهي تستيقظ له حواسُّه، ثم ما هي إلا أن تحين الساعة التاسعة والنصف حتى ينهض إلى السينما، وقد كان شديد الشَّغف بها.

في دعوة الرئيس دباس

وكان لفخامة الرئيس دباس[٦] عطفٌ كبير على شوقي بك. فأقام له ظُهر يوم الثلاثاء في ٨ تموز مأدبةً دعا إليها الوزراء ومجلس نقابة الصحافة؛ غير أنه لم تكد السيارة تصل بنا إلى قصر الرئاسة في عاليه؛ وندخل إلى غرفة الاستقبال، حتى فوجئنا بما هزَّ قلوبنا هزّاً عنيفاً، وشوقي يومذاك مِلْءُ قلوبنا؛ ذلك أننا رأيناهُ وقد أُجلس على كرسيٍّ تحت يد الطبيب، يَغسلُ خُدوشَه ويعصب جراحه، ثم ينزعُ عنه بعضَ ثيابه ليَجُسَّ مكان الرضوض، وهو أصفر الوجه، تضطرب السيكارة في يده، وترتجفُ الابتسامة الشاحبة على شَفَتيه؛ وكان فخامة الرئيس الأستاذ دباس إلى جنب الطبيب يعمل معه بيده، وجمهور الصحافيين مُحيطونَ به. فما كاد ينتهي الطبيبُ من عمله، ويستعيدُ شوقي بعض انتعاشه، حتى وقعَ نظره عليَّ وقال مبتسماً «كان بقا يا، أستاذ بشاره رَحْ تِعْمِل قصيدة تانيَهْ» «يشير إلى قصيدة فيه مع قصيدة الغزي». فقلت له: سَلَّمك اللهُ يا باشا. «ان شاء الله تَقْبُرُ الجميعَ في أيامك»! فما تمالك أن ضحِكَ وضحكنا جميعاً، ثم قمنا وقام شوقي معنا إلى الغداء.

في دمشق

ثم التقينا بشوقي بك في دمشق، بعد يومين من وليمة رئيس الجمهورية. فقد جمعنا أوتيل خَوَّام، وكنا قد قدِمنا دمشق للمشاركة في حفلة المرحوم الغزي التي لم يستطع حضورها لانحراف صحته.

ورجعنا من الحفلة بُعَيْد المغيب، وقد صحبنا إلى النزل إخوان كرام من رجال الوطنية والأدب، بينهم الأستاذان الخوري[٧] وجميل مردم بك[٨] والدكتور الأرمنازي[٩] وزملاؤنا أربابُ الصحف. ثم أقبلَ علينا دولةُ محمد علي بك العابد[١٠]، فكان اجتماعٌ لطيف افترشَ حديقةَ «خوَّام» حول موائد مُشعَّةٍ هانئة دعونا الإخوان إليها فلبوا كراماً.

وكان شوقي بك لا يزال في غرفته، وقد تجاوزت الساعةُ التاسعةَ، فدعَوناه إلينا، فأقبل، وأقمنا شطراً من الوقت في أطيب مجلس وأشهاه؛ حتى إذا انتصف الليل افترقنا.

وكان بعضُ الزملاء يزورُنا كلَّ صباحٍ، فنُقيم في الردهة، ثم يُقبل علينا شوقي فيكون أولُ سؤاله عن صُحُفِ مصر. وكانت تجري لنا معه مداعباتٌ لطيفة في اختلاق بعضِ الأخبار التي لا تَسُرُّه، ثم نَعُودُ فنجلو صفحة وجهه بكشف الحقيقة، فيعود إليه صفوُه.

وكان أكثر غُدْواته، إلى المكاتب. ونذكر أنه صرف يوماً بجملته، وهو يسأل عن ديوان التلعفري[١١]. وكان قبله قد اشترى ديوان أبي نواس. أما المتنبي فكان رفيقه الذي لا يكلُّ له صُحبة.

العودة إلى بيروت

وعاد شوقي إلى بيروت، وعادت مجالسُنا في الرستوران الفرنساوي، كما كانت قبل ذهابنا إلى دمشق. ثم لم يلبث أن غادَرَنا إلى مصر، وكانت تعلِّتُنا كلَّ صيفٍ أن نراه بيننا، فتُشرق به الربوعُ وتصفو المواردُ، حتى فاجأنا نعيُه بالأمس، فانصعقت له صدورُنا مُكبرين به رُزء الأدب العربي الذي لن يُعوض. رَحم الله شوقي وأنزله في جنة الخلد، في المقام الأسنى والمراح الأشهى.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣٢، عدد: ٣٣٥١، ص: ١

****

لماذا تسميت بالأخطل الصغير

«لماذا اتخذ «الأخطل الصغير» لَقَباً له، يبني عليه قصائده، على ما بين جزالة الأخطل[١]، شاعر عبدالملك بن مروان، ورقَّةِ شعر الأخطل الصغير، أو قُلْ: على ما بين خُشونة ذلك العَصر، ونُعومة هذا العصر»؟.

وجَّه إليَّ هذا السؤال لسنواتٍ خلت، حضرةُ الأستاذ مكرزل مُنشئ «الهدى»[٢]. فما وجدت يومذاك متسعاً للإجابة، وقد وطَّنت النفس على استخلاص بقايا ما حفظت الذاكرة من حوادث الأمس وفيها الضاحكُ والباكي، والشاكر والشاكي، إلى ما هناك من نوادر الإخوان ممن امتزجوا بي وامتزجت بهم، كالعازار والريحاني وملاَّط وفيَّاض وتقي الدين ونصار وثابت[٣] والنجار[٤] وغيرهم، ممن هم خارج هذا القطر، كرستم[٥] والرصافي والزهاوي[٦] ممن ملأت شهرتهم العالم العربي على إطلاقه. أما وقد وطنت النفس على هذا، فأنا بادئ اليوم، بالجواب على سؤال صديقي صاحب «الهدى» عن السبب في اختياري «الأخطل الصغير» حجاباً لاسمي الحقيقي.

كانت الحرب العالمية؛ ثم كان عهد «جمال» في سوريا ولبنان، وهو عهد النفي والمشنقة، بل هو عهد الإرهاب بجميع أسبابه وأنواعه. وورد اسمي في لائحة المبعدين ساعة أنا مطمئن في قهاوي بيروت، بين معشر الصحب، وفي يقيننا أن الحرب تنتهي بالمعركة الأولى. وكان نذيراً لي بذلك، الصديق فارس أفندي مشرق، فدب الخوف في المفاصل. ولم تغب علي شمس ذلك النهار، إلا وأنا خارج البلد على كثيرٍ من القلق.

وانطوت الأعوام بعد الشهور على حالاتٍ شتى من البؤس، ومفاجآتٍ مفعمة بالخوف، حتى كان تموز من عام ١٩١٦، فإذا أنا مطمئن قليلاً إلى نفسي، آنس كثيرا بكتبي بعد طويل وحشةٍ وأليم غُربة؛ ولقد كنت وسائر الناس، نتنسَّمُ خلال ذلك، الأخبار من البادية حيناً، ومن البحر حينا آخر، لا ندري إذا كان يُدركنا السلمُ وفينا رمق من الحياة.

وكانت الفكرة السائدة أن الحلفاء، سيبعثون الامبراطورية العربية، وعلى رأسها الحسينُ بن علي[٧]؛ وكانت الحاجة ماسة إلى إثارة الخواطر في البلاد، تعجيلا ليوم الخلاص، وهو كل أمنية البلاد العربية، ذلك العهد.

ولم يكن ليجرؤ واحدنا، ولو في الحلم، أن يرسل كلمةً في سبيل النهضة، ولو همساً.. فكيف به إذا شاء هو أن يرسل في ذلك السبيل، قصيدة يترجع صداها.

وكان يعجبني من الأخطل خفة روحه، وإبداعه في اصطياد المعاني، يقودها ذليلةً إلى فصيح مبانيه. وفوق ذلك فقد كان الشاعر المسيحيُّ الفذ تتفتح درته أبواب الخلائف[٨] يملأها لذة وطرباً وإدلالاً، بل يملأها ذلك الشرف الذي لا يبلى، والمجد الذي لا يفنى، كهذا الذي تقرأه له في بني مروان وعبدالملك:

خف القطين فراحوا منك أو بكروا

وأزعجتهم نوى في صرفها غِيَرُ

إلى قوله:

نفسي فداءُ أميرِ المؤمنينَ إذا

أبدى النواجذَ يوماً عارمٌ ذَكَرُ

الخائضِ الغَمْرَ والميمونِ طائرُهُ

خليفةِ اللهِ يُستَسْقى به المطَرُ

في نبعةٍ من قُريشٍ يعصمون بها

ما إن يُوازى بأعلى نبتها الشَّجرُ

حُشْدٌ[٩] على الخَيْر عيَّافو الخنا أُنُفٌ

إذا ألمَّتْ بهم مكروهةٌ صَبَروا

شُمسُ العداوةِ حتى يستقادَ لهم

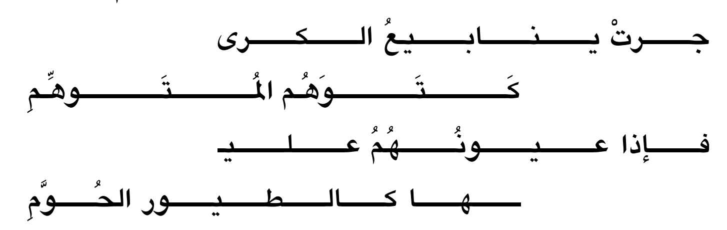
وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قدِروا

فرأيتُ، وأنا أدعو للدولة العربية، وموقفي منها موقفُ الأخطل من دولة بني مروان، أن أدُلَّ على حقيقة الشاعر المُتنكِّر، فلم أرَ «كالأخطل الصغير» أمضي به ما كانت تقطُرُه القريحةُ المتألمةُ من شعر، لم يبقَ لي منه إلا كيفية الوشم في ظاهر اليد.

وكيف يستطاع حفظ ذلك الشعر الذي لم أكن أجرأ[١٠] على الاحتفاظ به بين أوراقي، في عهدٍ كان هذا لسان حاله:

أَلْـــجُمْ لســـانكَ أَلْـــجُمِ
فـــالمـــوتُ لـــلمُـــتَـــكَـــلِّمِ
لا يســـألـــونك إنْ قُـــبِـــضْـ
ــتَ أَثِـــمْـــتَ أم لَـمْ تَـــأْثَـمِ
فـــالحَـــبْلُ شَـــرٌّ مُـــرَحِّبٍ
والـــعُـــنقُ خَـــيـــرُ مُـــسَـــلِّمِ
والـــسِّـــجن أكـــرمُ صـــاحبٍ
والـــنـــفيُ أيـــسَـــرُ مَـــغْـــنَمِ

وهي قصيدة طويلة كنتُ أحتال لحفظها بإثبات قوافيها متسلسلةٍ، ولكن لسوء الحظ، أو لحُسنه جاء النسيان عليها، فطمسها من الذاكرة، إلا بيتين عزيزين مهدت لهما بتصوير الرعب وأخذه بقلوب الناس، حتى لا يأخذ العيونَ منهم الغمضُ إلا لِماماً:


جـــرتْ يـــنـــابـــيعُ الـــكـــرى
كَـــتَـــوَهُّـم المُـــتَـــوهِّمِ
فـــإذا عـــيـــونُـــهُمُ عـــلـــيـ
ـــهـــا كـــالـــطـــيـــور الحُـــوَّمِ

وكان أول ما علَّقتُ اسم «الأخطل الصغير»، بل كان أول القصائد التي مهرتُها هذا التوقيع، قصيدة نظمتُها يوم نقل إلينا أن قامت في الحجاز دولةٌ عربية لها مليكُها أو خليفتها، ولها وزراؤها؛ وقد ذكروا لنا منهم يومئذٍ السيد رشيد رضا والشيخ فؤاد الخطيب[١١] وعزيز بك المصري[١٢] واسكندر بك عمُّون؛[١٣] ففعلت تلك البشرى بنا –

ونحن بين مخالب المكاره - فِعْلها العجيبَ فقلت في ذاك قصيدةً كان أوَّلَ من قرأتُها عليه، صديقي الأستاذ جبرائيل نصار، وقد كان لي خلال الحرب رَمْزَ الوفاء ومكارمِ الأخلاق، وهي طويلة لا يزال عالقا في الذهن شيء منها وهو:

ليالي البؤسِ حَسْبُكِ ما لقينا
أردْتِ فناءنا، إنَّا فَنينا
ولا يَغْرُرْكِ إنَّ بنا أُناساً
قلائلَ لَمْ يزالوا سالمينا
فمُذْ ضاقتْ بهم سُبُلُ المنايا
تَنَحَّوْا للجيادِ السابقينا
ولولا أنْ تَنَحَّوْها لكانوا
بأشلاءِ الأعزة يَعْثِرُونا
ألاَ قَرِّي عُيوناً يا ليالي
لقد بِدْنا ألاَ قَرِّي عُيونا
ونامي مْلءَ عينِكِ يا ليالي
أما وَكَّلْتِ سَيفَ «جمال»[١٤] فينا
عُيوني أَين أَدمُعِكِ الهَوامي
أأَسْأَلكِ الدموعَ وتَبْخَلينا
عَهِدْتُكِ مُرْضعاً والحزنُ طِفلٌ
عَكَفتِ عليه عُمرَك تُرضعينا
أَلم يَترُكْ بزاويَتَيْكِ شيئا
يسيلُ فشَدَّ ما تَتَألَّمينا

وقد عطفتُ بعد وصف مصارع الشهداء، إلى إثارة الحميَّةِ الدينية والقومية في النفوس، فقلتُ في جلالة الحُسَين والخلافة، الأبيات الآتية:

لقد رَجَعَتْ خلافتُنا إلينا
وكان رُجوعُها نصرا مُبينا

فـلـو بُـعِثَ «الـرسـولُ» وقـد رآهـا
تُـجَـرّعُ في بـنـي عـثـمـان هُـوْنـا

لَـزلـزلَ بـالـحـجـاز ومـا يـلـيه
وصـاحَ: بـنـيَّ يـا خـيـرَ الـبَـنـيـنـا

بـنـيَّ ولا أخُصُّ المـسـلـمـين
بلِ الـعُـرْبُ الأمـاجـدُ أجـمـعـيـنـا

أيَـغْـصِـبُـنـا الخلافـةَ غـاصـبـوهـا
وفي الـبـلـد الأمـين بـنـو أبـيـنـا؟

أتُـرْكيُّ، وفـيـنـا هـاشِـميٌّ
دمي دَمُـهُ ويـبـقـى الـدينُ ديـنـا

حُـسَـيْنُ حُـسـينُ أنتَ لـهـا فـإنِّي
أُطـالِعُ في مُـحـيَّـاكَ الـيـقـيـنـا

كـأني إذ أراكَ أرى حُـسَـيـنـاً[١٥]
فـتى فِـتْـيـانِـنـا المُـسـتَـشْـهَـديـنـا

إذن فقد عرفت متى تَسَمَّيتُ «بالأخطل الصغير»، ولماذا تسمَّيتُ به، وقد كان من حقي أن أطرح هذا الاسم بعد الحرب العالمية، ولكنني أبَتْ لي شيِمَةُ الوفاء إلا أن أكون من الكرام الذين إذا أسبلوا[١٦] ذكروا من كان يألفهم في المسكن الخشن. و «الأخطل الصغير» قد ألفني أيام البؤس والخوف، فما أنا بناسيه أيام الهناء والطمأنينة.

****

الشهيد عمر بمناسبة ديوانه

كيف عرفت عمر حمد[1] – روحه الوطنية الشاعرة – أول وآخر مرة رأيته

لقد ضاق عُمْرُ عُمَر عن أن يَسَع ديواناً شعريا. فهذه النُّبذَةُ التي جمَعَها له أهْلُه في الأوراق، إنما هي شرارةٌ من روحه اللاهبة.

لقد قطع عمر حمد الحياة في وثبتين، الواحدةُ من التلميذ إلى المعلِّم، والثانية من المعلِّم إلى المشنقة. وكان في وثبته الثانية مثالاً من أمثلة الحياة العالية، تلك الحياة التي تُعوزُ الشبابَ في البلاد المُسْتَرَقَّةِ، فيثبوا بها إلى حُرِّيتها بما يُحرقونه من أنفاسهم تحت دواليبها.

فنحن إذن أمام شرارةٍ من روح عمر حمد. أفما تحس أين طبعت روحك على شعره، أنك طبعتها على دمٍ فائر وعصبٍ ثائر؛ وإذا كان الشعر ثورةً من ثورات النفس، تهيجُها العوامل المختلفةُ، فديوانُ عمر حمد عنوانٌ صغير من عنوان هذه الثورة، وهي لو استكملت نموّها واستلأمت وسطها، لعُدَّت في البراكين.

لقد كان عمر في عداد من عرفتهم بين عامي ١٩١٢ و ١٩١٤؛ وكأني به في المرة الأولى، وقد جلس إليَّ يُسمعني إعجاب إخوانه في الكلية الإسلامية بجريدتي، واستملاحهم طريقتي في الأدب.

وكأني به مرة أخرى، وقد جاء يُسمعني قصيدةً أعدَّها ليلقيها في الحفلة المدرسية السنوية، فكنت أُحسُّ بروحه تثبُ من وراء ألفاظه؛ وكان وهو في مُستَهلِّ الشباب على أدب عذب فيه الكثيرُ من الحياة والكفاية من الرصانة.

لم يكن عمر حمد ذلك العهد، يتجاوز العشرين من سنيِّه، يجنح الى الطول في قامته، على سُمرة في لونه، ورقة في بدنه؛ ولقد كنتُ أكثر ما أراه في ثوب أسود كأنما كان يحمل حداده على شبابه في جلبابه.

وكان آخر عهدي بُعمر، ليلة لقيتُه فيها صدفةً، جالساً إلى بعض إخوانه في قهوة «كوكب الشرق»، فما هو إن رآني، حتى أقبل عليَّ آخذا بي إلى طاولةٍ خالية فقال لي: أعرفت أن الخديوي أصبح سلطاناً، وهو اليوم السلطانُ حُسين(٢)؟

قلت: كيف أعرف، وأنا في عزلتي خارج البلد، حتى إذا اشتاقتها نفسي جئتها بين صديقي: الشيخ سليم علم الدين وجبرائيل أفندي نصار؟

قال: ويظهر أن الدول اتفقت على أن ينبسط سلطان مصر على سوريا، وذلك حيث يقول حافظ إبراهيم في تهنئته عند تنصيبه:

هـنـاءً أَيُّـهـا المـلِكُ الأَجلُّ

لكَ الـوادي الخَـصـيبُ ومـا يُـطلُّ

ثم سرد لي أبياتاً من تلك القصيدة، علق بعضها في ذكراتي ثم لم يلبث أن اضمحل.

وكان ذلك إما في أواخر سنة ١٩١٤ أو في أوائل سنة ١٩١٥.

ولقيته يوماً قبل هذا التاريخ بأشهر قليلة، على ما أذكر، فقال لي: أبلغك شيء عن حزب العهد؟ إنه يضم بعض ضباط العرب للعمل على استقلال البلاد العربية. قلت: أرنِيه يا عمر!

ونذكر قول الشاعر (٣):

وصـرتُ أشُكُّ في من أصـطـفـيه

لـعـلـمي أنهُ بَـعْضُ الأنـام

فأنت ترى أن عمر حمد لم يكن يشتمل على روحٍ شاعرة فحسب بل كان يشتمل على روح وطنية كبرت عن أن تحتملها سنُّه فسقط تحت ثقلها وأدمى القلوب سقوطه.

هذا ما وعته الذاكرة عن ذلك الصديق المهذب ذي الروح الحساسة الوطنية، والشعور الصحيح السامي، قبل أن يسار به إلى السجن – لأننا افترقنا قبل ذلك، أنا في رؤوس الجبال وهو فى ساحات المدينة.

على أن هناك صورةً أدل من كلمتي هذه على الشهيد العربي العزيز هي هذه القصائد العاصفة، فيها روح الشباب والإباء؛ فإذا شئت أن تتعرف إلى تلك الروح، فاقرأ تلك القصائد.

بشــارة

البرق ، ٢٧ شباط ١٩٢٩، العدد: ٣١٨٥، ص: ٢

****

هوامش الباب الأول

من بقايــا الذاكــرة

١ – محمد إمام العبد (١٨٦٢– ١٩١١)

– شاعر أجاد الشعر والزجل. كابتن مصر في كرة القدم عام ١٩٠٠ .

– عكف على الأدب والكتابة في الصحف، كان ذا روح مرحة برغم حياته البائسة.

٢ – ولي الدين يكن (١٨٧٣–١٩٢١)

– شاعر مجيد، ولد بالآستانة، وعين فيها عضواً بمجلس المعارف، نفاه السلطان عبدالحميد، وعندما أعلن الدستور العثماني عام ١٩٠٨، عاد إلى مصر، وتوفي بحلوان ودفن في القاهرة.

– له ديوان شعر وعدد من المؤلفات ، كان يجيد عدداً من اللغات.

٣ – كانت في الأصل (وانتقلا) عدلناها إلى (واستقلا) لاستقامة السياق.

٤ – أحمد شوقي ، أمير الشعراء ، سترد ترجمته لاحقاً.

٥ – حافظ إبراهيم (١٨٧١–١٩٣٢)

– شاعر مصر القومي، ولد وتوفي فيها، اشتغل في المحاماة، وخدم في الجيش، وشارك في حملة السودان، عمل في الصحافة وعين رئيساً للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية سنة ١٩١١.

– له ديوان شعر وبعض المؤلفات.

٦ – خليل مطران، شاعر القطرين، سترد ترجمته لاحقاً.

٧ – رثاه الأخطل الصغير في «البرق»، نيسان ١٩١١، مج : ٣، عدد : ١٣٢، ص : ٢٣٧، قائلاً:

وصــــــارمٍ عــــــزمي لـه ضـــــجــــــعــــــة
كـــضــــجـــعــــة الــــصــــارم في غـــمــــده

يـــــنـــــام ملء الجــــفن في جــــفــــنه
ولا يــــــنــــــام المــــــوت في حـــــــده

٨ – أمين تقي الدين (١٨٨٤–١٩٣٧)

– محام وأديب وشاعر لبناني.

– ولد في لبنان وأقام في مصر، وأنشأ مجلة الزهور مع أنطون الجميل، ترجم عن الفرنسية «الأسرار الدامية»، لجول دي كاستين، عاد إلى بيروت وعمل في المحاماة حتى وفاته.

٩ - سامي جريديني (١٨٨١-١٩٥٠)

- محام لبناني، عاش في مصر، ترجم ونشر بعض مسرحيات شكسبير، وألف «خواطر في الحقوق والأدب»، و«الرسائل الضائعة»، و«خمسة في سيارة».

١٠ - الياس فياض (٠٠٠٠ - ١٩٣٠)

- أديب لبناني تعلم في بيروت ثم بمدرسة الحقوق بالقاهرة، كتب في مجلتي «الضياء» و«البيان» بمصر ثم عاد إلى لبنان فكان من أعضاء مجلس النواب فوزيراً للزراعة، توفي في بيروت، له ديوان شعر، وترجم عن الفرنسية بعض القصص.

١١ - المؤيد، جريدة أسسها علي يوسف في القاهرة عام ١٨٨٩.

١٢ -وردت هذه الأبيات في مجلة «الزهور» السنة الثانية، ١٩١١، ص: ٢٠٨، ولم يرد فيها هذا البيت وبيت آخر، وأغلب الظن أن في البيت خطأ طباعياً، إذ يصح وزنه لو قلنا: (بالعزيمة) بدلاً من (العزيمة).

١٣ - مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦ - ١٩٢٤)

- من مشاهير الكتاب بمصر في عصره، درس في الأزهر وتتلمذ لمحمد عبده.

- له «النظرات»، و«العبرات» و«في سبيل التاج» و«الشاعر» و«مجدولين» من بين كتبه ما هو مترجم عن الفرنسية ولم يكن يحسنها وإنما كان بعض العارفين بها يترجم القصة إلى العربية فيصوغها المنفلوطي بقالبه الإنشائي.

١٤ - أحمد محرم (١٨٧٧-١٩٤٥)

- شاعر مصري، ولد في إبيا الحمراء من قرى الدلنجات، له «ديوان محرم» و«ديوان الاسلام» أو «الإلياذة الإسلامية» توفي ودفن بدمنهور.

١٥ - لم يذكر اسم الجريدة في الأصل.

١٦- يعني به أمين تقي الدين.

١٧ - محمود سامي البارودي (١٨٣٩-١٩٠٤)

- أمير السيف والقلم، من رواد النهضة الشعرية العربية في العصر الحديث.

- قائد شجاع ، ولد بالقاهرة وتوفي فيها. تقلب في المناصب حتى صار رئيساً للنظار واستقال، شارك في ثورة عرابي وحُكم عليه بالإعدام ثم بدل الحكم بالنفي إلى جزيرة سيلان وبقي فيها (١٧) عاماً.

- له ديوان شعر. أسمت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري دروتها الثالثة باسمه عام ١٩٩٢ وأصدرت عنه عدداً من المؤلفات من بينها ديوانه.

١٨ - يعني بالأستاذ الإمام، الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) مفتي مصر ، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام،. أصدر «العروة الوثقى» مع جمال الدين الأفغاني، ناصر ثورة عرابي، ونفي إلى

بلاد الشام، له عدد من المؤلفات.

١٩ – انظر صورة الرسالتين ونصهما في كتاب «رسائل إلى الأخطل الصغير» الصادر عن «مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري» بمناسبة إقامة دورتها السادسة «دورة الأخطل الصغير» ١٩٩٨، بيروت، ص (٢٦١– ٢٦٦).

٢٠ – الذام: العيب..

كيف عرفت الشيخ اسكندر العازار ١٤

١ – اسكندر العازار (١٨٥٥–١٩١٦)، كاتب لبناني له نظم، وجعل من أعضاء محكمة التجارة، كتب فصولاً في النقد والتعليق على الحوادث ونشرها في بعض الصحف والمجلات، كان يكتبها بأسلوب فكه، مثل جريدة «البرق» وغيرها وله قصص مسرحية وديوان وخطب ومقالات.

٢ – الطفل: الوقتُ قبيل غروب الشمس، وهو من طفلت الشمسُ: مالتْ للغروب.

٣ – نجيب حبيقة (١٨٦٩ – ١٩٠٦)، أديب وشاعر لبناني مجيد ومن مشاهير رجال التعليم والصحافة.، مارس العمل الوطني في الجمعيات الخيرية المارونية، تخرج من كلية القديس يوسف، علم البيان العربي والفرنسي في الكلية اليسوعية، ثم في مدرسة الحكمة.، تولى تحرير جريدة «المصباح» وكتب في مجلة «المشرق» وجريدة «المحبة».

٤ – المصباح، جريدة أنشاها نقولا نقاش في بيروت عام ١٨٨٠.

٥ – مدرسة في بيروت، درس فيها الأخطل الصغير من سنة ١٩٠٣–١٩٠٥ بهدف إتقان اللغة الفرنسية، من أشهر أساتذتها عبدالله البستاني.

٦ – شبلي بك ملاط (١٨٧٥–١٩٦١)، شاعر لبناني ولد في بعبدا. أصدر جريدة «الوطن» في بيروت عام ١٩٠٨، لقب بشاعر الأرز، له ديوان.

٧ – معروف الرصافي ، سترد ترجمته لاحقاً.

٨ – البوستة ترجمة حرفية أو تعريب لكلمة: Post التي تعني البريد.

٩ – في الأصل (والعاجر) ولعلها تصحيف.

١٠ – عيد جلوس السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٤٢–١٩١٨)، سلطان الدولة العثمانية من (١٨٧٦–١٩٠٩).

١١ – انظر مقال «إلى اللواء الإيطالي» في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

١٢ – إشارة إلى السلطان عبدالحميد الثاني، وأمير المؤمنين أحد ألقابه، باعتباره خليفة المسلمين.

١٣ – عناوين زوايا كان يكتبها العازار في بعض الصحف مثل صحيفة «الوطن».

١٤ – هكذا وردت. والصواب أَدْمنَ الشرابَ

١٥ - يتوصمه: من الوصمة، العار أو العيب.

كيف عرفت معــروف الرصــافي ٢٠

١ - معروف الرصافي (١٨٧٧-١٩٤٥)

- أديب وشاعر العراق الكبير في عصره. اشتغل بالتعليم وانتخب عضواً في مجلس النواب ومثل العراق في مجلس المبعوثان في الآستانة له ديوان شعر.

٢ - يقصد الدستور العثماني الذي أقره السلطان عبدالحميد عام ١٩٠٨ بعد ضغوط كبيرة من جمعية الاتحاد والترقي، وعصيان من بعض ضباط الجيش المنتسبين للجمعية.

٣ - أسعد رستم (نحو ١٨٧٥-١٩٦٩)

- شاعر لبناني ولد في بعلبك، هاجر إلى نيويورك عام ١٨٩٢ وعاد إلى وطنه ١٩٥٨.
- له ديوان رستم ١٩٠٨.

٤ - محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥)

- ولد ونشأ في القلمون (من أعمال طرابس الشام)، نظم الشعر في صباه وكتب بالصحف، رحل إلى مصر ولازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له.
- أصدر مجلة (المنار) وأنشأ مدرسة (الدعوة والإرشاد) ويعتبر أحد رجال الإصلاح الإسلامي، من الكتّاب والعلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير.

٥ - الشيخ محيي الدين الخياط (١٨٧٥ - ١٩١٤)

- شاعر وأديب لبناني ولد في صيدا، ونشأ وتوفي في بيروت، عارف بالتاريخ نشر أبحاثاً كثيرة في صحف بيروت. من كتبه (دروس في التاريخ الإسلامي) و(دروس في النحو والصرف) و(دروس القراءة)، و(تفسير الغريب من ديوان أبي تمام) و(تعليق على شرح نهج البلاغة للإمام محمد عبده).

٦ - الشيخ مصطفى الغلاييني (١٨٨٦ - ١٩٤٤)

- شاعر من الكتاب الخطباء ولغوي من أعضاء المجمع العلمي العربي، مولده ووفاته في بيروت، تعلم فيها وفي مصر وتتلمذ للشيخ محمد عبده عمل أستاذاً للعربية وخطيباً للجيش الرابع العثماني، نصب رئيساً للمجلس الإسلامي وقاضياً شرعياً في بيروت.
- له ديوان وعدد من المؤلفات.

٧ - يعني أن صورة الشاعر منشورة برفقة المقال.

٨ - إن التاريخ الهجري الذي ذُيِّلت به الرسالة يوافق العام ١٩٠٦/١٩٠٧ من التاريخ الميلادي. وقد ذكر الأخطل أن زيارة الرصافي لبيروت كانت ١٩٠٩، وأن الرسالة المنشورة أعلاه كتبت بعد مغادرة الرصافي بيروت، باتجاه الآستانة، فهل التاريخ الذي حدده الأخطل مصحَّف؟.

٩ – انظر صورة الرسالة ونصها في كتاب «رسائل إلى الأخطل الصغير»، مرجع سابق، ص (٢٨٥–٢٨٨)، ورسالة أخرى ص (٢٨٣–٢٨٤).

١٠ – أمين الريحاني (١٨٧٦–١٩٤٠)
– كاتب ورحالة وشاعر، بدأ ظهوره الأدبي في المهجر وكتب الشعر المنثور والشعر المرسل.
– له عدد من المؤلفات أشهرها «ملوك العرب».

١١ – لفظ استعمل بالمدلول العامي، وقصد به غرفة واسعة للاستقبال.

١٢ – يقصد أمين الريحاني.

١٣ – نعوم اللبكي (١٨٧٥–١٩٢٤)
– صحافي وسياسي لبناني. ولد في بعبدات.
– أنشا مع أسعد خالد أول جريدة عربية في البرازيل وهي «الرقيب» عام ١٨٩٦ في ريو دي جانيرو، ثم أنشا جريدة «المناظر» في سان باولو ١٩٠١ وتابع إصدارها في بيروت بعد ١٩٠٨.
– رئيس مجلس النواب عام ١٩٢٣.

١٤ – وردت هكذا، وواضح أنه تصحيف، والمقصود هو «زكي مغامز بك» انظر صورة رسالته إلى الرصافي ونصها في كتاب «رسائل إلى الأخطل الصغير» مرجع سابق،(ص٢٧٩–٢٨٠).

١٥ – يعني بصاحبيه بشارة الخوري «الأخطل الصغير» والياس فياض.

١٦ – يقصد بلدتي «بيت شباب» و«بكفيا» وذكرهما مضافتين إلى لبنان.

١٧ – جميل صدقي الزهاوي، ستأتي ترجمته فيما بعد.

١٨ – الشيخ عبدالله البستاني (١٨٥٤–١٩٣٠)
– لغوي لبناني ولد في الدبية وتوفي في بيروت من أعضاء المجمع العلمي العربي له معجم البستان وأربع روايات نثرية وخمس روايات شعرية.

١٩ – كان الشعراء الذين يجلّون هذا الإبداع – وما يزالون – لا يلقونه أو يستمعون إليه إلاّ وقوفاً، إعجاباً وتقديراً.

٢٠ – إشارة إلى مطلع قصيدة الشاعر العباسي علي بن الجهم:
عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

٢١ – المبعوث هو النائب في مجلس «المبعوثان» العثماني وكان مقره في الآستانة.

كيف عرفت الشيخ يوسف أبي صعب ٢٨

١ – يوسف أبي صعب – ٠٠٠٠ – ١٩١٥، قانوني ومتشرع وشاعر لبناني، كان حجة في الشرع الإسلامي.

٢ – الشعر عجز بيت قاله المهلهل، إثر رحيل أخيه كليب ناقداً الناس الذين كانوا في مجلسه لا ينبسون بكلمة واحدة تهيباً واحتشاماً. وتمام البيت:

وتـــكـــلـــمـــوا في أمـــر كلِّ عـــظـــيـــمـــة

لـــو كـــنتَ شـــاهـــدَهُم بـــهـــا لم يَـــنـــبـــســـوا

انظر شرح المرزوقي لحماسة أبي تمام.. جـ ٢/ ص٩٢٩.

٣ – هو على الأرجح: زُفَر بن الهُذيل، بن قيس بن سَلَم. فقيه، مجتهد، تفقه بأبي حنيفة، وهو أكبر تلامذته توفي ١٥٨ هـ/٧٧٤م (سير أعلام النبلاء، للحافظ الذهبي، جـ ٨/٣٨-٤١).

٤ –أبو القاسم الزمخشري، صاحب تفسير القرآن المعروف «بالكشاف» والمعجم اللغوي البليغ: «أساس البلاغة» توفي ٥٣٨ هـ/ ١١٤٣م.

كيف عرفت طانيوس عبده ٣٥

١– طانيوس عبده (١٨٦٤ – ١٩٢٦)، شاعر لبناني ، ولد في بيروت، وبها توفي ودفن، انتقل إلى الاسكندرية وأصدر جريدة «فصل الخطاب» ثم اشترك في تحرير «الأهرام» فـ «البصير» وأصدر مجلة «الراوي» ثم عاد لـ «الأهرام»، اشتهر بترجمة الروايات عن الفرنسية ومن أشهرها: البؤساء، عشاق فنيسيا، الساحر العظيم، روكامبول في ١٧ جزءاً.

٢ – البدل العسكري: هو مبلغ نقدي يدفعه المطلوب للخدمة العسكرية الإلزامية فيعفى.

٣ – في الأصل: «خيالي» عدَّلناها ليستقيم الوزن.

٤ – في الصدر خلل عروضي.

٥ –ورهت، من الوره: الحمق، ومعنى البيت أن قصيدتك متسرعة، لا حكمة فيها ولا روية.

٦ – البواطي، مفردها، باطية، لفظ معرَّب، معناه: الإناء العظيم من الزجاج وغيره، يتخذ للشراب.

٧ – هكذا وردت، وصوابها: نعتب عليه.

٨ – زعيم لبناني سيرد تعريفه لاحقاً.

كيف عرفت جميل الزهاوي ٤٥

١ – جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ – ١٩٣٦)

– شاعر عراقي من شعراء النهضة الحديثة، غلب على شعره الاتجاه الفلسفي.
– اشتغل في التعليم وكان نائبا عن المنتفق ثم عن بغداد في مجلس النواب العثماني. له ديوان وترجم رباعيات الخيام عن الفارسية شعراً ونثراً.

٢ – الأثل: جنس من أشجار دقيقة الورق جيدة الخشب تسمى الطَّرفاء. وهذا أسلوب الشعراء القدامى، يخاطبون الآس والأراك والأرطى والأقحوان وغيرها يبثونها لواعجهم ومواجعهم.

٣ – الغُلّة: شدة العطش وحرارته.

٤ –حكومة المشروطية، أي حكومة الدستور بعد إعلانه في الدولة العثمانية عام ١٩٠٨، وهو تقريباً ما زامن وضع (المشروطية) أو (المشروطة – الدستور) في إيران المجاورة عام ١٩٠٧ إثر ثورة علمائها على الشاه في ما عرف بالثورة الدستورية.

٥ – «بغدا» اسم مختصر تحببي لبغداد.

٦ – انظر في هذا الكتاب «كيف عرفت الرصافي» وانظر أيضاً صورة رسالتي الرصافي ونصهما إلى الأخطل الصغير في كتاب «رسائل إلى الأخطل الصغير» مرجع سابق، ص(٢٨٣ –٢٨٨)، وكذلك رسالة زكي مغامز إلى الأخطل الصغير في الكتاب نفسه ص(٢٧٩–٢٨٠).

٧ –كرمة ابن هاني اسم الدار التي كان يقطنها أحمد شوقي ومازالت معمورة بمتحف يخص الشاعر.. والمقصود هنا الإشارة إلى اهتمام صاحب البرق بشوقي على ثرائه ونعيمه وإهماله لأمر الزهاوي على ظروفه الصعبة.

٨ – انظر صورة رسالة الزهاوي ونصها إلى الشاعر ص (٢٨١–٢٨٢) في «رسائل الأخطل الصغير»، مرجع سابق.

٩ – ستأتي ترجمته لاحقاً.

١٠ – انظر ترجمته في مقال «كيف عرفت إمام العبد»، وانظر أيضاً صورة رسالته ونصها في كتاب «رسائل إلى الأخطل الصغير»، مرجع سابق، ص (٢٥٩–٢٦٠).

١١ – الهاء في شعرائه عائدة على شعراء «الأدب الخاص».

١٢ – أراد كلاً من ابن الرومي، وبشار بن بُرد، وهما من كبار شعراء العصر العباسي.

لصقة رماد ٥٠

١ – المتن هو أحد أقضية جبل لبنان الستة، ويقسم إلى قسمين : المتن الشمالي ويضم معظم المدن وقرى الاصطياف المشهورة. والمتن الجنوبي.

٢ – صدفة بمعنى المصادفة، وهذا من الأخطاء الشائعة.

٣ – جديدة المتن عاصمة القضاء المذكور.. وهي إحدى ضواحي بيروت الشمالية.

٤ – لمعرفة المزيد حول القصائد التي ترجمها الأخطل الصغير عن الفرنسية انظر كتاب «حياة الأخطل وشعره»، د. سهام أبو جودة، رسالة ماجستير، أصدرته مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري بمناسبة دورتها السادسة، ١٩٩٨، بيروت.

٥ – النقل: ما يؤكل من جوز ولوز وحلوى الأعياد المغلفة بالورق.. والجفان : القصاع.

٦ – ورد صدر هذا البيت في قصيدة محذوفة بسبب تكرار ورودها في موقع آخر هكذا: (أنَا اتخذنا الثغور كأساً).

٧ – كناية عن أنجالها الأربعة.

٨ – والدهم فيليب ثابت.

عشرون يوما في ريفون باسم حنا فياض ٥٤

١ – سليم المعوشي، رئيس جمعية أرز لبنان، من أركان المعارضة ضد العثمانيين في لبنان، قائمقام جزين.

٢ – أساطر، جمع سَطر. ولم يرد هذا الجمع في اللغة، فالسطر، يجمع على: أسطر وأسطار وسطور، وأساطير ولم يرد أساطر.

٣ – رضا باشا، قائد الفرقة العسكرية العثمانية في عاليه وبيروت، نائب جمال باشا السفاح.

٤ – هكذا وردت في الأصل.. ويقتضي السياق أن تكون على الشكل الآتي: فخطئه (فعل أمر).

٥ – لم ترد هذه الرسالة في ما توافر لدينا من مادة هذا الكتاب.

٦ – أحد أقضية جبل لبنان، يقع إلى الشمال من قضاء المتن.. ومركزه جونية..

٧ – هما: الشيخ فيليب الخازن (١٨٦٥ – ١٩١٦) والشيخ فريد الخازن (١٨٦٩ – ١٩١٦) من شهداء الوطنية نفاهما جمال باشا السفاح إلى الأناضول ثم سيقا إلى الديوان العرفي وأعدما في بيروت يوم ٥ حزيران ١٩١٦.

٨ – الدورة: ناحية شمالية من بيروت.

٩ – درعون، بلدة في قضاء كسروان، تطل على جونية، على شاطئ البحر.

١٠ – ريفون، بلدة اصطياف تقع الى الشرق من جونية.

١١ – الورق الملون ، كناية عن الأوراق النقدية العثمانية.

١٢ – لوكندة، مصطلح عامي في لبنان وبعض الدول العربية، معناه: الفندق..

١٣ – فيطرون، بلدة اصطياف في القسم الأعلى من قضاء كسروان.

١٤ – يقصد إعدامات أحرار العرب في مدينة عاليه ١٩١٦.

١٥ – الأمير شكيب أرسلان (١٨٧١ – ١٩٤٦) أديب وسياسي لبناني. من أعلام النهضة العربية. ولد في الشويفات. له ديوان شعر وعدد من المؤلفات منها «الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية». كان مديراً فقائمقاماً في الشوف. انتخب نائباً عن حوران في مجلس «المبعوثان» العثماني.

١٦ – كوجك جمال (جمال الصغير) المعروف بالمرسيني نسبة الى بلده مرسين، خلف جمال باشا السفاح،

خفت في عهده وطأة الإرهاب في البلاد السورية، انصرف إلى مهمة الدفاع أمام هجوم البريطانيين تاركاً إدارة شؤون الحكومات إلى الولاة وحاكم جبل لبنان كل في حدود ولايته.

١٧ - رواية من ١٧ جزءاً ترجمها عن الفرنسية طانيوس عبده.

١٨ - عزمي بك، والي بيروت العثماني، سترد ترجمته لاحقاً.

١٩ - الأمير فايز شهاب (القول أغاسي «رائد، ميجر») من رجال حكومة جبل لبنان (المتصرفية) كان قائمقام المتن.

٢٠ - المغفر، لفظ عامي لكلمة «مخفر» مركز للشرطة أو (الجندرمة) أي رجال الدرك.

٢١ - الجميزة: ناحية في شمالي بيروت.

بين أيلول ١٩١٦ وكانون ١٩١٧ .... ٦٨

١ - كتاب أبي الفرج الأصفهاني.

٢ - الجنيب المُعَبَّد: المَقود الى الجنب من الخيل وغيرها، والمعبَّد: المطلي بالقطران لإصابته بالجرب، وقصد بذلك تحاشي أقرب الناس له - وهو في خصاصته أي في فقره المدقع - كما يتحاشى الناس الحصان أو البعير الجَرِب.

ومن معاني الجنيب: الغريب، فلعله يعني أن أخاه يتحاشاه في فقره ويتجنبه ابتداء وكأن ذاك الأخ غريب أجرب. أو أنه قصد بقوله (كالجنيب المعبد) أن نفسه الحرة حتى أثناء فقره المدقع - تتأبى فيعامل في حاجته أخاه كالغريب، كما يعامل في اليسر البعيد (من نأى) كأخيه أراد بذلك نقاء جوهر نفسه وإباءها في اليسر والعسر . ويؤيد ذلك قوله: «هكذا منذ نشأتي غير ذا لم أعود». «المراجعة».

٣ - يوسف فرنكو باشا متصرف جبل لبنان (١٩٠٧ - ١٩١٢) وهو ابن نصري فرنكو باشا المتصرف الثاني في سلسلة متصرفي جبل لبنان الذين حكموه وفقاً لنظام الامتيازات منذ عام ١٨٦١ وحتى ١٩١٥، تميز عهده بتذمر الشعب ومطالبته بالإصلاح بسبب موجة التفاؤل التي بعثتها ثورة ١٩٠٨.

٤ - حليم دمُّوس (١٨٨٨-١٩٥٧) أديب. شاعر،له نظم كثير، ولد في زحلة، سافر إلى البرازيل وعاد إلى بلده، فشارك في تحرير جريدة «المهذب» واستوطن دمشق بعد الحرب العالمية الأولى إلى آخر حياته، توفي في بيروت ودفن في جونية، له ديوانان وعدد من المؤلفات.

٥ - وردت في الأصل هكذا «طانيوس عبود» ولم نعثر على أي ترجمة له، وربما يعني صديقه طانيوس عبده، الذي سبقت ترجمته.

٦ - شركة القمح اللبنانية، شركة تأسست في بيروت، كان مديرها نجيب بك الأصفر ولإدارتها بعض الفروع في البلدات اللبنانية لتوفير هذه المادة الضرورية أثناء الحرب العالمية الأولى ووقاية الناس من المجاعة، ولكن الفساد تفشى في معظم مسؤوليها فكان بعضهم يبيع القمح في السوق السوداء بعشرة أضعاف سعره الرسمي. واعتمدت في توفيره على الاستيراد من سوريا. ولكن هذا الاستيراد كان يسمح

به أو يمنع وفقاً لتقلبات الأحوال السياسية، وكان من أكبر المتدخلين في شؤونها والمستفيدين من البيع في السوق السوداء عزمي بك والي بيروت وعلي منيف متصرف جبل لبنان فتفككت الشركة وتلاشت في أواسط عام ١٩١٧ قبل خروج تركيا من البلاد بمدة وجيزة.

كيف تعرفت إلى شوقي ٧٧

١ – أحمد شوقي (١٨٦٨ – ١٩٣٢)
- أمير الشعراء عام ١٩٢٧، مولده ووفاته بالقاهرة ، نشأ في ظل البيت المالك في مصر، وصار شاعر البلاط .
- له الشوقيات في ٤ أجزاء، كتب عدداً من المسرحيات الشعرية مثل: مصرع كليوباترا، مجنون ليلى، قمبيز، علي بك الكبير، من أعمدة النهضة الشعرية الحديثة . نفته السلطات البريطانية في مصر إلى اسبانيا بسبب بعض مواقفه السياسية.

٢ – الرستوران: المطعم ، مأخوذة من لفظها الأجنبي Restaurant.

٣ – فوزي الغزي، أحد كبار رجال الأدب والحقوق في سوريا ولد في دمشق ١٨٩١ وشغل عدة وظائف حكومية ورأس الجمعية التأسيسية في دمشق وانصرف للمحاماة، سجن غير مرة في سبيل بلاده، وتوفي سنة ١٩٢٩ مقتولا بالسم.

٤ – جبران التويني، كاتب وصحافي ونائب ووزير لبناني ولد ١٨٩٠ وأنشأ جريدة النهار، صار وزيراً للمعارف والفنون الجميلة ووزيراً مفوضاً في الأرجنتين وتوفي ١٩٣١.

٥ – ميشال أبي شهلا، كاتب صحفي شاعر، ولد في بيروت ١٨٩٨، عمل في مجلة «المعرض»،وأصدر مجلة «الجمهور» عام ١٩٣٦، وله ديوان شعر «أنفاس العشيات»، توفي في بيروت ١٩٥٩.

٦ – شارل دبَّاس، ولد في بيروت وشغل بعض الوظائف العالية. وحكم عليه الأتراك بالإعدام ودرس في فرنسا وتبنى سياستها، انتخب أول رئيس لجمهورية لبنان ٢٦ أيار ١٩٢٦ – أول كانون الثاني ١٩٣٤ وتوفي في باريس ١٩٣٥.

٧ – لعله يقصد فارس الخوري (١٨٧٧–١٩٦٢)، سياسي وأديب سوري، رئيس الحكومة السورية عدة مرات (حيث إن عدداً من شخصيات إقليم الشام تحمل هذا اللقب).

٨ – جميل مردم بك (١٨٩٤–١٩٦٠)
- من رجال السياسة في سوريا كان مستشاراً خاصاً للأمير فيصل بن الحسين في دمشق ١٩١٩، حكم الفرنسيون بإعدامه فذهب إلى القاهرة وأقام بها ١٢ عاماً.
- عاد إلى دمشق وصار وزيراً للمالية وفر للعراق هربا من الفرنسيين، عين وزيراً للخارجية في عهد شكري القوتلي وترأس الحكومة السورية (٣) مرات، توفي بالقاهرة ودفن في دمشق.

٩ – نجيب الأرمنازي (١٨٩٧–١٩٦٨)

- من رجال السياسة في سوريا، محام وصحفي مولده في حماة ووفاته في دمشق.
- أصدر جريدة الأيام في دمشق، كان وزيراً مفوضاً لسوريا في لندن وفي الهند وتركيا ثم سفيراً لها في مصر ثم لندن. له عدة مؤلفات.

١٠ - محمد علي العابد (١٨٦٧-١٩٣٩)
- أول من سمي رئيساً للجمهورية السورية. ولد في دمشق وتعلم بها وبالآستانة، درس الحقوق في باريس، عينته الحكومة العثمانية وزيراً مفوضاً في واشنطن (١٩٠٥-١٩٠٨) ثم عين وزيراً للمالية أثناء الانتداب على سوريا ثم رئيساً للجمهورية (١٩٣٢-١٩٣٦) توفي في باريس ودفن في دمشق.

١١ - هو الشاعر المملوكي محمد بن يوسف، يُنسب الى تل أعفر، بين الموصل وسنجار. عاصر عددا من سلاطين بني أيوب ومات ٦٧٥هـ/١٢٧٧ وله ديوان شعر مطبوع.

١- الأخطل ، غياث بن غوث (٦٤٠-٧٠٨م)، من بني تغلب، شاعر أموي كبير ، من الثلاثة الكبار المتهاجين في عصره ، هو والفرزدق وجرير، اشتهر في عهد بني أمية بالشام ، أكثر من مدح خلفائهم، نشأ على المسيحية، كان يقيم بين دمشق والجزيرة. له ديوان شعر.

٢ - نعوم مكرزل (١٨٦٧ - ١٩٣٢)، من أعلام الصحافة العربية في المهاجر الأمريكية، مؤسس صحيفة (الهدى) في نيويورك ورئيس تحريرها، توفي في باريس ودفن في لبنان، انظر صور رسائله إلى الأخطل الصغير ونصوصها في كتاب «رسائل إلى الأخطل الصغير» مرجع سابق، ص (٢٢٩- ٢٣٢، ٢٣٩-٢٤٠)

٣- اسكندر العازار، أمين الريحاني، شبلي بك ملاط، الياس فياض، أمين تقي الدين، جبرائيل نصار، يوسف نخلة ثابت، من الشخصيات الأدبية والصحفية وأصدقاء للأخطل الصغير.

٤ - إبراهيم سليم النجار ٠٠٠٠ - ١٩٥٧، صحافي لبناني مارس الصحافة في مختلف البلاد العربية. أصدر عدداً من الجرائد في القاهرة ١٩٠٢ والآستانة ١٩١٢ والقدس ١٩٢١ وأخيراً جريدة اللواء في بيروت ١٩٣٩.

٥ - أسعد رستم سبقت ترجمته.

٦ - معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي، سبقت ترجمتهما.

٧ - الحسين بن علي (١٨٥٤ - ١٩٣١)، أول من قام في الحجاز باستقلال العرب عن الأتراك وآخر من حكم مكة من الأشراف الهاشميين. ولد في الآستانة عاد إلى مكة وعمره ٣ سنوات تأدب وتفقه ونظم الشعر الملحون (النبطي)، نفي إلى الآستانة وصار من أعضاء مجلس شورى الدولة فيها، عين أميراً لمكة ١٣٢٦ هـ، راسله السير هنري ماكماهون أثناء الحرب العالمية الأولى فأعلن الثورة على الأتراك في ١٠حزيران ١٩١٦، صار ملكاً لكل الحجاز، اختلف مع ابن سعود فتنازل عن عرش الحجاز لابنه علي ورحل عنها إلى قبرص عام ١٩٢٥، توفي في عمان ودفن في المسجد الأقصى، صار نجله فيصل ملكاً على سوريا ثم العراق، ونجله عبدالله ملكاً على الأردن.

٨ – الخلائف: مفردها خليفة وتجمع على خلفاء وخلائف ، (المعجم الوسيط، ص ٢٥١)

٩ – حُشد، في الأصل هي «حُشُدٌ» (بضم الشين)، جمع حشد، بمعنى المحتشد..

١٠ – من المستغرب أن الأخطل لم يستعمل جرأ، إلا بفتح الراء – والصواب بضمها..

١١– الشيخ فؤاد الخطيب (١٨٧٩ – ١٩٥٧)

– ولد في قرية شحيم قرب بيروت، شاعر نقي الديباجة من أعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق استكمل دراسته في الجامعة الأمريكية.

– عمل مدرساً في الكلية الأرثوذكسية وكلية غوردن بالخرطوم. نظم القصائد تأييداً للثورة في الحجاز ولقب بشاعر الثورة.

– تولى تحرير جريدة القبلة في مكة، ثم وكالة الخارجية للملك حسين بن علي، ثم مستشاراً للأمير عبدالله بن الحسين، واتصل بالملك عبدالعزيز آل سعود وعينه سفيراً في كابل، له ديوان شعر.

١٢ – عزيز المصري (١٨٧٩–١٩٦٥)

– ولد في القاهرة وبها تعلم ثم في المدرسة الحربية في الآستانة، دخل جمعية تركيا الفتاة قبيل الدستور العثماني، حارب العصابات البلغارية واليونانية والألبانية وحارب في القرم، تطوع للجهاد ضد الطليان في ليبيا.

– استقال من الجيش التركي بعدما تبين نوايا «تركيا الفتاة» فحكم عليه بالإعدام، أطلق سراحه وصار وكيلاً لحربية الشريف حسين بن علي بعد إعلانه الحرب على الأتراك ، عاد إلى مصر ونفاه الانجليز إلى اسبانيا ، فر إلى ألمانيا وعاد إلى مصر فأدار مدرسة البوليس ثم عين مفتشاً للجيش المصري (١٩٣٧) اعتقل حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، عين بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ سفيراً لمصر في موسكو ، توفي في القاهرة.

١٣ – اسكندر عمون بك (١٨٥٨– ١٩٢٠)، شاعر ومحام لبناني، اشتغل في الأدب كان وكيل المحكمة الأهلية في القاهرة ثم وزير العدلية في دمشق، انظر صورة رسالته إلى الشاعر ونصها «في كتاب رسائل إلى الأخطل الصغير» مرجع سابق، ص (٢٧١، ٢٧٢)

١٤ – جمال باشاالسفاح.

١٥ – يعني الحسين بن علي بن أبي طالب (٦٢٥–٦٨٠م)، الذي رفض خلافة يزيد بن معاوية ، فثار عليه، واستشهد في معركة كربلاء في العاشر من محرم سنة ٦١ هجرية.

١٦ – أسبلَ الزرعُ : خرج سَبَلُه. كنى بذلك، رخاء الحياة ورغَدها.

١ – عمر حمد : «لبنان» (٠٠٠٠– ١٩١٦)

– شاعر من شهداء الحركة القومية بالشام أصله من مصر ولد ونشأ في بيروت،. عمل ضابطاً في الحرب العالمية الأولى بالجيش التركي، وفر بعد الحرب من بطش الأتراك،. قضى بسجن عاليه أربعة أشهر بحجة إلقائه قصائد تنفر العرب من الأتراك. ثم أعدم شنقاً في بيروت ولم يتجاوز الخامسة والعشرين.

٢ – حسين كامل (١٨٥٣–١٩١٧)

– هو ابن اسماعيل باشا «الخديوي» ابن إبراهيم، أول من ولي السلطنة بمصر بعد دولة الخديويين ولد وتعلم في القاهرة وأكمل دراسته في باريس، ولي حكم مصر بعد تنحية آخر الخديويين عباس حلمي الثاني، صار سلطاناً لمصر عام ١٩١٤.

٣ – القول لأبي الطيب المتنبي، من قصيدة الحُمَّى التي مطلعها:

مـــــلــــــومُــــــكُــــــمــــــا يَــــــجــلُّ عـــن المَلامِ

ووقـع فَــــــــعَــــــــالِـه فـــــوقَ الـــــــكلام

ديوان المتنبي بشرح العكبري – جـ ٤/ ص١٤٢ و ١٤٤.

****

الباب الثاني

مقالات سياسية

أولاً: العهد العثماني

ابيض

هذا الشعب

قل له لِيَحْيَ الظالم! ليحي المستبد! وكما يجيبك الصدى من أطراف الوادي، يجيبك هذا الشعب: ليحي الظالم ، ليحي المستبد!

قف به إذا شئت خطيبا، وقل له: إن الحكومة الماضية كانت عادلة رؤوفة. إن العصر الماضي كان عصر علمٍ ونور فَلْتَحيَ الحكومة الماضية وَلْيحيَ العصر الماضي! وكما يترجع الصدى من أطراف الوادي، تترجع أصوات الشعب (لِتَحْيَ الحكومة الماضية، ليحي العصر الماضي).

قل له إن جمعية « تركيا الفتاة»[1] كسرت قيود الرق التي كنت مقيداً بها، أيها الشعب الجاهل! قل له إنها صرفت ثلاثين سنةً وهي تجاهد في سبيل الحرية والدستور، قل له إن عدداً من أبنائها ذهبوا ضحية مقدسةً في سبيلها. فمنهم من قضى في جوار الطائف، ومنهم من قضى فى قصر البوسفور، قل له كل ذلك، ثم قل لتسقط «تركيا الفتاة». وكما يردد الحاكي كلامك يردد هذا الشعب: لتسقط تركيا الفتاة! نستعيذ بالله من هذا الكفر الذي قادنا إليه مجرد التمثيل: ألا عاشت «تركيا الفتاة»! فإنما عنها يشع النور وعنها تصدر الحياة.

هذا الشعب الذي رأيته مزبداً هائجاً. هذا هو التيار الذى كان يجري مندفعاً جارفاً. هذا هو القوة إذا اتحد، وكان له العلم رائداً. هذا هو كل شيء إذا علمتموه، وهذا هو العدو إذا ظل جاهلاً.

علموه وإلا كان كالحسام لا ينتفع به غير حامله، أو كالمدفع إذا استولى عليه العدو، أطلق علينا منه ناراً حاميه تحصدنا حصد المنجل للهشيم .

علموه ولا يغركم منه هذا الاتحاد، ولا تخدعكم منه هذه المظاهرات، فإنها سريعة العطب، سريعة الزوال. وإن كلمةً واحدة، تصدر عن أحد أفراده، ولو عن غير قصد، كافية لأن تثير فيه كوامن الحقد وتضرم جذوة الشر بين عناصره المختلفة.

يا دعاة الإصلاح! أنتم تقولون ولا تفعلون، وما أنتم عن العمل عاجزون، ولكنكم تختلفون على السيادة في أغلب الحين، يا دعاة الإصلاح !

أنتم تقولون كثيراً وتتحمسون في البداية حماساً قوياً، وتنطلقون حتى إذا حان وقتُ العمل وزعتكم مآرب النفس، فترجعون: لا فائزين بالقصد، ولا أنتم تشكرون.

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت، فعليكم بالغصون، عليكم بالناشئة الجديدة! هدِّموا كل الحواجز التي تفصل أبناء العثمانيين! الغوا كل القواعد التي تمنعهم من أن يكونوا إخوة متساوين، وأحلوا الجنسية الوطنية محل الجنسية الدينية، فيستتب لكم الأمر وتكونوا من الفالحين!

ومُحال أن يتسنى لكم ذلك بغير العلم، بغير المدارس الوطنية المختلطة التي ترضع الناشئة الحديثة حب الوطن، وتقلب لها صفحاتٍ تاريخيةً لامعةً، وتعيد عليها ذكر الأبطال المجيدين الذين ضفروا للوطن أكاليل النصر، وساروا به فى سبيل المجد شوطاً بعيداً.

فليكن لنا عبرةٌ فى الماضي، وليكن لنا دافع من الحاضر، ولنعلق على المستقبل أملاً كبيراً.

إن تباشير النجاح منقوشة بالنور على جبين هذا العصر، فنذرف دمعةً إثر الزمن الغابر، ولنلتفت إلى الأمان، قائلين: هيا على الفلاح.

البرق، ١٩٠٨، عدد: ٢، ص: ١

****

لبنـــــان

ويعز عليَّ أن أناديك يا خامل يا جبان ! يعز علي أن أنزل بشيبتك إلى الهاوية حيث الذل والهوان. يعز علي أن تكون أضحوكة الأمم وألعوبةً تتلهى بها يدُ الزمن، وملعباً تمثل عليه المضحكات المبكيات.

وكَم فـــيكَ أمـــسى من المُـــضـــحِـــكـــاتِ
ولــــكـــــنَّهُ ضَـــحَكٌ كـــالـــبُـــكـــا[1]

يا لبنان؟ إذا كنت تفخر، فإنما تفخر بماضيك كالولد المباهي بجده وأبيه، وقد قلبت صفحات الماضي، فلم أجد لك فيه ما يدعو إلى الفخر، ولم أجد لك صفحةً يبسم لها الثغر، فما معنى هذا التباهي يا لبنان؟

تقلب الدهر عليك أطواراً. فتقلبت معه من الرق إلى الفقر، إلى انشقاق، وهي الحالة التي ترسو عليها الآن. ولم ترسُ إلا على الهاوية التي تؤدي بك إلى الدمار فالاضمحلال. فهلا كان في نفسك رادعٌ، وهلا كان لك من العقل نذير؟ فقد ملّت الألسنة وملّت الأقلام. أفما لهذا الصمم من حيلة، أوَما لهذا الداء من دواء؟ رقٌّ، ففقرٌ فشقاقٌ، فاضمحلال؛ طرق لم تسلكها أمةٌ ولا زلّت عليها قدم شعب. فماذا تكون أنت بين الأمم، وكيف تكون أنت بين الشعوب؟ إنها والله، لحالة تفطر القلب على حظك التاعس، ومصيرك الهائل، والذنب ذنبك في كل ذلك فإما تتهم به أحداً، تكن من المفترين.

كنت قبل النظام مسترَّقاً لطبقة من بنيك أتتها السيادة عن طريق الدهاء، ورافقتها عن طريق الإرث، غير أنها لم تلبث أن ضغطت على الطبقة الثانية، فانفجرت عليها كما ينفجر البارود، فمزقتها. وما كان ضغط الأولى إلا عن حمق، وما كان انفجار الثانية إلا عن ألم ووسوسة. وكان قد أزف الوقت الذي اشتريت فيه النظام بدمك، ولكن لا كما

اشترته الأمم الراقية؛ فإنما هو قد أتاك عن طريقٍ تُجلّلك بالعار، وتصمك بوصمة الذل إلى الأبدية.

وقد دك النظام معالم الاستبداد، ورفع راية المساواة بين طبقات الشعب، وأهَّل كل فرد من أبناء الأمة للمركز الذي يستحقه علمه وأدبه. ولما كنت جاهلاً يا لبنان بما كنت قد فُطمْتَ قبل عهد الفطام ، دست هذه النعم برجلك، لأنك تجهل أنها ثمينة، فانضوى قسم منك إلى راية من طمحوا إلى الزعامة وظل القسم الآخر مستظلاً براية رجال الإقطاع، فبرهنت في كل أدوار حياتك على أنك لا تزال قاصراً، فاتخذ كل فريق منك عليه وصياً.

كنت تقول قبل الدستور، وعلى الأخص فى العهد المتأخر، إنك لا تقوى على الاجتماع. ولو مُهِّد لك ذلك، لكنت أثبتَّ العجائب، وها قد تمهدت لك تلك العقدة واصبحت بفضل الدستور، قادراً على الاجتماع جهاراً والمناداة بما تضمره نفسك من نفائس الأفكار، مجاهراً بمبادئك الحرة. وإلا فدعواك بالأمس باطلة.

أجل، فقد اجتمع بالأمس منك عصابة زحفت إلى بيت الدين[٢] حيث يستوي ابن فرنكو[٣] على منصة السيادة التي منها صدرت الأوامر الظالمة بجلب الغزيريين [٤] وإيداعهم ظلمة السجن، لوشاية كاذبة، والتى منها كانت تصدر الإرادة المطلقة المستبدة بإسناد الوظائف إلى غير مستحقيها من أبناء الجبل. زحفوا نواباً عن الشعب وألجأوا ابن فرنكو إلى تطهير الحكومة من جراثيم الفساد، وإسقاط من فقد منهم ثقة الأمة وعبث بحقوقها.

إنها المرة الأولى التى فاز بها الشعب على الحكومة، وخنق بها الصوت المجموع صوت الفرد، وهى خطوة كبيرة خطوتها بفضل الدستور، وصفحة جميلة كتبتها يد المجد في تاريخك.

بذلك توصل الغرب إلى الحالة التي هو فيها الآن، وبدون الأحزاب لا تستقيم مصلحة الأمة. ولكن شتان بين الأحزاب هنا، والأحزاب هناك. فهم إنما يجاهدون في سبيل النفع العام، ونحن إنما نجاهد في سبيل نفع أنفسنا، إذا صح تسمية الأنانية جهاداً.

ومهما يكن من الأمر، فإن الصوت الخافت أصبح مسموعاً، وإن الحاكم الذي يمد يده إلى الرشوة لا يأمن عليها من الكسر.

بقيَ أن يَنْتبه الشعب من غَفْلته، ويعرفَ أنَّ حقوقه مقدسة مرعية لا تقوى على اغتصابها يدُ الظلم.

البرق، ١٩٠٨، عدد: ٣، ص: ١

****

هذه الفوضى

نتيجة الجهل، هذه الفوضى التي يدوي صداها من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب. والجهل إذا خيم في بلد، صيرَّ نوره قتاماً وغشّى على أبصار أهله، فتركهم يتسكعون فى مجاهل غيهم ويتسابقون إلى قتل أنفسهم بأنفسهم، ويرجعون القهقرى مندفعين بعوامل المفسدات إلى حيثُ لا تقوم لهم قائمة، متدافعين كأنهم الذئاب، لا يجسر الواحد أن يتخلف عن الآخر لئلا يمزقه بأظافره الدامية.

نتيجة الجهل، هذه الحوادث التي تنقض على رؤوس الشعب المستكن الهادئ، فيضطرب لها فؤاده، وتطير لها نفسه؛ فلا يقوى على معاطاة العمل لأنه غير آمن، ولا الحكومة تقوى على قطع دابر المتشدد الظالم. فأمسينا والفوضى ناشرة أعلامها، والنظام مستهان به، ولا يرعى أحد له جانباً. فكأنما في رجال الدوائر وهن، وهم غير أهل للمراكز التى يملأونها؛ أو كأنما الشعب أبطرته الحرية وهو لا يفهم حقيقتها، فتطرف حتى تهور. فإذا لم تتداركه الحكومة، بما عندها من الحكمة والحزم، سقط صريع الجهل في مهاوي الشقاء، واستحكم منه الداء وعز فيه الشفاء.

لا عاطفة شريفة ولا مبدأ نبيل، لا مزية حسنة ولا خلق كريم. عدم بعض الناس الشعور الإنسانى؛ فهم أبداً دائبون على تعكير الصفاء وتقطيع روابط الألفة. فطر بعضهم على الشر، فهم كأنما أرسلوا إلى الأرض ليلطخوا الهيئة البشرية بما يرتكبونه من الفظائع الوحشية والأعمال الأثيمة.

ألم يأتك نبأ المتقهقرين في الآستانة؟ ألم يأتك نبأ راتب والي الحجاز؟ يريد الأولون أن يحنث السلطانُ بيمينه، فيسترجع الدستور، ويقف حاجزاً في وجه الحرية، يمنع نورها أن يتسرب إلى أبناء الأمة العثمانية في ذلك الصقع السحيق. ولكن العدالة أبت إلا أن تقتص من هؤلاء، فنكلت بهم تنكيلاً، وجعلتهم عبرةً لكل بصير، على أن العدالة التي قبضت على خناق راتب والمتقهقرين، وقفت عاجزةً عن نزوة من أبناء الشر،

يعيثون فساداً في لبنان وضواحيه. إن ما تقرأه من فظائع الشقي خطار... وما جرى بين شيبوب الشقي الآخر والجنود اللبنانية، وإن ما تقرأه عن حادثتي طرابلس والمنية[1] وبعض الحوادث الإفرادية التى تجري في مدينة بيروت، يصور لك الفوضى بأقبح صورها، وينقل لك رسماً حياً عن تقاعس حكومة لبنان، وتخاذل حكومات الإيالات[2] الأخرى، فلا تعود تعجب من تجهم السفلة الأوغاد، وتهجمهم. فإنهم أشبه شيء بأمواج البحر المتدافعة إلى الشاطئ فإذا لطمتها الصخور سقطت متكسرة على أقدامها، وإذا لم يقم في وجهها حاجز أغرقت ما يعترض في سبيلها من كل ذي حياة.

إنها لحالة وأيم الحق يستنكفها طبع الكريم. حالة لا تسلم معها عاقبة ولا تقوم معها شوكة للحكومة إذا هي لم تضع الحزم موضعه.

فوضْعُ النَّدى في موضع السَّيفِ بالعُلى
مُضِرٌ كَوَضْعِ السيف في مَوْضِعِ النَّدى[3]

على أننا نعجب، ويحق لنا أن نعجب، من حكومة لبنان كيف أن الأشقياء يبيحون أعراض الرعية ودماءها، وهي تتلهى هنا بالسفاسف التي لا طائل لها ولا فائدة حقيقيةً يرجى من ورائها.

فنحن نخشى إذا ظلت الحالُ على هذا المنوال، أن يتفاقم الخطبُ ويتسع الخرقُ على الراقع، والسلام.

بشارة عبدالله الخوري

البرق ، ١٩٠٨ ، عدد: ١٠، ص ١

****

صيحة في واد

إذا ذهَبت اليوم مع الريح،فلقد تذهبُ غداً بالأوتاد[١]

هو الجهل حتى تنبت الأرض قتاداً. وتملأ فساداً. وحتى يجهل الغبيُّ مقدار نفسه؛ فيسير إلى حيثُ يقع على أُمِّ رأسه.

وهو الظلم حتى يعم البلاء، وتغضب السماء، وحتى لا ترى أبياً يقف بوجه الحاكم ويقول للظالم: يا ظالم.

الجهلُ والظلم آفتا الشرق، إذا حدَّق ففي ظلمة الأول، وإذا رسف ففي قيود الثاني. وما حال مَنْ يتخبط في دياجي الجهل؟ بل ما هي حال من يرزح تحت عبء المظالم؟

منذ أمد بعيد، وتركيا العظيمة تتقلب على فراش السقام، ومنذ أمد والخائنون من أبنائها يمتصون دماءها، ويقودونها بالناصية إلى الهاوية، حتى ذهبت مثلاً من الضعف ومسخت عبرة للأمم.

أجل أصبحت مثلاً من الضعف وعبرة للأمم، وظلت كذلك حتى مزق النور ظلمات الجهل، وحطم العدل قيود الاستعباد؛ فاندفعت الناشئة العثمانية اندفا ع الأتيِّ[٢] على خائني الأمة والبلاد، وكان يومهم متهدراً.

وإذا بتركيا قاربت الشفاء، وعاودها الأمل بالحياة، وجرى الدم، في عروقها نقياً. إذا بالظلام استحال ضياءً وبالشقاء هناءً، وإذا انقلب الوجه الأرضي حتى كدت لا ترى عليه شقياً.

نسمة من نسمات الحرية انعشت آمال الأتراك، ولمعةٌ من لمعات الدستور، كانت ضياء للمهتدين. وفي لبنان – في هذ الجزء الصغير من تلك المملكة الضخمة – لا حرية ولا دستور؛ وهل يخطب الحرية إلا العلم، وهل يسطع الدستور، إلا في سمائه النقية؟

تلك الجبال وهذه الأودية التي خصها الله بأجمل اللآلئ الطبيعية، آهلةٌ بقومٍ، كلما نقل غيرهم خطوةً إلى الأمام، نقلوا عشراً إلى الوراء. وكلما اقتربت الأمم ميلاً من الرقي ابتعدوا عنه أميالاً.

هؤلاء الناس يتلهون بأمجاد أجدادهم، ويفاخرون بغير أعمالهم، ويحاربون أنفسهم بأنفسهم دفاعاً عن الباطل. فيقتلون الحياة وهم يحسبونها شيئاً زهيداً. هؤلاء سلالةُ المردة، أولئك الأبطال الذين كانوا يجعلون أجسادهم سوراً حول وطنهم، ودماؤهم نهراً يغرق من كان يطمع فيهم – فمن لنا بأن يروا شقاوة وطنهم وسوء مصير أبنائه – إن بين الأمس واليوم لعبرة زاجرة للأعصر الأواتي.

إن هذا الوطن التاعس يئن من بنيه. وبنوه يئنون من أولياء الأمر فيه، من رجال السيادة الذين أشربوا نفوسهم ماء الذل، وختموا على قلوبهم بخاتم الجهل. يئنون كما يئن الغدير المتدافع في الوادي. يئنون، لأن بالأنين يعرف ألم الجرح.

كانت حملتنا شعواء في عددنا الماضي، حملة من المبدأ على المبدأ، فإذا بها حملةٌ على غير ما نقصد، وإذا بنا أعداءٌ لمن كانوا أصدقاءنا بالأمس، فكفى بهذا على حالنا الحاضر شهيداً.

البرق، ١٩٠٩، عدد: ٢٨، ص: ٢١٧

****

شـــيء عــن لبنــان

قليلون هم الراغبون في إصلاح هذا الجبل، قليلون هم الواقفون على أطلاله يندبون سوء مصيره. وكثيرون هم اليائسون من إصلاح الحال، لأنهم يرون المخربين يعملون على الهدم، ولا يرون يداً واحدة تبني. من المتصرف إلى أصغر متوظِّف، من أكبر زعيم إلى أصغر مزعوم[1] كلهم يهدمون. وإذا استمرت الحالة على هذا المنوال، فما عسى تكون النتيجة؟؟

يقولون لي: نراك دائماً تصور لبنان بشكلٍ مظلم، ودائماً تمثله بحالة مزعجة، ودائماً دائماً تقطع خيوط الأمل التي يحوكها الصحافيون على صفحات جرائدهم، فتحول ابتساماتهم دموعاً وتهاليلهم مراثي.

أجل، إن الحقيقة لا تألف دائماً هذه الصحف التي تقرأون، وإذا ابتسمت أحياناً فإنما هي تفعل كندماء السلاطين، يضحكون السلطان طمعاً برضاء السلطان، أو خوفاً من غضبه. وربما كان الرياء شنشنة[2] البعض، فيلبسون الأبيض أسود والأسود أبيض، فيضلون بذلك من حيث يجهلون.

أما الذين يرغبون في الإصلاح، الذين يحملون في صدورهم قلباً غيوراً ونفساً وطنيةً، فإني لا أسمع لهم صوتاً، حتى كدت أشك بوجودهم، وأريد بهؤلاء أصحاب الأفكار المستقلة التي لا تربطها رابطة بأصحاب المطامع. أريد بهؤلاء أصحاب الجرائد الحرة. والجرائد الحرة هي التي تقول الحقيقة أين وجدت، ولو عاد عليها ذلك بالضرر المادي. ولما كان هؤلاء الذين أعنيهم، غير ميسور وجودهم، فإني لا أزال أقول: إن الأمل ضعيف بالإصلاح.

جعجعة أحزابٍ وقرقعة جمعياتٍ، في كل قضاءٍ بل في كل قرية. وقد مضى على هذه الجمعيات وهذه الأحزاب زمنٌ طويلٌ. فماذا صنعت من خير هذا الوطن؟

أأنشأت هذه الجمعيات الخيرية الأدبية، مدرسةً صناعيةً أو ملجأً خيرياً، أو أتت عملاً يذكر ولو زهيداً؟؟؟ وهذه الجمعيات السياسية التي تدعي أنها من أكبر أنصار الإصلاح، أي شيء غيرت في هيئة الحكومة؟ هل وقفت في وجوه رجال الزعامة. أَمَهَّدَتْ لأصحاب العقول المفكرة، سبيلاً إلى إشغال المراكز في دوائر الحكم؟ أم وضعت نصب عينيها، مشروعاً حيوياً وباشرت العمل فيه؟

أجل إن غاية ما يصنع حتى الآن، عزل أناس وتنصيب آخرين؛ وقد يكون في من ينصبون من هم دون المفصولين خبرةً وإخلاصاً. هكذا كان لبنان، أحزاباً تتطاحن وأموالاً تبذل وبيوتاً تخرب، وكذلك هو اليوم. غير أن الأحزاب اتخذت لها أسماء غير أسمائها الأولى. فبالأمس كان حزب واصا[٣]، وفرنكو[٤]، ومظفر[٥]. واليوم حزب الأحرار، والمحافظين، والمتقهقرين.

لا يضيع حق وراءه مطالب. وكذلك الإصلاح؛ لا يضيع إذا كان في البلاد مُصلحون، إذا كان فيها رجالٌ مجردون وصحافيون يقولون ما يعتقدون، وما يرون وما يسمعون.

أكاد أجزم بأن ليس في لبنان من يفكر في إصلاحه؛ وإذا فكر أديب مرة، فما هو مما يقاس عليه. ومتى ثبت أن ليس من يعمل على الإصلاح، فكيف يمكن أن نرقى؟ متى ثبت أن الجهل، والانقياد، وحب الذات، ضاربو الأوتاد في لبنان من شماله إلى جنوبه، من شرقه إلى غربه، فكيف يمكن أن نعلق أملاً على المستقبل؟

نحن هنا نعتقد أن المهجر ينشئ لنا رجالاً يصلحون ما يفسده كبارنا وزعماؤنا، ويعتقدون في المهجر، أن الناشئة هنا، ستقلب الهيئة الحاضرة، وتقيم على أنقاضها هيئةً تناسب العصر الذي نحن فيه. وبين اعتقادهم واعتقادنا خسارةٌ لا تعوض لو ننتبه وينتبهون.

ها قد تقرر أن الجوالي[٦] في المهجر، وأن الناشئة في الوطن يضللون الرأي العام، لا عن سوء قصد، فكيف ولم؟؟؟ جرائدنا هنا إما مشتراةٌ وإما مسالمة وإما متاجرة. وهي لا تقدر أن تكون إلا كذلك. ولماذا؟ لأن اللبنانيين إما طماعون، وإما خاملون، وإما جهلاء.

«ولا أذكر هنا القسم القليل الراقي» وبحكم الاضطرار تجري الجريدة مع قرائها ونصرائها، على ما يحبون. فهي إذاً منقادة لا قائدة، بل هي كالحرباء تتظاهر بما يكون قد أثره عليها أصحابها.

وجرائدنا فى المهجر هي، والحق يقال، أخلص نية وأقوم قصداً، ولكنها تبعد عن الحقيقة أحياناً، بمقدار ما هي بعيدة عن دائرة العمل؛ ولذلك أسباب كثيرة أهمها اعتقاد جرائدنا في المهجر الصدق والحرية، ببعض جرائدنا في الوطن. واستناداً على هذا الاعتقاد الذي كثيراً ما يكون في غير محله، تأخذ هذه الجرائد بتطويب فلانٍ وتقبيح فلانٍ الآخر، وترجيح رأي هذه الجمعية على رأي تلك، بحيث يختلط الحابل بالنابل، ويشتبك الرأي الصائب بالرأي الفائل(٧).

وكل هذا لا يعد شيئاً بالنسبة الى تغرير المراسلين. فإني أعرف منهم من يتخذ جرائد المهجر واسطةً لتنفيذ مآربه أو مآرب من استخدمه. وقد تكون الجريدة الناشرة لتلك الرسالة واثقة بمراسلها فتَضل بها وتُضل.

فكيف إذاً والحالة هذه، نعلل النفس بتحطيم القيود التي نرسف بها؟ ومن هم يا تُرى الذين يرغبون بالإصلاح مجرداً؟؟؟ إن الزمن الذي مضى على الزعماء والأحزاب والجمعيات، وكل دعاة الإصلاح كافٍ لأن يكون له بعض نتيجة. فأين هو هذا البعض؟ أفلا أقدر أن آخذ ذلك برهاناً على أن هؤلاء لم يكونوا يعملون كل هذه المدة، إلا لأنفسهم، ولو خرب الوطن؟ أفلا يمكنني أن أقول للجرائد التي كانت موالية لحزبٍ دون الآخر، أو لشخص دون سواه، إنها كانت تبايعهم على الباطل، وإنها كانت تخون الشعب الذي يغذيها؟.. أتريد هذه الجرائد أن تقول لنا إن الشعب عدو نفسه وإنه متمسك بزعمائه إلى حد أنه لا يريد أن يسمع بهم تنديداً؟ أتريد أن تقول إنها إذا انتقدت فريقاً ترجع إليها أعدادها، فلا تقدر بعد أن تعيش ؟.. فلترجع إليها أعدادها، وليختنق صوتها، في سنتها الأولى، فهو خير لها من أن تعيش لتميت وطناً بأسره.

قلنا وأثبتنا أن لا أحد يعمل على الإصلاح، فهل يجب أن يسكت الأفراد الراقون وإن كانوا عدداً قليلاً؟ هل يليق بنا أن ندع وطننا فريسة بين أنياب الذئاب، وفيه لنا أمهات ووالدون، وزوجاتٌ وإخوةٌ وبنون، بل فيه كل ما يسمو إليه الفكرُ من جمال، وما تطمح فيه النفس من ثروة؟؟

فهل من وسيلة لإيقاف هذا التيار، سوى تعليم الشعب ما له من حقوق، وما عليه من واجبات نحو نفسه، وقريبه، ورئيسه الديني والمدني، وبالعكس، أي ما على كل هؤلاء من الواجبات نحوه؟ هل من وسيلة لأن تُفهم هذا الرجل من الشعب، أنه مساوٍ لذاك الرجل من سلالة الإقطاعيين أو المأمورين أو غيرهم؟ هل من وسيلة لأن تبين له أنه مطلق الإرادة يفعل ما يراه حسنا، لا ما يراه غيره، ويجتنب ما يراه قبيحا؟ هل من وسيلة لأن تجعله يُميز بين الحسن والقبيح، والنافع والضار، والخير والشر؟ وأخيراً، هل من وسيلة لإفهام هذه الألوف أنه من العار عليها أن تنقاد لرجلٍ واحدٍ يقول لها: اذهبي إلى بيت الدين، فتذهب إلى بيت الدين، وانزلي إلى بيروت، فتنزل إلى بيروت وهي لا تعلم لماذا؟ ما هي الوسيلة أيها الإخوان المنتشرون في أقطار العالم، إلى قلب هذه الهيئة التي تشتغل لأنفسها، وإبدالها بهيئةٍ تشتغل للأمة وللوطن؟

فكَّرت في ذلك، وعرضت نتيجة هذا التفكير على بعض الأدباء المشهود لهم بالعلم وصدق الوطنية، فاستحسنوه، غير أن منهم مَنْ رأى الفكر كبيراً يطول على من رامه، ومنهم من أبدى عليه بعض الملاحظات فشكر عليها.

الفرد مهما كان كبيراً لا يقدر أن يأتي عملا كبيرا، ولهذا وُجدت الجمعياتُ، أي لتأتي أعمالا كبيرة شأنها الآن في الغرب. ولَمَّا كان علَّة شقاء الشعب اللبناني جهله واستبداد رؤسائه فيه، كان لا بد لنا من إزالة هذه العلة. وبماذا نُزيلها؟

نزيل الجهل بالعلم، ونطحن الاستبداد بالقوة. فيجب علينا إذاً، أن نُعلم الشعب، صغيرا كان أو كبيرا. فالمدرسة للصغير، والصحافة للكبير؛ وأريد بذلك أن يُبحث عن الأذكياء من أبناء الشعب الذين لا مقدرة لوالديهم على تعليمهم، وإدخالهم إلى المدرسة على نفقة الجمعية، وأن تُرسَل الجريدة التي يُحرر مواضيعها الراقية نخبة من أفاضل

الكتَّاب، إلى مَنْ يطلبها مجانا، من اللبنانيين، ليَسْهُلَ لكل فردٍ الاستفادة منها. وعلى هذه الجريدة أن تكون القوة التي تحول بين الظالم وظُلمه، والخائن وخيانته؛ بل عليها أن تكون المُدافعة عن حقوق كلِّ وطنيٍّ، ولو كلَّفها ذلك تعباً جسيما.

هذه الجمعية القائمة الآن في مخيلتي، المؤلفة من كل عناصر اللبنانيين القائمين في لبنان، والمنتشرين على سطح الكرة الأرضية، هي الواسطة الوحيدة على ما أظن، لأن تجعل لبنان زاهرا سعيداً.

ألفا مشتركٍ لهذه الجمعية، يدفع كل منهم ذهباً واحدا في السنة دخلاً دائماً، مع بدلات اشتراكات الجريدة وريع المطبعة، وتبرعات الوطنيين، تكفي لأن تأتي عملاً مذكورا بل عملا مشكورا.

هذا هو الحلم الذي أتلذذ به الآن، ولا يبعد أن أستيقظ يوماً، وأرى شعاع الحقيقة يمزق أستار الوهم. فقد سئمنا الحياة مع الجهل، ومللنا التعلل بالأماني الكواذب.

هذه هي نقطة الدائرة التي سأعود إليها، ورجائي أن أرى الأفكار تحوم على هذا الموضوع، والهمم تنهض إلى تحقيق الآمال. وإني تاركٌ إلى إخواننا – وأخص منهم المهاجرين – رأيهم في ذلك؛ فإن حالتنا أصبحت لا تُطاق.

وما عسى يُؤمَّل من شعب معظمه جاهل، وحكامٍ كلهم مستبدون، ونوابٍ أكثرهم خائنون؟.

البرق، ٨ أيار ١٩٠٩، مج:١ ، عدد : ٣٥، ص : ٢٧٦ و ٢٧٧ و ٢٧٨

****

حــول الموضــوع [١]

صدى مقالتنا الماضية - تنبيه الأفكار - استعداد بعض المشهود لهم بالصدق لمباشرة الإصلاح - بصيص أمل في المستقبل.

يسرنا وأيْمُ الحق، أن يكون لكلمتنا عن لبنان، في عددنا الماضي، هذا الوقعُ الجميل في أنفس الأفراد الراقين من أبناء جبلنا المحبوب.

ويسرنا أن تكون مكافأتنا على خلوص نيتنا، ما كتبه إلينا أصدقاؤنا في الأماكن المختلفة، من عبارات التنشيط التي أثارت بنا كوامن الغيرة، وأحيت بنا أملاً يُلاشيه ما يقابلنا به أصحاب المطامع، ورجال الغايات من المعاكسة والمجافاة. فليعلم ذوو المناصب العالية، أن الشعب قد بدأ بالشعور الحقيقي، وليطمئن الشعب الهادئ الساذج؛ لأن قوةً كبيرة ابتدأت تتألف من إخوانه الحقيقيين في الوطن وفي المهجر، لتُقيم حدود المساواة والعدل والحرية. وإننا ننشر هنا مع الفخر، رسائل الوطنيين الصادقين، وفيها صورةٌ حية لأنفسهم الكريمة التي تعرف الواجب وتقدسه:

أخي بشارة:

شــيء عن لبنــان

تحت هذا العنوان قرأت لك في العدد الأخير من البرق، ما لم أقرأه لك فيه من قبل؛ وكأنك أردت أن تكتب (شيئا عن لبنان) فذكرت أشياء كثيرةً، وأنحيت باللائمة على اللبنانيين وأحزابهم وجمعياتهم، إنحاءً شديداً، واندفعت على الجرائد اندفاعاً لم أتوقع حدوثه منك، مع ما أعهده من طول أناتك وشدة إغضائك على القذى.

لم أكن لأريد أن تكتب شيئاً اليوم يا أخي، لأنك جاهرت من عهدٍ غير بعيد بهذا المبدأ الطيب، وهذه الأفكار الراقية. فماذا كانت النتيجة؟- خسارة مادية إذا تجاهلت بها أنتَ، فلا أجهلها أنا، وبات كثيرون ينظرون إليك شزراً؛ أما الذين شعروا الشعور الحيَّ، فقليل ما هم!..

أنا لا أظنك في ما تقول، إلا في وجهٍ واحد، وهو أنك عمَّمت القول ولم تستثن أحداً؛ كأن النظرة الإجمالية التي ألقيتها على هذا الجبل التاعس، جعلت حجابا كثيفا على عينيك، فلم تقعا على صغار العمال المنبثين في زوايا لبنان، الذين ينتهزون الفرص للقيام بالأعمال، وإن كانت صغيرة.. يوجد يا أخي نفوس كبيرة في غير الذين تعنيهم، لا يرتزقون من الأحزاب، ولا يتاجرون بها، ولا يملقون، ولا يُدَلِّسون، ولا يكذبون، ولكنهم يتلقَّون (بذور الزارعين) بفرح ويتخذون من وميض (البرق) أقباسا يستنيرون بها في ظلمات المستقبل المجهول.

لا تلم الجرائد يا أخي على جبانتها وانحياز كلٍّ منها إلى فريق، فإنها تتخذ بذلك طريقا للحياة. وكلُّ جريدة لا تنتمي إلى حزب وإن كان سافلا، لا تحيا طويلا.

أنت تريد أن تجهر الجرائد للشعب بأن لا يتمسك بزعمائه، إلى حدٍّ أن لا يسمع بهم تنديدا.. أنت تريد أن لا تعمل الجريدة لنفسها بل للشعب الذي يُغذيها، وإلا كانت خائنة. أنت تريد أن تكون حرةً مخلصة متفانية في خدمة الوطن اللبناني، تطعن في صدور المستبدين، وتصعق رأس الكبير قبل الصغير، ولا بأس إذا رجعت إليها أعدادها، واختنق صوتها؛ فهو خير لها من أن تعيش لتُميت وطناً بأسره!.. ذلك منتهى الشهامة يا أخي. ولكني أرى أن الفساد الثابت في الرؤوس القديمة، لا يمكن أن يُستأصل اليوم؛ فعليك بتدبير الرأس الصغير - أفِضْ في حثِّ جرائد المهجر والمهاجرين! فإننا نتوسم فيهم روحاً حياً أُشربوه من تلك البلاد الراقية؛ وضُمَّ آراءهم إلى آراء المفكرين في لبنان؛ وحينئذٍ تكون الجمعية التي تدور في خَلَدك. ومتى كانت

الجمعية، كان ما ترجوه من رقي الأمة. وما هي إلا فترةٌ من الزمن حتى ترى شعبا راقياً يقرأ ويفهم ويشعر ويتولى الأعمال عن عقل مفكر وعلم واسع.

هذا بعض من كثيرٍ مما أريد بسطه لك، أيها العزيز. فانظر إذا شئت إلى الإصلاح، من هذا الوجه الأخير. فهو أضمَنُ – لا لحياة الجريدة، فإني على ثقةٍ بأنك لا تكتب ما لا تريد – بل لحياة مَنْ لا نُريد أن يظلُّوا منقادين انقياداً أعمى يمضي بهم وبأولادهم إلى الهاوية.

ابراهيم منذر(٨)

✡✡✡✡✡

صديقي

إن حديثك عن لبنان، في العدد الأخير، هو والحق يقال، صوت لبناننا الذي يتألم اليوم من جمعياته وأحزابه وزعمائه وصحافته. بل هو صوت الحقيقة التي قلَّما جاهر بها إنسان وسلم من ألسنة مَنْ يدَّعون الوطنية، وينادون بالإصلاح، وهم عن الإصلاح والوطنية بعيدون. وإن لم تُسمعكَ أودية لبنان، ورباه، صدى صوتك اليوم، فعسى أن يُسمعك إياه، المهجر لأن البعد عن الوطن، غالباً يُقرِّب المرء من حب الوطن الحقيقي المجرد عن المآرب الذاتية والمطامع السياسية.

صديقك

أمين ريحاني

✡✡✡✡✡

أخي

إن كلمتك عن لبنان، في العدد الماضي من «البرق»، صادفت استحساناً في قلب مَنْ أحبَّ لبنان. وتأكد يا أخي أنه، وإن لم يكُن الآن حظٌّ لتلك الكلمة، عند الزعماء، وعند

بعض اللبنانيين، فليست هذه بأول مرة رأينا الحقيقة ضائعةً عند هؤلاء القوم. وسيأتي يوم لا يذكرون لك هذه الكلمة إلا ويذكرون الضمير الحرَّ والوطنية الصادقة، والعواطف الشريفة، والمخيلة الحساسة التي أملت عليك فكتبت ما كتبت.

وأنا أسألك بحق لبنان الوطن المحبوب أن تثابر على هذه الكتابة، المرة بعد الأخرى، شفقةً على بقية ضمائر حيةٍ بين تلك الآكام، وذكرى لقومٍ نائمين. والسلام عليك.

من: رشيد تقي الدين

البرق، ١٥أيار ١٩٠٩، مج: ١، عدد: ٣٦ ، ص:٢٨٧و٢٨٨

✱✱✱✱

حول الموضـوع [٢]

ورد علينا كثير من رسائل الفضلاء، وملؤها التنشيط على معالجة الموضوع اللبناني الذي طرقناه في عددنا الأسبق. فاكتفينا بنشر الرسائل الآتية، شاكرين لجميعهم الغَيْرة المجسمة في كل كلمة من رسائلهم:

قرأت مقالتك الأخيرة عن لبنان؛ فرأيت فيها غَيرةً متقدة، ولهجةً وطنيةً حقة. ووقفت طويلا عند كل كلمة نددت بها على ما هناك من الخلل، وشعرت باندفاعك الشديد نحو الإصلاح، ورغبتك الكبيرة ببلوغ ذرى التقدم، وموت الأحزاب التي تسعى لغاياتٍ خصوصية، ولو ضحت في سبيلها أمة بأسرها.

على رسلك يا أخي. فإن الأصوات وإن خفتت، والمآرب وإن ساءت، لا بد لها من الانقلاب، عاجلاً كان أو آجلا. سُنَّةُ الله في خلقه وليس لسنة الله تبديل.

لا بد لهذه الأصوات الساكنة أن تعلو يوماً، ولهذه الأحزاب الشخصية أن تتلاشى. فالأمة متى دخلت في النور، وتمزقت عن عيونها براقع الوهم، لا تقبل بهذه الحالة التي هي عليها. وكذلك لا يجب على الشبيبة الراقية أن تستسلم لليأس والقنوط، لأن في لبنان اليوم أفراداً نسمع صوتهم من حين إلى آخر، فترى ثمة صوت حرية الضمير، ممزوجاً بالحب الأكيد والإخلاص التام، وعلى هؤلاء الأفراد إن في لبنان أو في المهجر تُبنى الآمال، لأن صوت الحق إذا ذهب اليوم مع الريح، فسيكون له في المستقبل، بكل صدر، دويٌّ عظيم.

وليس الذنب وحده على الأحزاب، بل الذنب على كل لبناني يشعر ويفهم ولا يسعى. يشعر أن الشعب بحاجة إلى التعلم، ويفهم جيداً أنه لا يتوصل الى الرقي المطلوب إلا بهذه الواسطة، ولا يسعى لتعميم المدارس في بلاده، إن بالمال أو بالقول أو بالعمل. لا ذنب على الأحزاب لأنها هكذا نشأت وهكذا ترعرعت، ولم تجد قطُّ مانعاً لها؛ بل بعكس ذلك لم تكن ترى إلا منشطين؛ فسارت لا تلوي على شيء، وتقدمت إلى غايتها

غير مهتمة بما سيكون وراء ذلك من خير أو شر. فمتى تعلَّم الشعب وعرف حقوق وطنه عليه، وحقوقه على وطنه ورؤسائه، يقوم بوجه هذه الأحزاب، فيضطرها إلى التشتت، ويُنشئ له أحزاباً جديدة غايتها منفعة الوطن ونجاحه، كما نراه في جميع البلاد الراقية. فالأحزاب هي حياة البلاد؛ إنما يجب أن تكون غايتها منصرفة لا إلى فرد بل إلى مبدأ، فتعمل عند ذلك لنجاح الوطن.

فأكرم بهذه الروح التي تتجلى على صحيفتك، وتختلج في صدر القلائل من مواطنيك! ويوم تتابع الأصوات العارفة نافخةً في بوق الإصلاح، مستعدةً عن كل غاية سياسية أو مادية، يوم تنشر المعارف وتعم المدارس نبشر لبنان وغيره، من البلاد العثمانية بالنهوض ونبشرك بإبراز فكرك إلى عالم الوجود إن شاء الله.

يوسف نخله ثابت

✡✡✡✡✡

لم يتيسر لي أن أقرأ العدد الخامس والثلاثين من «البرق» الذي لمَّح في «شيء عن لبنان» قبل العدد السادس والثلاثين المذكور؛ فقرأت اللمحة اللبنانية، وكنت أتمنى عند قراءة كلِّ سطرٍ من سطورها أن يكون شهاباً لامعا في كل لبنان، فيراه ويقرأه كلُّ فردٍ في لبنان، لما تضمنه من التجرد التام، والتنزه المطلق وطلب الإصلاح الصحيح.

ولا أريد أن أُلهيكَ ولا ألهي قراءك الكرام؛ بإطراء ذلك المقال، لأن القول الحسن كثير والرسائل الإصلاحية عديدة من كتابنا المجيدين، وكلها يستحق المدح والثناء، ولكننا كما تقول، أفقر اليوم إلى الأعمال منا إلى الأقوال.

وكل يعلم أن الشعب اللبناني بفطرته، حَسَنُ الطوية، شريف النية، مخلص القصد، نبيله. فإذا كثر انتشار المقاصد الإصلاحية المنزهة المجردة بينه، لا يكون أسرع منه إلى الائتلاف والانضمام، ولا أقدر منه على الاندفاع إلى الأعمال المجيدة التي يرتقي بوطنه فيها إلى مراقي التمدن وذرى العمران. ولا أريد أن أُسهب في الكلام الآن عما تقدم، لئلا يمل قرَّاؤك الكرام من طول البحث في موضوع واحدٍ، والسلام.

شاهين الخازن

مقالتك في العدد ٣٥ «شيء عن لبنان»، لم تكن أول برهانٍ على وطنيتك الحقة وإخلاصك الأكيد، ولا الحقيقة الأولى التي أبنتها بكذا جرأة مدهشةٍ عرفتها فيك.

إن جعجعة الإصلاح التي ذكرتها، لم تكن لمجرد الإصلاح، ممن ينادون به، وهم عن الإصلاح بعيدون؛ إن هنالك أمراً آخر يا أخي، يطلبونه. ومتى وصل أحدهم إليه انتهى الإصلاح عنده، بل بالحري انتهى كل شيء.

لكن ما نحوت به، بصورة عمومية، من اللوم على جمعيات لبنان، إن لم تكن مصيباً بأجمعه، فأنت ولا شك، مصيب بأكثره. على أن وراء تلك البناية التي أنت من جملة أركانها، قلوباً كبيرة ونفوساً شريفة وأيدياً عاملةً أخذت بذورها تنبت، ولا أرى زمن الحصاد ببعيدٍ. على أني أطلب إليك يا أخي، أن تداوم على بث مثل هذه الأفكار؛ وبذلك تقوم بالواجب عليك، وتفي بالعهد الذي ارتبطت به، ولست إلا من الصادقين!

جبرايل نصار

البرق،٢٢ أيار ١٩٠٩، مج.١، عدد: ٣٧ ص: ٢٩٤ و٢٩٥

****

وطـن ضائــع

لـبـنـان الـذي ضـرب أبـنـاؤه في الأقـطـار الأربـعـة أضـاعـوه. والـجـبـل الـذي أدرّ الـلـبن والعسل على أبـنـائه رذلـوه. فعمامة الثلج التي على رأس صنين[١] هي كفن للشيخ[٢]. والأنهر التي تتفجر من الصخور هي دموع الطبيعة على الميت.

كان يعلل النفس بكسر القيد. ويفتر للأمل اللامع من وراء البحر فإذا بالتعلة أصبحت علة. وإذا بالأمل أصبح مللا.

صدّرت «المنارة» سنتها التاسعة بعدد مزدوج جالت[٣] فيه أقلام الكتاب فكان للبنان نصيب من سهامه. وصدّر العدد بمقالة لفارس أفندي نجم محررها السابق وفيها شكوى من لبنان ونظامه.

الإخوان في البرازيل قرأوا على ما أظن حكاية الثعلب والطبل؟

فعلى رسلكم أيها الإخوان. إن الحكمة تقول خير الأمور الوسط فلنكن حيث تقول الحكمة.

لفارس أفندي سؤالان: الأول – لماذا لا تسمح الدولة للبنان بفتح ثغوره[٤]. والثاني – لماذا لا تضطرها الدول الحامية[٥] الى الفتح. ويفسر السؤال الأول رغبة الدولة بمحو النقطة السوداء ويفسر الثاني تقاعد اللبنانيين «في الماضي» عن المطالبة بحقوقهم ومتى عمل الثاني أبطل الأول – من أجل هذا جاهد فريق هنا في هذا السبيل ومنه «مجلس الإدارة».

إن لبنان لم يكن نعجة الحكومة الماضية. فأي لبن امتصت منه تلك الحكومة إلا إذا كان هناك شيء أضاعه جهل اللبنانيين أنفسهم.

مهما ساءت حالة اللبنانيين تظل خيرا من كل حالة سواها. أفليسوا هم الحكومة وهم الجند؟ أو ليس لبنان حكومة ضمن حكومة ترعاه الدولة ولا تأخذ منه بدلا لرعايته.

أجل إن جهل اللبنانيين للقوانين وعدم أهليتهم للامتيازات التي منحت لهم. كل هذه الأسباب تجعلهم يستهينون بأنفسهم ولا يهتدون منها للوصول الى محجة السعادة التي يسعى إليها كل نسمة في الوجود.

ليس من الدولة يطلب إقامة المعاهد والمصايف ولا منها يطلب «إنشاء المتنزهات ولتسهيل وسائل الراحة» ذلك في الولايات نفسها يطلب من المجالس البلدية ولهو كذلك في لبنان.

فعلى الشعب الذي منه تتألف المجالس البلدية أن يقوم بهذه المكملات والبلدية كالحكومة في لبنان. كلاهما من الشعب يتألفان. ومع ذلك فلم نرِد العمل في إصلاحه.

يقول فارس أفندي «إن الدولة الدستورية لم تمد إلى لبنان يد الإصلاح ليدركها أهله. إن في الانضمام الى الدولة الجديدة الحياة التي لا يجدها بلد لا دولة له».

ونقول له أعطنا شعبا عارفا بحقوقه متحدا بقلوبه لنجرَّ المتصرف[٦] عن كرسيه ونهدم مجلس الإدارة[٧] على رؤوس من فيه. ونقول للدولة العلية أعطينا أفضل من هذا متصرفا ودعينا ننتخب أفضل من هؤلاء نوابا فقد سادنا الجهل ولكن إلى حين. ومنذ ذلك نرى إذا كانت الدولة لا تسمع صوتنا وإذا كان نداءنا لا يجاب.

إذا لم تتكفل كل ولاية بإصلاح الدولة السريع وترميم ما هدمه العهد الماضي وبعد هذا فلنفترض أن لبنان من هذه الولايات التي تشتغل لنفسها.

لنشتغل إذاً لنؤلف جمعية قوية. لنبذل المال في سبيل تعزيز حقوقنا. ولنكن شعبا راقيا. ما بالي لا أسمع إلا أصواتا مختلفة. أرونا عملا واحدا بدلا من مليون كلمة تقولونها.

«يجب أن يكون للبنانيين وطن»

فما هو الوطن إذاً؟

هو مقر الإنسان له فيه ما لإخوانه من حقوق وعليه ما عليهم من الواجبات.

وهل انطبق هذا التحديد على غير اللبنانيين من جميع عناصر الدولة.

إن حكومة لبنان من شعبه وهي مطلقة اليد في إنشاء المشاريع ومنح الامتيازات بتعدين المعادن وتوليد الكهرباء فبقي أن نكون رجالا لنصلح أنفسنا.

فبقي أن نبذل المال «لإنشاء المصانع التي تدار بقوة الكهرباء وتتولد من شلالات الأنهر الكثيرة».

إن تذلل اللبنانيين لقناصل الدول وتراجمتهم نتيجة الجهل. أما النظام الذي وضعه أقطاب السياسة الأوروبية فلا يخلق بنا أن نعده وهما.

وقد خلط «ق . م » بين الاستقلال المطلق والاستقلال الإداري. لهذا كان كلامه خارجا عن الدائرة اللبنانية في كل نقاطه الأولى.

☆☆☆☆☆

أنا لا أسمي هذا العيد استقلالا إذ ليس كذلك ولا أنظر إليه معتزا لأنه جاءني عن طريق العار. وأنا أول لبناني يطرح[٨] الحجاب على يوم ٦ أيلول[٩] وينظر إلى حالة لبنان الحاضرة كنتيجة لمقدمة منسية.

البرق، ١٩٠٩عدد: ٥٩، ص:١

****

هـذا الجبــل

إذا لم ينهض اليوم فسينهض غدا. وليمزقنكم بردا وليزلزلنّ بكم عرش الظلم، وليدكنّ بكم صرح الجهل. فإذا ختم على قلبه فإنما إلى حين. وإذا أغمض الجفن فإلى أمد أقصر من قيد الرمح، فاستبدوا واظلموا فمصيركم الهاوية لو تعلمون.

كونوا أرقاء، وكونوا مأجورين، وكونوا أذلاء وكونوا كما بوأكم سيدكم، فإن إرادة السيد يا عبيد مقدسة، واطعنوا صدر وطنكم بحراب يضعها في أيديكم وما تطعنون بها سوى أنفسكم وأنتم لصغارة في نفوسكم وعماء في قلوبكم وكلب على وظائفكم بتم لا تميزون.

ساعدوا ما شئتم على تفريق العناصر وبثوا رسلكم في شعاب لبنان ومنعطفاته. وقولوا بعد ذلك إن خصومكم تعمل على تكدير الأمن ونشر الفوضى ولو كنتم عقلاء لعمدتم إلى غير هذه الوسائل التي ستجنون منها الدماء طاهرة وتذكون بها جذوة فوضى قد يطير لها صوابكم وتتقطع لها قلوبكم فيرجع كيد الكائد إلى نحره وتسقطون في حفرة نبشتموها، لقوم لا ذنب لهم سوى أنهم غضاب عليكم لأنكم خونة.

أحكومة مطلقة... نكون حزبا يناضل حزبا آخر، ورئيس حكومة مطلقة أقل صفاته الحقد وأعوان وأذيال لا يقدسون سوى مصلحة أنفسهم يعملون على خنق الأفكار وقتل الضمائر وإحياء الضغائن ومع هذا فحكومة الآستانة تنظر ولا تمدّ يداً الى جسم هذه المشاكل الداخلية. كأن فتيان الترك يجهلون ان الفتنة أقرب من الأقرب بعد حوادث القتل التي تجري بين بعض جهلة الدروز والمسيحيين وكأنما الدول تنتهز هذه الفرصة حتى تمد يداً الى ثلمة في لبنان تنفتح معها مسألة لبنانية هي قادرة على سدها اليوم وقد يصعب الخرق على الراقع فيما بعد.

نحن من غير رأي الذين يقولون بالالتجاء الى غير الدولة ولكن هذا الإغضاء من دولتنا العزيزة يوقع القلوب في اليأس، وهل من فرق بين اليأس والموت والشعب يطلب نوراً ويطلب حياة.

يقول لنا الشعب اللبناني علامَ لا تجيبنا حكومة الآستانة إلى مطاليبنا ولا تصيخ إلى شكاوينا ولا تحرك إصبعها لتزيل هذا الظلم عنا، أفلا تدعي أنها والدة لنا فأين هو حنانها ونحن في حالة تتفتت لها أشد الصخور قساوة، أين هو ذلك الحنان؟

ونخشى إذا بقيت هذه الحكومة الحزينة لا تفكر سوى نصب المكايد لخصومها السياسيين ومحاكمة الصحافيين منهم أن يزيد حبل الأمن اضطرابا، وتزيد الفوضى انتشارا، ويقع ما نحن خائفون وقوعه فيبقى ذلك عارا مرسوما على جبين المتصرف وكل رجال سياسته الخرقاء.

إذا لم يبال هذا المتصرف بنا فقد سبق له واستخف بالحكومة نفسها ذلك يوم داس قرار محكمة التمييز بنقض الجناية إذ أعاد دعوى زوين لدائرة الاتهام بعد أن أوجب مجرد النقض إخلاء سبيل أسيره ولم يفعل.

لم يفعل لأنه يريد أن يسجن زوين بك لانتقام شخصي، ولأنه اعتمد على أصنام متحركة لا ضمير لها ولا عاطفة ولا شعور، ولأنه يريد أن يسترجع هيبة سحقت بأرجل الوفد من أهل لبنان يوم بيت الدين.

لم يفعل بأمر الصدارة لأنه على ثقة من أن محكمة المتن تصدر مثل الحكم الذي أصدرته على جرجي بك زوين وهو الذي بلغنا هذه الساعة ونحن عند هذه العبارة.

قالوا حكمت محكمة المتن على جرجي بك زوين بالسجن سنة وثلاثة أشهر وبتغريمه أربعين ليرة عثمانية رسوما ومصاريف.

لو علمت هذه المحكمة أنها سجلت بيدها وصمة عار على نفسها ولو علمت بما يقوله فيها الناس لاختارت تحت هذه الأرض نفقا وحسبها أننا نعتقد فيها بعد عملها هذا رقاً لا تنبته نفس نريدها لرجل نعرفه.

كل ما دلت عليه أقوال الشهود الذين سمعنا لا يستوجب حكم محكمة المتن، فكيف يريد هؤلاء الناس أن نقول إن حكمهم لم يُلَقَّنوه تلقينا. ومن الصغار أن رجلا يدعي الشرف ونقاوة الضمير يسلم قياده لقوم لا شرف لهم ولا ضمير.

يقولون إن فارس أفندي مشرق يتجول في قرى المتن عاملا على تقوية حزب المتصرف.

وقالوا لنا إنه قصد إلى المتين لمناهضة بيت عقل شديد، وقالوا إنه خاطب بعضهم في المروج وفي غيرها بشأن إدخالهم في الماسونية كأنما هو يريد أن يجعل حزب الحكومة من جماعة البنائين، وإنه ليضحكك إذا عرفت من الذي خاطب ومن الذي ينتقي.

لا لوم على فارس أفندي لإنه افتتح بماسونيته قارة جديدة ولكنه يلام لتدخله في المسألة التي نحن بصددها كما بلغنا.

نعود إلى مخاطبة الدولة. نقول لها إن الشعب لن يصبر على إهانة هذه الحكومة الحزبية له وسجن نائبه واختلال الأمن في ربوعه وإراقة دماء ذويه فهو يلتجي إليك رجاء أن تنقذيه ويهمس في أذنك ما يردده عقلاء قومه في هذه الأيام.

نـــرى خـــلل الـــرمـــاد ومـــيض نـــار

ويـــوشك أن يـــكـــون له ضـــرام[1]

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩١٠، عدد: ١٠١، ص: ٣٩٧

****

دمعـة علـى طلل

تلك ربُوعهم، فقف بها وقفة امرئ القيس على الطلل البالي. وهذه أمجادُهم تُداس لا بأخفاف المطيِّ بل بأخفاف الليالي، وابْكِ العزَّ عفَتْ معالمه، والمجدَ أشجاهُ طاسمُه.(١) فقد خُنتَ الوطنية إذا لم تقف في معالم القوم، وقوف شحيحٍ ضاع في الترب خاتمُه(٢).

ثم سَلْ إذا صادفتَ مُجيباً غير الغدير، يئنُّ بين الصخور كالمرأة الثكلى خطف الذئبُ وليدها؛ فهي وراءه تهرول أو كالسهم زلَّ عن القوس، فهي تُرنُّ وتُعوِّل. وما أنين الغدير،على غير وطنٍ خانه بَنُوهُ، وجنف عليه ذووه. فهو لباسٌ للمسح، أو ينفلق فجر الإصلاح، وزحاف على الحضيض، أو تخفق راية الفلاح. فقد علت يدُه إلى عنقه وما اجترحت نكراً، ويبس لسانه في فمه وما نطق هجرا، ولكنه خمول القوم مجلبة هذه الطوارئ، وكفى بها عبرة ذكرى.

وإذا سألت عن الداء، وقد تقادم به العهد، فحول نظرك إلى هذه المعمعة، وقد عقد عليها العثير سُرادقَ مطنبة؟ ترى الأخ يحمل على أخيه، والولد يطعن في صدر أبيه، والنمّام ينفثُ سمه في الصدور، والمداهن يلين لك مجسه، حتى إذا انقلب، كان عقرباً يسعى، أو هو الأفعى. فلا صلة للألسنة مع الضمائر، ولا تنم الوجوه بما انطوت عليه السرائر، حتى كأن السماء غضبت على الأرض، فلا تُنبت لساناً حراً، ولا جناناً برّاً، أو تمطرنا غيثاً مدرارا، فيغسل هذا الدرن المتراكم؛ أو تنفحنا ريحاً إعصاراً، فيجرف هذا الوباء المتفاقم، فإننا ورب الوجود، قد سئمنا الوجود.

ودونك عن شعب لبنان جوابا وأنت غير سائر؛ شراذم تنقاد كما انقادت لراعيها السوائم بلا علمٍ يكون حجة على القائد القومَ إلى الهاوية لمطمع يبغيه، ولا نصلٍ في كف أروَعَ يشق الصدر فيستطلع خافيه، ولا جامعةٍ توجه العقول فتحكم بالألفة فتنشد، ولا رابطةٍ بين القلوب فتقضي بالوطنية، فتُعبد، ولا قدمٍ تسعى إلى المجد فنسعى وراءها

عشراتٍ ومئين. ولكنهم يسعون إلى مصلحة أنفسهم، فيتوزعون قطعانا لا رأي لهم فيُسمع، ولا قول لهم فيُتبع، ولا هم يُرحَمون.

ذلك ذنب الشعب وقد هضَّه[3] الضيم وما نهض، وبلَّه الذل وما انتفض، وكان أجداده بالأمس دفَّاعي الأذى أن يُلمَّ بجيرانهم، ومنّاعي الحيف أن ينزل بإخوانهم. فهو اليوم طعمة الحاكم يطبخهم كيف يشاء، وأُكرة[4] الزعيم يوجههم أين يشاء. وهم لا يبدون على هذا الجور احتجاجاً، كأن حياتهم سُخرت لهؤلاء الزعانف. أو كأن دمهم استحال ماءً صراحا، وكانت تغلي مراجله من قبل.

ويحاً له من شعبٍ فروعه نابتة على غير أصولها، يقوم فيه الهزاؤون ناهجين السبيل غير قويم القصد، صائحين لغير ما مُهْزة[5] في النفس. أفلم يتصل بك النبأ في الأمس: «المؤامرة وما أدراك ما المؤامرة، نارٌ من الحقد حائرة، في نفس صاغرة»، تلك هي المؤامرة؟

رجلٌ عميد في المنكر، ولوع ليس بالأسود بل بالأصفر. قالوا إنه اعترف – مجانا – بأن عصابةً من أهل السوء معادية لحكومة لبنان، دفعت له بضع مئاتٍ من الليرات ليذهب بحياة جماعةٍ معلومة. فأحجم، وكان لا يحجم عن عشر هذا المبلغ، لو صحت الرواية، ولكن الصدق لا يصلح له كل لسانٍ. فهو نادر وجوده، والشرف لا ينبت في كل نفس، فهو قليل عديدُه.

وما نحن بالمهتمين للأمر، شأن الجرائد العاقلة من قبل ومن بعد؛ ولكن يؤلمنا أن يصم سافلٌ جبينَ لبنان بوصمة لا يرضى بها أديبٌ لوطنه، وفيه عظام الأجداد. وبقايا الأمجاد، تحرسها أرواحهم طاهرةً ذكية.

وأيمُ الله، لو وُجدَ في هذه البقعة الجرداء، مَنْ يجودُ بنصف هذا المبلغ، مندفعاً مع التيار أيّاً كان مصدره، لما بقي لبنان يتحركون دونه وهو جامد. ويرفلون في مطارف الحياة وهو مطروح على أقدام الموت، تصيح حوله الجرائد نادبات نوائح.

فانحرافاً الى الحكمة وأنتم تفلحون. وميلاً إلى الروية في ما تقولون وفي ما تفعلون! أما وربِّ السماء، لو مطرت ناراً سنةً بلياليها، لما طهرت جراثيم الفساد،

ووكرها قلوبكم، ولما أكلت هشيم الأحقاد، وتربته صدوركم. فقد حان لكم – رؤوس البلاد – أن تعقلوا بعد الطيش. وقد حان للشعب الذي أشقيتموه، أن يندفع عليكم كالنمر وقد شاهد دمه، وعرف خصمه.

فما الثورة، تترك عرش الظلم، بالتي ندعو إليها بني قومنا! فطيروا إليها زرافات معرضين صدوركم للقذائف تُمزقهم أشلاء. ولكننا ننظر في سماء المستقبل، إلى غيمةٍ نخاف أن تحمل الوبال في جوفها إلينا؛ فهي في صورة التنين، له لسانٌ من نارٍ مندلعٍ وقد تدلي به هذه الجلبة إلى الجبل، فيلتهم الذخيرة الواقية ويمحو الأمل المبتسم.

ومَنْ يجعلِ الضرغامَ للصيد بازَهُ

تَصَيَّدَهُ الضرغامُ في ما تصيدا[٦]

بشارة الخوري

البرق، ٥ تشرين الثاني١٩١٠، مج:٣، عدد :١١٢، ص:٦٩

****

رجال الغد

عفواً يا فتى لبنان إذا قطعت عليك حديثك فإن على اللسان كلمة إذا لم يلفظها أحرقته وفي الخاطر حديث إذا لم أقله حسبتني النفس جانيا عليها. وما كان حديثي إلا ليطربك وليطرب أمثالي وأمثالك من فتيان لبنان فاسمع وعِ.

رأيتك تفرغ جام اللوم على الرؤوس البارزة في البلاد وسمعت صنواً لك يعول وينوح على لبنان كأنه ذلك النبي الشاعر يعول وينتحب على أطلال أورشليم وكلاكما لو عرف قدر نفسه لما أعول ولا لام.

ترى في السياسة اختلالا فنقول للحكومة أنت سبب هذا الاختلال ونجد في البلاد خمولاً فنصيح في وجه البطريرك أنت يا أيها الشيخ الجليل أصل هذا الخمول، وفي اعتقادنا أن الحكومة والبطريرك قادران على إصلاح الحال، ثم نلتفت إلى كبار القبائل صيادي الوظائف ونصرخ في آذانهم حي على الفلاح فلبنان سائر على الطريق الذي تريدون! إن آباءنا والذين تقدموهم من آباء وأجداد قد علموا أن الأحوال لا تتغير بمجرد إرادة الحكومة ورضى البطريرك ومساعي الزعماء فما بالنا نحن المتأخرين المتعلمين لا نرى طلوع الشمس إلا من وراء ابتسامة الكبار ولا نرى غروبها إلا من وراء عبوسهم.

ولقد علمنا نحن أننا سلع يتاجر بها ذوو النفوذ وأبواق يصيحون بها ليخيفوا الخصوم حتى إذا كان يوم وكان فيه اتفاق بينهم وبين من خاصموا سكتوا وأشاروا علينا بالسكوت.

ألا فليقل لي فتيان لبنان أية فائدة جنوها أو جنتها البلاد من سيرهم وراء الرؤوس الكبيرة وأي المبادئ الشريفة قد أيدته اجتماعاتهم العديدة بذوي الوجاهة. فهل ذرّ قرن الإصلاح في لبنان وتحسنت حال فلاحه وأنشئت في قراه المدارس؟

لا لعمري بل وقع النفور واشتد بين فتيان البلاد ذوي القدرة على عمل شيء جيد، لِمَ لم ينشقوا وينضم كل منهم إلى زعيم ليكون لديه بمثابة درجة جديدة للسلم التي أعدَّ أو يعد للصعود إلى الوظيفة التي يريد.

ألا ويحاً لنا من شبيبة ثابتة في تربة الذل لا تجد لها لذة إلا في العبودية وتعسا لفتيان يركض الواحد منهم وراء الوجيه إلى أن يقيء مِعاه[1] ثم يجيب العاتب عليه : أنا «نصبة» زيد أو بكر من الزعماء.

بالأمس كان هذا الأمير أو هذا الكبير من رجال الحكومة يبيح لرئيسها هتك ضميره وهو ينادي تبارك الرب الذي أرسل إلينا حاكما هذه صفاته وكان فريق كبير من الشبان يردد هذا النداء ويسبّح حكومة لبنان.

واليوم هوى ذلك الأمير أو الكبير عن كرسي الوظيفة فصار للحكومة عدوا يطيل عليها لسانه وينسب لها التقهقر والجاسوسية ويلصق بها هضم حقوق الشعب الذي هو «خادمه» واندفع وراءه فريق من الفتيان يقول قوله ويلعن تلك الحكومة المستبدة الجائرة.

أنا لا أعتب على الكبراء لتقلبهم فقد عودونا من قبل ذاك ولكني أضن بالشبيبة أن يكون شأنها شأنهم وأن تبقى كالآلة بين أيديهم يديرونها كما يريدون أو كالبوق يقول عن غير علم بما يقولون.

وهلا علم شبان لبنان أنهم إذا اتحدوا قوة كبيرة تفعل في البلاد ما تقصر عن فعله الفرق والأحزاب؟

ألا فلتفق الشبيبة اللبنانية ولتكن القوة التي يجب أن تكون فينهض لبنان بنهضتها ويصير الى ما سننتظر عبثاً صيرورته بسعي البطريرك[2] وإرادة الحكومة.

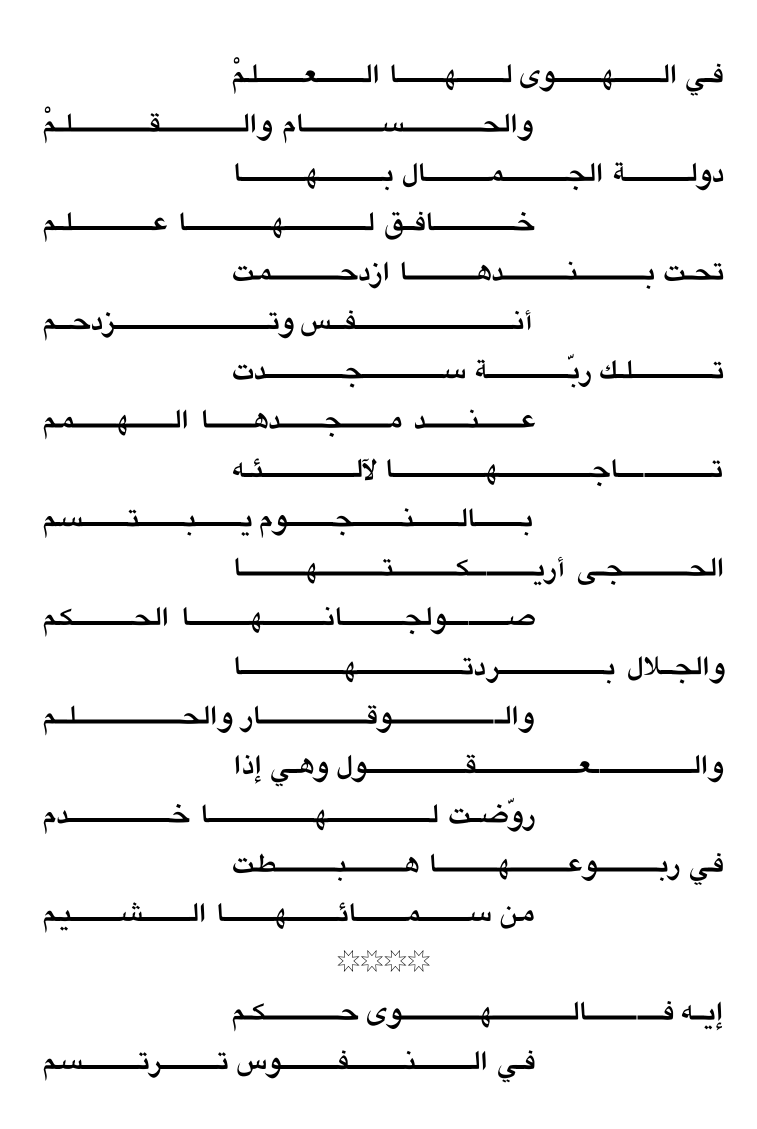
شاب (بشارة الخوري)

البرق، ١٠ حزيران ١٩١١، عدد: ١٤١، ص: ٣٠٥

****

فتاة الدستور

لسنة ١٩١٠



في الهوى لها العلمْ

والحسام والقلمْ

دولة الجمال بها

خافق لها علم

تحت بندها ازدحمت

أنفس وتزدحم

تلك ربّة سجدت

عند مجدها الهمم

تاجها لآلئه

بالنجوم يبتسم

الحجى أريكتها

صولجانها الحكم

والجلال بردتها

والوقار والحلم

والعقول وهي إذا

روّضت لها خدم

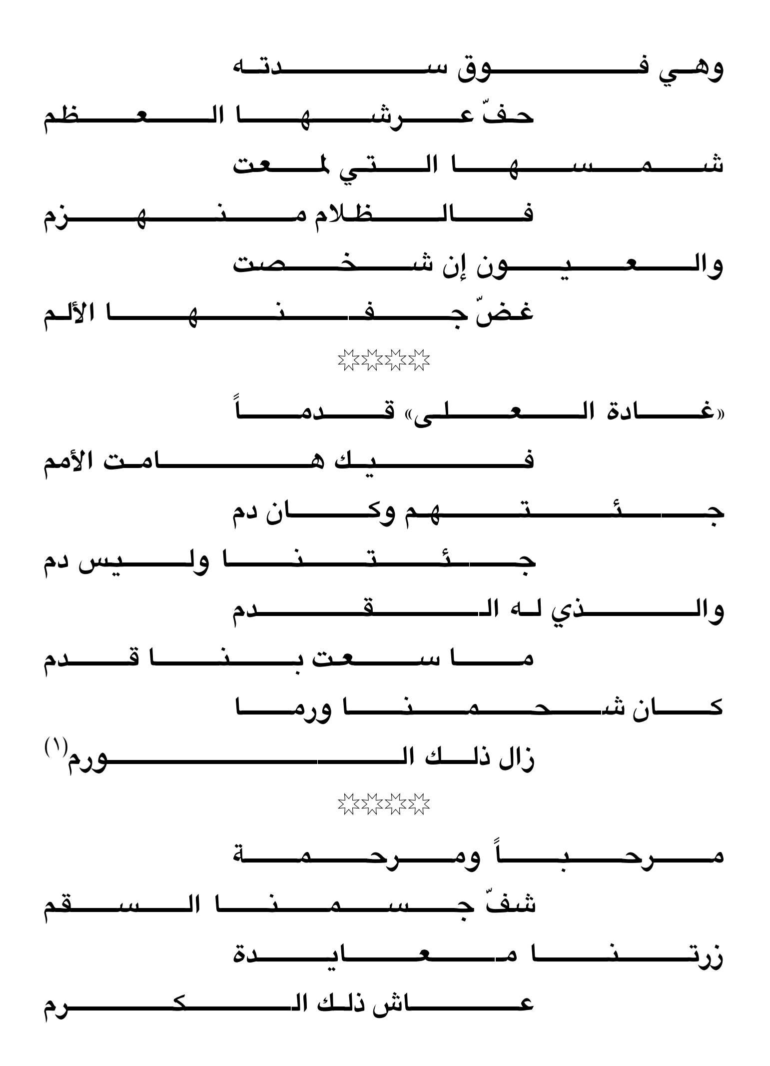
في ربوعها هبطت

من سمائها الشيم

✲✲✲✲

إيه فالهوى حكم

في النفوس ترتسم



وهي فوق سدته
حفّ عرشها المعظم
شمسها التي لمعت
فالظلام منهزم
والعيون إن شخصت
غضّ جفنها الألم

✫✫✫✫✫

«غادة العلى» قدماً
فيك هامت الأمم
جئتهم وكان دم
جئتنا وليس دم
والذي له القدم
ما سعت بنا قدم
كان شحمنا ورما
زال ذلك الورم[1]

✫✫✫✫✫

مرحباً ومرحمة
شفّ جسمنا السقم
زرتنا معايدة
عاش ذلك الكرم

الثمي ثغر الشرق تحييه، وعانقيه تبعثيه حيا. وضاحكيه تنعشيه، وصافحيه يعود فتيا.

ساجلي أطيار السحر، وداعبي أوراق الشجر، وكوني ابتسامة في ثغر الزهر، وابعثي من نورك إلى الزنبق في الحقل، تفتر ثناياه. واسكبي دمعة على وجنة الفل، تفوح رياه.

أنت عشيقة الحكيم. أنت قيثارة الشاعر. أنت حياة الشعوب. آية أنت كتبتها يد القدرة في صدر الفلك الأعلى حتى لا ينالها الخامل ابن التراب وابن الجهل.

كانت طريقك إلينا مفروشة بالسوسن والريحان. فخفضت لنا جناحك لطفا. وأنلتنا من وصلك ما لم نحلم به. فكنا كمن ورث مالاً ثم أضاعه فما حزنت عليه نفسه ولا بكت عليه عيناه.

جئتنا لعام مضى وكنا لم نباشر عملا صالحا فقلت إنهم أطفال في الدستور. وجئتنا في هذا[٢] العام ونحن لم نباشر عملا صالحا فماذا عساك تقولين؟

أيتها الحرية

تقول تواريخ الأمم إن السنتين من حياة الأمة بعد انقلابها لا تكفيان لترميم ما تهدم وإصلاح ما تخرب. وأنهما لا ضير من أن تعد الأمة فيهما عدتها للسير في سبيل الرقي.

أيتها الحرية

العلم هو الأساس القائمة عليه هذه المدنية. ونحن في عصرنا البائد لم نتعلم سوى ما يعود بنا الى الوراء. ولم يكن لنا من قبل – كما هو اليوم – من يلقننا دروس الوطنية وأماثيل الاتحاد. لم يكن لنا من ينزع من قلبنا بذور التعصب وجراثيم الفساد. بل كنا إذا فتحنا نافذة للنور أغلقتها اليد الحاكمة وزجت بنا في الهاوية حيث الظلام أبدي.

أيتها الحرية

الأمة جاهلة ألفت الخمول السنين الطوال. فهي لم تعتد الإقدام على المشاريع الوطنية. والحكومة ضعيفة لا تقوى على توطيد الأمن توطيداً مكيناً. فللأمة عذر في الاحتفاظ بأموالها وللحكومة عذر لرخص بنائها ولأنها محاطة بالفتن مهددة بالحروب.

ونحن أيتها الحرية نقنع بخلوص نية أولياء الأمر. ومتى خلصت النية مهدت سبيل المصلحة العثمانية ومتى مهدت هذه السبيل اندفعت الأمة كالسيل الجارف الى منازعة الأمم الأخرى بقاءها فزرعت أموالها في الأراضي المخصبة فأنبتت ذهبا وفضة ومجداً وسؤددا.

نحن نقنع بخلوص نية قادة الرأي ومتى خلصت نية هؤلاء لا يلعبون بالأمة على أهوائهم ولا يضحون بالراحة العمومية لنيل مأرب نفسي كما هو شأن هذه الجمعيات قديمها وحديثها، فقد أصبحنا ولا طاقة لنا على احتمال النوائب ومصادمة أهل الرجعى.

هذه صفحة من حياتنا الجديدة نرسل عليها الحجاب. هذه حقيقة لا ريب فيها أيتها الزائرة بعد طوال غياب. إن لك في قلوبنا لمقاما رفيعا وإن في ما نحن صانعون من ضروب الزين ومشعلون من الأنوار دليلا ساطعا على شغف النفس بك وإن كنا نجهل حقيقتك وللجاهل كل العذر.

أهلا ومرحبا أيها العيد وتحية وسلاما.

البرق، تموز ١٩١٠، مج: ٣، عدد: ٩٨، ص: ٣٧٣

****

شـــــوارد

من عبدالحميد إلى عمانوئيل

أنا ناقل لكرام القراء كتابا بعث به شيخ الاتيني[١] إلى رصيفه عمانوئيل عاهل البرتوغال. يظهر أنه شق عليه أن يرى العرش يسقط بعد العرش والإطلاق يستحيل إلى التقييد والأثرة تستبدل بالشورى، ساءه ذلك فجاش في خاطره ما صبّه في هذه الكأس الملأى بأنفاسه الطيبة. الكتاب أوردته الجالية ونصه ما أنا ناقل:

قصر الاتيني: في ......

ولدي وأخي المحبوب عمانوئيل في جبل طارق[٢]:

إذا دعوتك بولدي فجائز لي لأنك بمثابة أحد أولادي في العمر. وإذا دعوتك أخي فجائز أيضا لأنك أخي في المصائب. لقد بلغتني مصيبتك مع حشمتلهما[٣] والدتك وجدتك المكرمتين. لا تغتظ أيها الحبيب مما وصلنا إليه ولا تبك على مجد زائل وعظمة فارغة. ألسنا مرتاحي البال. من كل قيل وقال. ألسنا بمعزل عن السياسة ورجالها. بعيدين عن المتطفلين عليها وجهالها.

كانت مصيبتي بهؤلاء المشايخ والأئمة الذين سيطروا على عقلي وجعلوني أعتقد فعلا أنني ظل الله على الأرض كمصيبتك بالقسوس والرهبان الذين جعلوك تعتقد أنك فوق بني الإنسان.

دعوني عبدالحميد فظننت أن لي علاقة فعلية معه جل جلاله. ودعوك عمانوئيل الذي تفسيره (الله معنا) فظننت أن سلطتك من الله وأنه أرسلك رحمة برعيتك مع أنها كانت تئن من مظالمك (اسمح لي أن أخاطبك بحرية ضمير فنحن في الهوى سوا).

كانوا يكثرون لي من السراري حتى عميت أبصاري ويكثرون لك من الممثلات ما أخذ عقلك وجر عليك الويلات. وما كنا ندري أنهن كالطعم الذي يلقى لصيد الأسماك.

تالله لقد فات ما كان يجب استدراكه فليس الذنب على من يصنع المفاتيح الكاذبة ولا الذنب على من يبيع آلات القتل بل على من يقتل بها.

أواه لقد لعبوا بذقني قبل أن لعب بها الشيب ولكن لا عتب عليهم ولا تثريب. ثم إذا كنت قد خطّأت نفسي وخطّأتك معي لاغترارنا بظواهر الأمور وانغماسنا بالملذات فلا يجب أن نبرر غيرنا ...

صدقني ياعزيزي عمانوئيل أن كل الناس مثل بعضهم البعض والسر في الشراب لا في الإناء.

نعم لا أنكر أن البلاد لم تكن كما يرام خالية من تداخل الأجانب. ولكني كنت أعرف من أين تؤكل الكتف وأعرف كيف أؤجل المطالب وأهزأ بالطالب.

أنا الذي كنت أهزأ بالملوك والقياصرة. أنا الذي كنت ألعب بعقول دهاقنة الساسة كما تلعب الأولاد بالأكر. فيا حسرتي على نفسي لقد أخذت على حين غرة وسقت إلى سلانيك[٤] رغماً ووضعت في بيت سَمّوه قصراً كانت اسطبلات خيلي أفخر منه.

فماذا أقول وإلى من أشكو؟ أأشكو، إلى السلطان محمد الخامس[٥] الذي كنت أقيه مثل مطعوم النجاص. وأداريه مثل العين الرمداء. وأخشى عليه من خطرات النسيم أن تجرح خديه، ومن لمس الحرير أن يدمي بنانه. وقد نسي فضلي عليه؟ أواه يا عزيزي عمانوئيل. أواه من بني البشر ما أكثر تقلبهم وما أكثر نكرانهم الجميل. لقد نسوا فضلي وفضلك. لقد نسوا معروفنا. نعم لقد نسوا لأنهم ليسوا أكثر من بشر. وعلى هذا يجب أن ننسى إساءتهم ونغفر لهم حسبما قال سيدنا عيسى في إنجيلكم.

عزيزي عمانوئيل

أرجو من بنوتك إذا ذهبت غداً إلى انكلترا أن تذكرني أمام جلالة الملك جورج[٦] البريطاني أبن أخي المرحوم إدوارد[٧] بالماسونية[٨] لعله يسعى بفكي من الأسر فقد أصبحت شيخاً هرماً لا خوف مني أن أطمع بعد بملك فأقوم بدسيسة ومكيدة ضد

شقيقي السلطان محمد هنأه الله بملكه السعيد وأطال أيامه. وغاية ما أتمناه أن أزور لوندرا[٩] ثانية لأني حافظ منها أفضل أثر جعلته دستور أعمالي مدة ٣٣ سنة ذلك هو دستور الحرية والمساواة والإخاء. ففي لوندرا رأت عيناي النور وفي لوندرا أريد أن أرى الظلمة الأبدية... الساعة الآن الثانية عشرة. ولا يؤذن لي أن أسهر إلى ما بعد هذا الوقت من الليل. ولكني قبل أن أودعك أخبرك أنه انتهى إلي بطريقة من طرقي الكثيرة أن قد ألفت جمعية سرية ولكن مخبري زاد على ذلك أن الجواسيس كشفوا أمرها وفشوا سرها.

ألا قبّح الله الجواسيس المناحيس وقبح تلك الساعة التي استخدمتهم فيها وعلّمت الناس أن يستخدموهم بعدي. فهم أشبه بغربان السوء.

فهل نظرت كيف أن طابخ السم آكله؟

يا عزيزي عمانوئيل

كنت أود أن أخوض أكثر في شأن مصيبتنا وأعطيك بعض الإشارات الفعالة لدسيسة هائلة إذا كانت عينك لاتزال تطمح إلى العرش (وهو ما أظنه لا بل أؤكده) فإنني لو كنت (شاباً) مثلك أو كان لي من العمر ضعف عمرك على الأكثر لكنت أعمل أعمالاً ترقص لها عجايز (....)[١٠] ولكني كالأسد المسن المقيد فلم يعد بطاقتي أن أقوم بعظائم الأمور، أما أنت فكل شيء موفور لك وإنما تنقصك الإرادة فقوِّ قلبك وشد حيلك وضع في بالك نابليون[١١] لما رجع من منفاه في [ألبا] وعاد إلى عرشه قوة واقتداراً وعليه فليس عودك إلى العرش مستحيلاً ولا تكون أول من خلع وأعيد. أمس حررت إلى إخواننا في المصائب مظفر الدين شاه العجم[١٢] وعبدالعزيز سلطان مراكش[١٣] والامبراطورة أوجيني[١٤] لتأليف جمعية بيننا لا نقبل فيها إلا الملوك الخلعاء غايتها توحيد كلمتنا ورفع شأننا كغاية أكثر الجمعيات، فعسى أن يصادف اقتراحي هذا آذاناً واعية لننهض بهمة وعزيمة تفلان الحديد.

ولو أتيت لأكتب كل ما في حافظتي من الأخبار لما كفتني الأوراق التي بين يدي مع ذلك فأرسل لك مع هذا صورة أحد المكاتيب التي أرسلتها الى العزيزة أوجيني ومنه تعلم ماضي وحاضري بأجلى بيان.

فالآن اسمح لي أن أودعك من صميم الفؤاد راجياً أن تنوب عني بتقديم واجباتي الاحترامية لحشمتهما الملكتين والدتك وجدتك المكرمتين. وإذا نظرت حبيب القلب عزت باشا فبلغه سلامي وقل له إنني وقعت في الشرك ولا مناص منه على ما يظهر.

سلامي له ولجميع المحبين الذين يسألونك عن أسير اللاتيني.

عبدالحميد

بشارة الخوري

البرق، ٤ شباط ١٩١١، مج: ٣، عدد: ١٢٤، ص: ١٧٦

****

يا وطناً لم يغب عن الفكر

يميناً! لم ننس واجباً للبنان وإن جنف ذووه، فإذا كدر معينه يوماً فهي الأيام لا تدوم على حال والليالي حبالى من الزمان يلدن العجائب!

لبنان! وهل رأيت بلداً طيب الهواء، طيب الماء، كهذا البلد المقدس التربة، الرامز الى جمال القدرة بما فيه من جدول صاف، وزهر بسام، وطير مغرد!

لبنان! وهل رأيت بلداً رجاله كرجالك لهم قلوب ولكن جامدات، وعقول ولكن مظلمات، يندفعون ولكن في غير سبيل الحق، ويتهالكون ولكن على هيكل الانتقام، فيا لنكبة الوطنية بمثل رجالك!

ورب الوطنية! إننا لنكبر على هذه اللحى والشوارب من المتربصين فى زوايا القصور والمتربعين في كراسي المناصب، أن لا يقوم فيهم عميد يدعو إلى نهضة إصلاحية يترامى صداها من شمال لبنان إلى جنوبه، فتهب على هذه الأرواح الرواقد نسمة من نسمات الإصلاح تنتعش لها القولب وتنتفض بها الجوانح!

سكتنا بعد أن هززنا الرجال وكشفنا عن الضمائر ثم عدنا وكانت اليك عودتنا يا وطناً لم يغب عن الفكر.

ما كان:

ذلك الماضي سافر النقاب، وتلك حوادثه لم تطو في حجاب، وإن نسيت لا تنس ضعف الحاكم يوم وقف فى وجهه مجلس الإدارة فاستعان بحكمة ذويه فكانت حادثة زوين وضائقة الوثيقة ومطاردة الصحف.

وإن نسيت لا تنس دعوى المير ووقوف الحاكم ورجاله خصوماً لخصومه وبين هؤلاء ثلاثة من أعضاء المجلس عاكسهم الحاكم في الانتخاب الأخير حتى إذا فازوا تهدد الأولين بإفساد الانتخاب فصالحاه ثم وقفا على منبر (لبنان الرسمية)[١] يكذبان أصحابهما غير حاسبين للانتقاد حساباً.

وإن نسيت لا تنس حملات الجرائد على ظلم استفحل أمره، وانتقام كبر على العدل احتماله فلم يسلم الحاكم وأشياعه من مطاعن الجرائد اللبنانية حاشا «لبنان» و«لبنان» – مطاعن سددتها إلى صدره فهاج يحمل المحاكم لتصدر الأحكام على الجرائد تباعاً دراكاً.

ولا تنس إن تنس ما كان من أمر دعاة الحرية وخيانة بعضهم تزلفاً إلى أرباب السلطة زاحفين إليها صغاراً على التراب – وهي لعمر الحق جناية في نظر العدل تستحق قطع العنق وسل اللسان، وماذا تؤمل من ذي سيرة ملطخة بالأوحال جاء يزركشها بالسمسرة والبرطلة[٢]، على ما هنالك من جهل ذميم، هذا وبعض الأفراد من رجال الحكومة وأبناء الشعب يتزلفون إليه ظناً أن له مكانة عند المتصرف[٣] مهدها له اعتقاد الناس بأنه سمساره الخاص وباطلاً يعتقدون.

ذلك مثال مصغر لما كان فدونك بعض ما يكون:

أما والسياسة لبست غير زيها الأول، فهي اكليركية النفوذ ماسونية اللسان، ولقد شعر المتصرف بدنو يومه فعمل على مصافحة الطيلسان، ولكن فاته أن قلبه – على كبره – لا يوزع بين الزعامتين زعامة الاكليروس وزعامة الماسون، وفاته أن الاكليركية في لبنان لن تكون متفقة من وجه مع سياسة اللبنانيين الأحرار، فأين هي الحكمة اللامعة في التوفيق بين النقيضين والجمع في وقت واحد بين الماء والنار!!

أما السياسة في قبضة الحاكم يدير دفتها كيف شاء، فهو اكليركي منذ الساعة تعاهد على ما علمنا مع شيخ بكركي[٤] وهو القنوع المسالم ولسوف تكون

هذه المسالمة مجحفة بحق المنتمين الى هذا الكرسي من جميع الطوائف فينفر بهم هذا الإجحاف عنه أو ينضمون إلى من يحترم حقوقهم ويصون مصالحهم وما أكثر هذه الحقوق والمصالح!

ما يكون ! ... وهو اعتقادنا قلناه في ما سبق وقد تم، ونقوله في ما يجيء وقد يتم.

تنمر المتصرف أو أستأسد من بعد أن بطش بالمجلس فبات طوع بنانه، ولسوف يعيد نائبي المتن بعد أن يأخذ عليهما عهود الأمانة حتى لا يكون داخل جدران المتصرفية من لا يسبّح باسمه، وحتى لا يكون في من حوله غير الصادع بالأمر إنْ خطأ وإنْ صواباً!

وسلني أجبك عما ستؤول إليه محاكمة زوين ولا إخالك تجهل الرجل – تلك قضية أن يكون الحكم فيها أقل من سنة ليكون للمتصرف شبه حجة بكف يد النائب ومباشرة الانتخاب وقد يكذب وجدان المحكمة ظننا فلا يكون للمتصرف سبيل الى غايته، وقد تبرهن المحكمة إذا شاءت على استقلال في الرأي يجعلها أمثولة لصغار القلوب من زعانف المتزلفين.

وهنالك – في قضاء الشوف مسألة هي مسألة المسائل عند إخواننا الدروز، ألا وهي دعوى المير شكيب[٥]! وأوراقها اليوم (تحت طراحة[٦] المتصرف) سياسة ودهاء ...

لقد قرر المجلس الإداري (مستنطقه ومدعيه العمومي) أن في قرارات الشهود ما يوجب وضع قائمقام الشوف تحت المحاكمة – وفي المتصرفية حزب عنيد لا يهدأ له بال بغير عزله فهو ينتظر – إلى حين – نتيجة قطع المتصرف فى هذه المسألة حتى إذا لم يصدر الأمر بالعزل انقلب ذلك الحزب عليه وكان قوة تذكر في كفة الخصوم.

وإذا نظرت الى الصحافة اليوم تراها كلها في جانب الحكومة تؤيدها تصريحاً أو تلميحاً حتى إن بعضها انقلب سريعاً من العداوة الشديدة إلى الصداقة الشديدة

وسرعان ما ينقلبون !....

ما يجب أن يكون:

لا نعرف أن رجلاً فيه ذرة من العقل يقبل بالحالة وهي كما هي - فوضى في المجلس وفوضى في الأحكام وفوضى في السياسة، تيار لا يصد بغير تيار مثله من رجال الإصلاح يهيبون بمجلس الإدارة أن يكون كمجالس البشر ويقولون للمتصرف: اعتدل أو اعتزل(٧) ويطلقون ضمائر الحكام من القيود قاطعين بسيف الحق سلاسل الوسائط تضيع بها حقوق الضعفاء.

إن بارقا للأمل يلمع من سماء النهضة، ونافذاً كالقضاء يشق (مصراً) إلى لبنان ليستلم لواء الزعامة خافقاً للظفر، ومصفقاً للفلاح.

ولقد تكون - البرق - الجريدة المعارضة أبداً - في طليعة متطوعي هذه النهضة ويومها بإذن ربك قريب.

البرق،٢٠ أيار ١٩١١، مج: ٣، عدد ١٣٨، ص: ٢٨١ - ٢٨٢

****

للمقابـلة [١]

يظنون، ونحن ننقل لهم تاريخ الثورة، وأقوال كبار الرجال، أننا نقصد التاريخ مجرداً. ولو فطنوا لعلموا أننا نريد من ذلك ما هو أسمى مما هم يظنون.

نريد أن نقف باللبنانيين على الروح التي انبعثت من قلب فرنسا، فكهربت الأمم الأخرى، أو على الشرارة التى طهرت الشعوب عن درء الخمول والانقياد.

نريد أن ننقل لكم أقولاً هي عظمة الشعب متجسمة. بل هي القنابل رمى بها الشعب المستنير عرش الاستعباد، فيدكّه من أسِّه. وما لشعب – لو يعلم أهل لبنان – سوى القوة والحق متكافلين متضامنين، وحيث يكون هذان فهناك كل شيء.

«اذهب وقل لمولاك: إننا قد اجتمعنا في هذا المكان بإرادة الشعب، فلا نخرج منه إلا على رؤوس الأسنة ».

كلمةٌ وجه بها أحد النواب عهدئذٍ، إلى ملك فرنسا، وهناك السلطة المطلقة والقوة الضخمة، والعرش المنيع؛ وهناك أيضاً الشعبُ ومنه السلطة وفيه القوة وله العرش.

وحيث يكون الشعب فهناك الكفة الراجحة، ولا ترجح بغير الحق والقوة.

إن الشعب لواحد أين وجد وكيف سُمِّي. ولكن هو الجهل يسطو عليه الدهاء.

وما الجهل إلا أليف الشعب في الشرق، فهو راسف في قيده حتى ينشق الحجاب عن عينه فيبصر النور.

ولقد قرأت رجال التاريخ، وسمعت كبار رجال الثورة يقولون «لا نخرج إلا على

رؤوس الأسنة» فأرسلت بنظرة إلى المجلس في بيت الدين، وأعدت على ذاكرتي نواب اللبنانيين واحداً واحداً وأنا أقول ...

وإذا لُمتَ هؤلاء الكرام، قالوا لك إن الشعب لا يسند نوابه، كأنهم جهلوا اندفاع بني لبنان، على ظمأهم، إلى رجال الإصلاح؛ أو كأنهم جهلوا أن الشعب هو الأفراد القلائل يضحون بنفوسهم على مذبح الوطنية. فعلام لا يكونون هؤلاء الرجال؟

بشارة الخوري

البرق، ٩ أيار ١٩١١، مج: ٤، عدد: ٢١٥٣، ص:٣٩٧

****

للمقابلة [٢]

لينزل أبناء سوريا، أو ليتنازلوا، فنقف بهم ساعةً في محكمة التاريخ، ولا نعرف أعدل منه حكماً وأنزه منه ضميراً.

قد أسيء إلى قومي إذا أنا جئتهم بنتيجة صارمة، على شدة شغفهم بالإطراء؛ وقد أوجعهم إذا قلت إنهم كالماء الراكد أسنت نفوسهم؛ فما هي تلك الضمائر النقية؟. وما أفلحت بلادٌ رجالاً لها هؤلاء.

أصيبوا بأن ورثوا مجداً موهوماً؛ فهم أبداً يتكلون عليه. وأصيبوا بأن ورثوا حكومة هي الجرادُ، بل أشرُّ، ولا تترك في حقولهم شيئاً أخضر، ولا في جيوبهم شيئاً أصفر ولا أبيض. وقد يقول القارئ إني قصدت حكومة عبدالحميد، فالأمر كما قال.

ورزح بنو قومي تحت أثقالهم، بل جمدوا جموداً هو الموت، بل شر من الموت على حد قول القائل: إنما الميت ميت الأحياء[1]. ولبثوا على جمودهم حاشا قرقعة بعض جرائدهم وشعرائهم، لو صحَّ أن تسمى القرقعة حركةً، والحركةُ التي على هذه الصورة، حياة.

ولقد يبلغ الهوس ببعض حملة أقلامنا، بأن يجردوا، متى استعرت نار الحرب بين دولتنا وأية دولةٍ، فيلقاً جراراً من القصائد ذات الأوتاد والأعاريض مؤلفة (فرقها) من التبجح بمجد الأجداد والقنا المتكسر، والسيوف المواضي، والرصاص المزمزم حتى إن الشاعر ليحسب نفسه خاض المعركة محجَّلاً وعاد غير محجلٍ.

قوة في اللسان نقول معها، مع شكر الله وحمده (القناعة كنز لا يفنى). كأن الأقوال قدمت شيئاً في مصالح الأمم من قبلنا، ولكننا نعمد في مسلكنا هذا، إلى القول المأثور (من فاته اللحم فليشبع من المرق).

إلى هنا وصل بنو قومي ولبثوا جامدين. هبطوا من حالق النباهة إلى حضيض الخمول من غير ما أسف على ما فات.

منذ شهور لو أخذت بيد السوري ووضعته إلى جنب الصيني لأنف أن تنزله هذه المنزلة. بل لعدَّ ذلك منك إهانة. عجباً أَابن ماء السماء إلى جنب واحدٍ من عبيد ابْن السماء؟ وابن سوريا مهبط الوحي ومبعث الأنبياء يقاس برجلٍ ذؤابته المرسلة من رأسه إلى قدمه شعارُ العبودية؟.

مهلاً بني قومي! سار القوم ونحن جامدون. وتحركوا وضمائرنا مبنيةٌ على السكون. فلا عجب إذا نظر إلينا ابنُ الصين اليوم، نظَرَنا إليه في الأمس. إن المرء ابن يومه. ويومه ابن جدِّه؛ وجدُّه هو ما قدمت يداه من صالحٍ لنفسه ولقومه.

إن الصين أصبحت جمهورية!

هنالك قادة الرأي، علموا أن القصائد والأقوال المزوَّقة لا تقيم قائمة إصلاح. هنالك علموا أن الجهل هو العدوُّ اللدود؛ فحاربوه بكتائب العلم. كتائبُ، سلاحها الأدبي مِنْ مدارس أوروبا ومجتمعاتها وصحفها.

أجل. شرعنا – والحمد لله – نُرسل بالبعثات تباعاً دراكاً إلى مواطن العلم الحقيقي. فعسى أن يكون لنا على يد هؤلاء الإخوان أسباب حياةٍ جديدة دعامتاها العدل والتساهل.

للصينيين نَشيد حريتهم، وفيه أمائر الروح الحية، ولنا أناشيد نظمتها العبودية في رقابنا، وما نثرت – يوم نثرت – غير الدمع في المحاجر.

إن يوماً لا نقابل فيه قذائف العدو بقذائف الشعر، هو اليوم الذي تلده لنا ليلة القدر، وما أدراك ما ليلة القدر!

البرق، ٢٧ كانون الثاني ١٩١١، مج: ٤، عدد ١٧١ ص:١٤٦

****

بشرى للبنان

لقد ظمئت نفس لبنان إلى حاكم صالح مصلح حكيم عامل عمومي حساس فظفرت في شخص ذي الدولة، أوهانس قيومجيان باشا[١].

نهض منذ وصوله أو بعد قليلا إلى تحسين خزينة لبنان فخاطب الآستانة بلهجة العثماني المخلص من جهة أنه وكيل السلطان وناضل عن حقوق لبنان من جهة أنه حاكمه وراعيه فصرف معظم لياليه مفكرا كاتبا حاسبا منذرا مستعطفا إلى أن فاز أمس بالأمنية ونعم الأمنية.

لقد وقفت منذ الشهور شركات الريجي والديون العمومية وقفة في وجه الحاكم العزيز لنزعه من أشداقها حقوق لبنان بعد أن استطابته سنين طوالا على عهد حكامه السابقين حتى بلغ من إدارة الديون العمومية أن أرسلت مندوبها فكسر أجران الملح على شواطئ الجبل ولكن أوهانس باشا بختمه مستودعات هذه الإدارة ثأر للبنان منها فشفى بذلك غلاً كمن بين الضلوع.

ولقد كان من نتائج المفاوضات بين الصدارة العظمى[٢] وحاكم لبنان من جهة وبينه وبين شركة ريجي التنباك من جهة ثانية أن وردت على دولته البرقية الآتية خلاصتها:

«نظر في مطالعاتكم السديدة بما يتعلق بمسألة التنباك وحيث كان من المسلم استثناء لبنان من أحكام الحصر «كما ذكرتم» وكان عدم توريده الى الجبل في السابق ناتجا عن عدم وجود أسكلة لبنانية ترسو فيها البواخر كما هو حاصل الآن فقد زال هذا المحظور بفتح اسكلتي جونية والنبي يونس وعليه فيستحسن أن تتفقوا مع شركة الحصر على ما يوافق مصلحة الجبل والشركة وإذا تعذر ذلك فلكم تعيين المقدار اللازم لمقطوعية لبنان وتوريده بطريق الاسكلتين المحررتين مع شدة المحافظة على منع التهريب».

ولم تصل البرقية إلى سراي بعبدا[٣] حتى خفقت القلوب سرورا فنهض مجلس الإدارة وفي طليعته رئيسه المفضال[٤] ودخلوا على الحاكم ليشكروا له بلسان الشعب اللبناني تفانيه في سبيل استرداد حقوق لبنان المهضومة منذ القدم فأجابهم بكلمات خلاصتها:

«إني أشكر لكم ما أظهرتموه لي من صدق شعائر الشعب اللبناني غير أني أعتبر عملي هذا وسائر ما أنا مباشره من الأعمال النافعة من أوجب الواجبات فإذا حق لي أن أسرَّ فبالثقة التي لي عند الحكومة الرئيسية هذه الثقة التي أشعر بمثلها في الرأي العام اللبناني فهي وحدها خير ذريعة أصل بها إلى خدمة الجبل بكل ما فيّ من الميل إليه».

هذا وما اقتصر الانتفاع بتصريح الباب العالي[٥] على التنباك فقط بل تناول كل احتكار في السلطنة بحيث استدر دولة الحاكم لخزينة الجبل لا أقل من ٤٠ ألف ليرة سنويا. ألا فليحيَ الحاكم.

أما وقد انتهت مهمة الحاكم أو كادت مما أخذه على نفسه تجاه الآستانة فقد بقي على المجلس ان يقوم بما عليه من واجبات الوطنية. إن دولة الحاكم لا يهمه إلا أن تكون المصلحة اللبنانية فوق سواها وأن يكون له ما يريد إذا احتكوت الريجي تنباكنا ودخاننا، لما أن هذا الاحتكار يقطع ألوف الأيدي اللبنانية العاملة في معامل لبنان فنكون بذلك قد دفعنا بهم الى الهجرة التي إنما تعمل الحكومة ويكتب الكاتبون إيقافا لتيارها.

أما إذا كان لا بد للحكومة من الاحتكار فأمامها في الوطن ومصر[٦] كثير من ذوي الثروة فعليها أن تحثهم للعمل إذا هم لم يقدموا تخوفا فإنهم إذا تألفت الشركة منهم أشغلوا الأيدي اللبنانية فنفعوا من جهتين.

لقد أخذنا على المجلس سكوته في الماضي فعساه ينطق الآن.

البرق، ٧ شباط ١٩١٤، مج :٦، عدد : ٢٦٢، ص:٥٦٤ – ٥٦٥

****

السـوري المحـارب

لم أشاهد منذ عهد بعيد كفجر أمس فَجْرا،

مرَّت بي فرقة من إخواني السوريين المتجندين تحت الراية الفرنساوية الشريفة.

كان ذلك عند نهر بيروت، الحد الذي يربط الجبل بالمدينة.

جُند سوري في أحسن زي وأحسن صحة، جاء وفي صدره عدا الحنين لبلاده سَوْرة من سَورات الانتقام.

جند سوري يمشي على تراب الوطن المقدس؛ وما الوطنُ سوى الأحبة الذين غادرهم على سطحه، يبتسمُ الجمالُ في ثغورهم وتسطع الطهارة في وجوههم، ويتمشى النشاط في أبدانهم.

جنْدٌ منا ولنا.

قطِع من أكباد الأمهات السوريات، ذكرت العهدَ وقدَّست الواجب. رجعت طيور لبنان إلى أوكارها، والآساد عادت إلى العرين.

إلى أين؟ إلى أين؟

واستمروا في طريقهم لا يَلْوُن على شيء، ولكنَّ صدى أغانيهم الوطنية كانت[1] تصدَع الفؤاد.

دخلوا حدود لبنان، تَسْطع الحرابُ على أكتافهم كما يسطع الدمعُ في عيونهم.

كانوا يُنشدون. واستمرَّ الجُند في سيره.

وكان على جانبي الطريق بعضُ مَنْ غَلِطَ الزمانُ بهم فأبقاهم، ولكنهم كانوا كأخشاب السفينة المحطمة: قطعةٌ عند كلِّ صخر.

أين العذارى يَضفِرن لهم الأكاليل؟

أين الأمهاتُ يَهتِفن لهم بالأغاني؟

أين الشيوخُ يَضُمُّون إلى صدورهم حرَّاس البلاد؟

لا أشبال في العرين، ولا زغاليل في الأوكار، والأزهار التي غادروها ريَّانةً بسامة، لفحتها السموم فذوت، ثم ضربتها الزعزع[٢] فتناثرت.

✲✲✲✲✲

وأطلوا على قرية قريبة هي مَسقطُ رأس أحد الجنود. - وكان الجندي في مقتبل الشباب، غادر في القرية والدين وإخوةً وأقارب وأحبابا.

غادر القرية يجري فيها دم الحياة: النساء يَعملن في البيوت، والرجال في الحقول، والأولاد يملأون الفضاء صياحا.

وأحسَّ الجندي بخفقة عظيمة في قلبه.

تالله قد صدق النبأ.

خاطرٌ مرَّ كلمح البرق في رأسه، ولكنه وعى شيئاً كثيرا.

وعى الأنباء المتوالية عن المصائب التي حلّت: المجاعة وقتلاها والأوباء.

وكأنما كان بين قلبه وقلوب إخوانه، أسلاك كهربائية وحدت بينهم الشعور، كما وحدت بينهم المصائب؛ فوقفوا، وعلى كل وجه، أسطر للكآبة محتها الدموع أو كادت.

وبرز الجندي الشاب عن الصف، ثم قدم الى البيت القائم على كتف الطريق، ولم يكن يحتاج إلى قرع الباب، لأن الباب نزع كمعظم أبواب القرى ونوافذها وسقوفها؛ نُزعت وبيعت لتُمسك في الناس رمق الحياة، ولكنها لم تستطع.

وأسند الجندي رأسه إلى يده، ويده على الجدار وبكى...

لقد فهم كل شيء... لا دَيَّار[٣] في الدار...

وشعر الرفاق بالخطب الذي نزل بالرفيق، فنكسوا سلاحهم احتراما لحزن رفيقهم؛ وبعد أن حيَّوا تلك القرية بل المقبرة، واصلوا المسير.

افتتاحية

البرق، ١٩١٥، عدد: ١٠-٣-٤٠٣، ص: ١

****

الانتقام العادل

لم ننس، والجرح لا يزال طريا، بربرية[١] الألى فتكوا بالشعب فتكتهم الذريعة. بل كيف ننسى وعظام الضحايا البشرية ورفاتهم لا تزال متبعثرة هنا وهناك تذكرنا بالويل الذي كابدت والهول الذي تجرعت.

عشرات الألوف من بني سوريا لم يراع بهم هؤلاء البرابرة رحما ولا ميزوا مذهبا فالسلم الأشعبي[٢] والتكالب على حطام الدنيا.

لقد طفحت حقول الجرائد على اختلاف أديانهم، بمطالبة الحكومة بعقاب هؤلاء المجرمين من جمال السفاح الى أحقر رجل في هذا البلد تعمد قتل الفقير ليملأ كيسه من ماله المنغمس بالدموع والدماء، تعمّد قتل الفقير لسرقة دريهماته التي هي حياته وحياة بنيه وكم كان في هؤلاء البنين كأفراخ القطا لم ينبت عليها الريش.

قلنا وقالت معنا الجرائد بوجوب الانتقام العادل من أولئك الولاة الأتراك – إن الإنسانية لا تخلع الحداد حتى يعاقب قاتلو بنيها والتجأنا والتجأ الجميع من أرامل وأيتام وعجائز وكل ضعيف، التجأ كل هؤلاء الى رحمة الحكومة، إلى رحمة الحلفاء النبلاء الذين حاربوا ليثأروا للعدل المضاع وللضعيف الذي انتزعت روحه من صدره إشباعاً لمطامع الأسافل.

إن شعوب الأمم المتحالفة في أوروبا قررت معاقبة الجناة من الألمان والنمساويين والأتراك، قررت ذلك ونفذت أو كادت قراراتها هذه ولكننا نحن الشعب الضعيف الذي يشكو من بعض أبنائه كما يشكو من الغريب المعادي نريد أن ننتقم فلا تقوى يدنا الضعيفة على الانتقام فنلجأ إلى الحكومة التي تمثل الحلفاء النبلاء ليجعلوا لنا ما

جعلوا لأنفسهم من حقوق الانتقام من أعداء الإنسانية انتقاما مبنياً على عدالة القانون وعدالة الوجدان.

كنا ولا نزال نعجب بصحة وجدان سعيد أفندي زين الدين مدعي عمومي الاستئناف. إنه الرجل الذي برهن في كل أدواره على الجرأة الأدبية والوجدان الحي فإننا نطلب إليه بلسان من نكب من بني قومنا، بلسان الذين تجرعوا الموت غصصا، بلسان الذين أكلوا الجيف وأكلوا أبناءهم، نسألهم بلسان هؤلاء أن يتجرد لمعاقبة القتلة ومن ساعد على القتل من غير ما مراعاة في المذاهب – داء البعض من أبناء هذه الأمة الشقية.

ليضرب المسيحي المرتكب والمسلم المرتكب بسيف القانون الذي يموت على حده نفوذ المتنفذين وعواطف المنتفعين من أية طائفة كانوا.

إن حكومة اليوم غير حكومة الأمس، هي قوية فلا تبالي في سبيل خدمة الإنسانية بعوارض الأشياء.

إن اليوم الأعظم بل الموسم الأكبر بل المهرجان الفريد هو ذلك اليوم الذي يساق به جمال وطغمة جمال، يساقون أذلاء بعصا القانون والعدل ويحاكمون ومن كان لهم يد على قتل أبناء سوريا وما ذلك اليوم على حكومة اليوم بكثير ولا موعده كما اتصل بنا ببعيد.

البرق، ١٩١٩، عدد: ٤٤–٤٣٧، ص:١٧٤

****

أثر الأقدام

تبارك الله! كيف استحال القصر جنة أزهارها العيون والمباسم، وأغصانها القدود تتراوح بين الهوى والهواء.

هي ليلة في إحدى قصور بيروت، ليلة راقصة، وما أولع قصورنا بأمثال هذه الليالي - هكذا كانت على عهد الترك، وهكذا هي على عهد الفرنسيس، وهكذا ستبقى إلى أن يرث الأرض وارثوها.

وكانت الحفلة متنوعة بين شرب ورقص، وربة البيت بين السيدات كالبدر بين الكواكب، وفي الحضور كان بعض الضباط الفرنسيس دعوا فما رأوا جميلاً أن يرفضوا.

قامت حرسها الله تدعو ضابطا إلى الرقص وساءها أن رفض على ما هو مشهور من خضوع أبناء السين لحكمهن في الجور والعدل.

- علام ترفض الرقص يا سيدي وإنما أحيينا هذه الليلة إكراما لكم.

(وكانت عينا الضابط لا تبرحان البساط)

- عفواً يا سيدتي.

(واستمرت عيناه في البساط)

- نعم إني كثيرالخجل يا سيدتي.

- ولماذا؟

- لأني... لأني... أرى...

– وماذا ترى؟

– انظري «وأشار إلى البساط» ألا ترين آثار أقدام جمال باشا وضباطه عليه؟

– وجاء صباح اليوم الثاني وقد نشرت البسط على مماشي ذلك القصر وسطحه.

أإذا نظفوا البساط فهل نظفوا أنفسهم؟!..

ملاحظ

بشارة عبدالله الخوري

البرق ، ١٩١٩، عدد: ٩٤–٥٠٥، ص: ١

****

حول مجيء عزمي[1]

هول الليالي الخوالي.. هل رن في أذنيك

سوف لا يذكر التاريخ صفحةً أوجع للمروءة الوطنية، وأنفذ في قلب بيروت من موقف صحافتها وأغنيائها عند مجيء عزمي بك الوالي التركي الرهيب!

لم نكن لنعلم أن يخطر لعزمي بك أن يزور بيروت وهي لا تزال حفلى بذكريات المشانق سالت على حبالها أرواح إخواننا طاهرةً بريئة؛ يقينٌ أن في هذه النفوس بقية ذكرى لا تلبث أن يثور بركانها متى هي تمثَّلت أحبابها معلَّقين لا لذنبٍ إلا لأنهم كانوا في طليعة شباب الوطن إقداماً وإخلاصاً ووطنية.

ولكن عزمي بك جاء... وجاء يحمل إلينا تلك الذكرى الأليمة، فإذا بعضنا من صحافيين ومثرين يطوي تلك الذكرى ويأخذ بتعداد محاسن الرجل ويتسابق إلى الحفاوة به وهو لو نظر إلى أي بقعة في سماء بيروت، لحدجَته عيونُ الشهداء تترقرق فيها الدموع ملامةً وأسفاً.

لسنا في مقام محاكمة الرجل، أهو بريء في نفسه، أو غير بريء مما جناه الاتحاديون علينا. لكنه كرجل يجُرُّ وراءه ذيول ذلك العهد، عهد الإرهاب والإبعاد والقتل والتجويع؛ فقد كان علينا – حتى على اعتقاد براءته – أن نقف خاشعين للنكبة، موجعين للتذكار، فتصدر صحفُنا أجمع على إحدى زواياها إطار أسود:

احتراماً وإنعاشاً لعظام شهداء الأمة

ولو فعلنا ذلك من غير أن نقول كلمة في الرجل، ومن غير أن نتجاوز عليه كضيفٍ، لكان أول من احترمنا، ولكان الافرنسيون الذين يعدُّون علينا أنفاسنا ليعرفوا مبلغ تربيتنا السياسية ودعوانا الوطنية، يعترفون لنا بأننا أمة لها مزيَّة الأمم الحية التي إذا ألَمَّت بها ذكرى أو جرحت لها كرامة توحد شعورها إزاء الذكرى، واتحدت أيديها ذيادا عن الكرامة المجروحة.

ويأبى العدل علينا، أن ننكر على مجموع الأمة، شعورها الصادق ووطنيتها البريئة. وما[٢] هؤلاء الذين راحوا يشربون نخب عزمي فوق عظام الراقدين في «الرمل» فقدماً لم تخل منهم أمة، إلا عاراً.

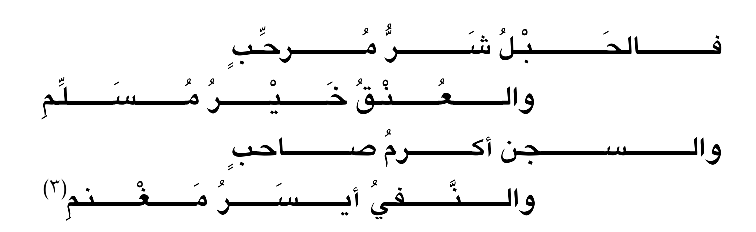
وإلى الذين نسوا تلك الخطوب المدلهمة، والمجازر الخرساء، نعيد نشر بعض الكلمة التي افتتحنا بها «البرق» بعد انحجابه طيلة مظالم الحرب وهي هذه:

«حنَّ اليراعُ إليكا
فابسُطْ له راحَتَيْكا
يا برقُ لا كان يومٌ
ألقى الحجابَ عليكا
هَوْلُ الليالي الخوالي
قد رَنَّ في أُذنيكا
ولم تَزَلْ تَتَمَشَّى
الأشباحُ في ناظِريكا
قالوا قضَيتَ فسالتْ
حُمْرُ الدموع عليكا
أجلْ وهذا رشَاشٌ
منه على بُرْديكا
عُدْنا أنا ويراعي
قُمْ واعتنق أخَوْيكا»

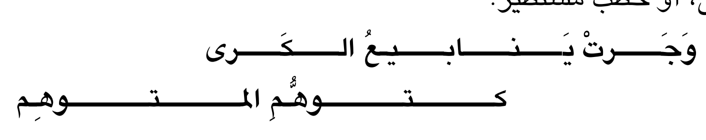
من أي ليل إلى أيِّ ضياء، بل مع أي قفص إلى أيِّ قضاء، خَرجَت هذه النفوسُ بعد أنْ رَسَفَتْ طويلا طويلاً في سلاسل البؤس والعناء؟

ليالي لم تَقَعْ على مثلها عيونُ البواكي، ومَجازِرُ لم يَرْوِ المؤرخ لها مثيلا، ومظالمُ تَركَتْ ظلم نيرون في جنبها قليلا، ومحَتْ مساويَ أتيلا، وصيَّرتها شيئا جميلاً، كانوا:

لا يسألونك إنْ قُبِضْ
تَ أَثِمتَ أم لم تَأْثَمِ



ونشر الإرهاب رايته، فكنتَ تتخيل كلَّ شبحٍ جنديا مطارداً، وكل كتابة حُكماً بالإعدام مُبرماً، حتى قلقت المضاجعُ بالناس فلا تتذوق عيونُها الكرى إلا غراراً، خيفة شرّ يفاجئ، أو خطب مستطير.



البرق، ١٤ آذار ١٩٢٧، عدد: ٢٧٤٩، ص:١

****

جمعية الإنسان الوحش

(مؤتمر مؤلف من ذئب وخنزير وثعلب وكلب)

- عن برق ٣ تشرين الثاني ١٩١٨ -

لتطمئنَّ الجثث في قبورها، ولترجع الأرواح إلى عزلتها، لأن العدل آخذٌ مجراه.

عجباً للمقابر وهي مقرُّ السكينة، أصبحت مقر الضوضاء، فمن حفيف الأرواح إلى قضقضة العظام والأقحاف[١].

عجباً للمقابر وهي هيكل القدس، ومرقد الحق، تصبح للدنس مقاما، وللرياء جلبابا.

مَنْ هؤلاء الأشباح الذين يقلقون هدوء ذلك الليل، ويلطخون بأنفاسهم الفاسدة، نسيماته النقيَّة. وماذا تراهم يريدون من هذه المدينة الساكنة في هذا الليل الساكن؟...

وكان في وسط المقبرة ضريح مرتفع من بلاط مصقول، وعلى ذلك البلاط رُفعت أربعة كراسي جلس عليها أربعة رجال.

وكان في الوسط طاولة عليها أربع جماجم مفرغة، ولكنها مترعة من الدم.

وساد فجأة سكون عميق كالسكون الذي يخيم عادة في منازل الأموات.

وكان القمر يبرز من وراء جبال لبنان، فاستضاء به المكان فكشف عن وجوه الرجال الأربعة؛ فإذا على تلك الجثث رؤوسٌ ترتعش لها المفاصل - رؤوس حيوانات على هياكل بشرية.

ولم يكد يظهر القمر بتمامه من وراء الجبل، حتى تنحنح كبير المجلس، وكان بين كتفيه رأس ذئب، وبعد أن فتح فكيه متثائبا، أخذ الجمجمة التي أمامه بيده وقال:

«إن جمعية الإنسان الوحش» التي لي الشرف أن أترأسها، مندوباً عن جمعية «الاتحاد والترقي»[٢] قد أنجزت والحمد لإبليس، مهمَّتها تماما وكمالا».

«إننا قد أخذنا على عاتقنا تمزيق البلاد وقد نجحنا، وإهلاك العباد وقد نجحنا. وهما كما تعلمون الأُسَّان اللذان ينبت عليهما مقاصد جمعيتنا الكريمة».

«لقد ضمَّتْ جمعيتُنا هذه أهم أعضاء الهيئة البشرية. وقد أخذ كل عضو منها على عاتقه، أن يبُثَّ روحَه الخبيثة في نفوس زملائه لتتعزَّز بهم قوة الجمعية، وتستعين بهذه القوة على إنجاز مقاصدها».

«وقد اجتمعنا بعد أن خرجنا من هذا المعترك ظافرين، ليُقدِّم كلُّ مندوبٍ منَّا بياناً وجيزاً عن أعماله».

«أما «الاتحاد والترقي» التي أتشرف بأن أكون مندوبها، فقد أنجزت مهمتها بكل نشاط فهي بملء الفخر، تصرح أنها هي التي مسحتْ بإصبعها عن الخارطة لون السيادة التركية».

«فلنشرب على سر الاتحاد والترقي».

ووقف [الأربعة][٣] وشربوا نهلةً من تلك الجماجم، ثم جلسوا وهم يمسحون قطرات الدماء عن أشفارهم الغليظة.

وأخذ الثاني وهو مَنْ – يحملُ بين كتفيه رأس خنزير – الجمجمة بيده وقال:

«إنَّ ما رأيتم وترون من أهوال المجاعة وضحايا المجاعة، يرجع به الفخر إلينا.

لقد خزنَّا الحنطة وسائر أنواع الحبوب، وتركنا الناس يحلمون بالرغيف ولا يرونه.

تركنا الصبية الصغار يقطعون قلوب الأمهات ببكائهم، والأمهات يقطعن قلوب الرجال. وتركنا الموت يقطع قلوب الجميع.

لقد حكمنا على الإنسان الضعيف بالموت، وأنفذنا حكمنا فيه. فكنت تراهم منطرحين في الشوارع جُثثاً هوامد».

«لقد نزعنا منه دريهماته ثم أراضيه، ثم أخشاب بيته، ثم ثيابه ثم روحه».

«لقد احتكرنا كل شيء، ولقد كنا نحتكر الماء والهواء لو وجدنا إليهما سبيلا».

«أجل! لقد كان لنا مِنْ علي منيف[٤] وعزمي[٥]، عَضُدان قويان لتنفيذ غايتنا السافلة: ذاك باحتكاراته المتنوعة تحت الأسماء المتنوعة، وهذا بشركاته الخفية مع أهم أعضاء جمعيتنا البيروتية».

«وحسبُنا فخراً أننا قتلنا لا أقل من مائة وسبعين ألف نسمةٍ من أهل لبنان، ولا أقل من خمسين ألفاً من بيروت، قتلناهم بعد أن سلبناهم، ثم بنينا على جماجمهم قصور ثرواتنا الطائلة».

«فلنشرب على سر المحتكرين – وحالاً وقف الجميع وأخذوا نهلة من تلك الجماجم وهم يقولون: لنشرب على سر المحتكرين»!.

ثم وقف من يحمل على كتفه رأس ثعلب فأخذ الجمجمة بيده وقال:

«لقد فخر كل من سيدي الذئب والخنزير، بأعمالهما الفظيعة التي ملأت الأسماع والأبصار، فخراً بهذه الأعمال بعد أن جعلاها هدفاً لسهام العدى، وعرَّضاها بإعلانها لأسنة الملام غير أننا معاشر الثعالب جئنا من الأعمال ما هو أدهش وأفظع. فالمشانق التي نصبت، والعائلات التي أبعدت كانت نتيجة أعمالنا الخفية؛ ولا يخفى ما تهدم بذلك من البيوت وتشتت من العائلات».

«لقد فعلنا ما فعلناه مستعينين بالكتمان فدفعنا بذلك عن أشخاصنا أسنة اللوم ونجونا من العقاب إذا كان ثمت من عقاب».

«ولقد كانت وظفيتنا أيضاً، العمل على تلطيخ العفاف في العقائل والأوانس، فبذلنا في ذلك السبيل فوق ما بذله بعض المحتكرين تزلّفاً إلى الحاكم ببذل ما عزَّ من الشرف والمروءة».

«فلنشرب على سرِّ الجاسوسية والجواسيس والقيادة والقوَّادين»!.

ووقف الرجال الأربعة ووغلوا[٦] وغلة في الجماجم التي بأيديهم يقولون: لِنَشرب على سر الجاسوسية والجواسيس والقادة والقوَّادين!.

وأخيرا وقف رأس الكلب بعد أن قبض على الجمجمة بكلتا يديه وقال:

«من المعلوم أن لكل هيئةٍ رسمية سجلاً تُكتب فيه أعمالها ويُخلَّد فيه تاريخُها. ولمَّا كانت أعمالكُم يا سادتي تحتاج إلى تدوين، ومبادئكم إلى تعميم وتلوين، وولائمكم إلى تشهير، فقد أخذت وزملائي هذه المهمة على عواتقنا، وجاهدنا فيها جهاد الأبطال فكنا إذا عقدت شركة احتكارية نقول:

«لقد اهتم بعض أفاضل الثغر بإنزال أسعار الحنطة رحمةً بالفقير».

«فمن هنا يا سادتي تعلمون عظم مسؤوليتنا (وشرف) مهمتنا. ولا إخالكم إلا شاربين معنا على سر الألسنة المخلصة والأقلام المخلصة».

ووقفوا جميعاً وقالوا، بعد أن أفرغوا بقية الدم من كؤوسهم: لنشرب على سر الألسنة المخلصة والأقلام المخلصة.

وكانت غيمة كثيفة قد حجبت وجه القمر، عندما أعلن الرئيس ختام الجلسة، فنزلوا عن الضريح وقد تأبط كل منهم الجمجمة بكل الكأس التي سكر بها في تلك الليلة.

وحجبت الظلمة أشباحهم، فلم يكن يُسمَع سوى قضقضة العظام تحت أرجلهم – عظام قتلى الجوع والخيانة.

البرق، ١٦ آذار ١٩٢٧، عدد: ٢٧٥١، ص:١

****

ثانياً : عهد الانتداب

ابيض

لماذا نريد حكومة لا دينية

الطائفية سبب انحطاطنا- مثلا روسيا واسبانيا - ماذا نحاذر وماذا نريد؟

قبل أن أقول كلمة في ما أنا قائل اليوم، أرغب إلى القارئ أن يعلم علماً يقيناً أني أحترم كل دين وليس في سوريا، والحمد لله، دين لا يأمر بطاعة الله.

أحترم الأديان، وأثق بالمتدينين فوق وثوقي بالجَدَة، لأن الدين هو أساس كل فضيلة.

ولكني ! ولكني إذا علمت أن الدين - مع احترامي الفائق للدين - يحاول أن يندغم بالسياسة فيتألف منهما حكومة عالمية: حكومة دينية زمنية وقفتُ إذ ذاك موقف الخائف الوجل على حكومة أتصور شعبها يرجع القهقرى حينا، وتتفجر براكين تعصبه حيناً، ويكون مصيره إلى الأغلال التي لا تزال آثارها في عنقه.

أخاف ويحق لي أن أخاف، من شعبٍ رضع التعصب حتى جف ثدي التعصب، أخاف منه وعليه إذا وُضعت على رأسه حكومة لا يمكن، على ما قرأت وسمعت واختبرت، إلا أن تكون دينية؛ حكومة في بلد تنوعت مذاهبه، وسجل التاريخ على أهله أسطراً لم يجف حبرها بعد.

قد يقال: لماذا يخشى هذا المتطرف مثل هذه الحكومة؟

هنالك أسباب أهمها: أني أريد التقدم للبلاد التي أنا منها ولا يمكن التقدم إلا إذا تجرد الدين عن الحكومة، وحلّت الجنسية الوطنية محل الجنسية الدينية.

وتريدون مثلا؟

هذه روسيا، وكان قيصرها جامعاً بين السلطتين الدينية والمدنية - أفلا تعجبون من رُقيِّ روسيا؟!

وهذه إسبانيا، ولا تزال السلطة الدينية مسيطرةً فيها، وكانت والتاريخ أصدق

شاهد، لا تغيب الشمس عن ممالكها في العالَمَين القديم والحديث، وهي اليوم لا تعد في الدول العظمى لأسباب هي التي أنا أخشاها.

تشهد صفحات هذه الجريدة على محاربتي كل ما هو طائفي في البلاد، على أمل أن أرى أبناء هذه البقعة، كأبناء البلاد الأخرى، لا ينتسبون إذا نسبوا إلا إلى وطنهم.

إن الطائفية في لبنان وسوريا، هي التي فرَّقت أهله أشتاتاً، وهي التي حكمت عليهم بالضعف. فمن أجل ذلك حاربناها؛ وكذلك كان شأن الفرق المذهبية الأخرى، وانقسامها بعضها على بعض، بحيث تلاشت قواها وطمع بها الطامعون.

من أجل ذلك، من أجل أن لا نعيد على مسرح الحياة تمثيل الأدوار السالفة، ومن أجل أن لا يكون للدين دخل ولا شبه دخلٍ في الحكومة الرفيعة المستقلة التي ننشدها، نطلب أن تكون هذه الحكومة جمهوريةً ديموقراطيةً مفصولة فيها السياسة عن الدين.

قرأت في إحدى (الرصيفات) – هي في نظري أرقى الجرائد من نوعها – لكاتبٍ هو في نظري من أرقى الكتَّاب في نوعه، مقالاً عربياً دينيا سياسيا، أَيْقَنْتُ بعده استحالة انفصال الحكومة العربية عن الدين.

لم يكن ذلك المقالُ يَخلق فيَّ هذا الاعتقاد، ولكنه أيَّده وثبَّت دعائمه. فأنا بعد اليوم، أُحاذر هذه الحكومة على شدة حُبِّي لها، وعلى ما أحفظُ لها من التذكار الجميل في نفسي ومن الاحترام الذي ما بعده احترام.

ولكنني مع ذلك، أتمنى وأطالب بحكومة وطنية لغتُها العربية – بحكومة مستقلة – بضمانة ومساعدة أمةٍ لها من شرفها وسابق مجدها ما نأمل معه إخلاصها وصدق نيَّتها – وذلك إلى أن ننشأ وطنيين لا نُدخل الدين في شؤوننا الزمنية والسياسية، كما هو شأننا بين الأمس واليوم.

افتتاحية

البرق، ١٩١٨، عدد: ٣١-٤٢٤، ص: ١

****

بين عام وعام

– العام الجديد يلوّن خارطة العالم – الأمل برجال المؤتمر – برهان الدول على الإخلاص

الورقة التي سقطت أمس من شجرة الدهر، هي ورقة السنون[1] الأربع التي حملت مصائب العالم وويلاته.

تاريخٌ حبِره من الدمع والدم، وأوراقه الصدور الخافقة الضئيلة التي لم تُبْق منها العواصف سوى ما تبقي من ورقة الخريف، مادةٌ ولا روح، ولَونٌ كلون سكان القبور، وخَفوقٌ كالرداء المنتشر في مَهبِّ الأرياح.

سنونٌ أربعٌ هي في نظر البشر سَنَةٌ واحدة،

وحَّدت بين الدموع والمُقل، والمخاوف والقلوب، والطَّوى والبطون.

ليلة واحدة ولكنها طويلة!. طويلة حتى قيل إنها الأبدية.

فغرت الأرض فمها وابتلعت الضعفاء في سوريا، وابتلعت حتى الأقوياء في غيرها – تلك كانت السنة التي فاض نفسها الأخير على عتبة الأمس.

واليوم – مطلع عام ١٩١٩ – يحمل باليد الواحدة الكرة الأرضية، وباليد الثانية ريشةً حقيرة الشكل، جليلة الخطر، وأمامه المحابر من كل لون.

إنه يشرع بتخطيط خارطة العالم.

إذا كان في الأرض أمة ضعيفة فنحن تلك الأمة. لا سيفنا قاطع ولا بارودنا حام؛ ويا ليت ذلك كان وحده علة الضعف فينا!

فلقد أنهكت جسمنا الضئيل أمراضه. وهل كان الجهل والرِّقُّ والانقسام والتعصب، سوى أمراضٍ ضاعت بها حيلة الحكيم؟.

✡✡✡✡✡

العام الجديد! ولا ننكر عليه يده البيضاء. إنه أقبل والأمل لامع في نظره، والحنان خافق في قلبه، والأمانيُّ أمانيُّ الشعوب الضعيفة، أمانينا نحن أبناء لبنان، وأبناء سوريا، سوف لا نَعدم منه نصيرا.

أجل! أقبل العام الجديد فحيَّته الثغور الباسمة، والعيون اللامعة، وكان يُقبل فلا يُرى سوى ما يُقذي العيون ويصدع القلوب.

إنها يد للعناية علينا، يد للحكومة الحاضرة، مَن كفر بها كان من الآثمين.

فيا شمس هذا العام! إذا جئت باريس حيث تُقسم الحظوظ في الناس، فخبِّريهم أن في سوريا، بقعة جارت عليها الطبيعة، وجار عليها البشر، فلم يبق منها سوى عظام قتلى الجوع، وتربةٍ كتلك العظام؛ كانت تدَّر اللبن والعسل، وتُنبت سهولها السنابلَ كالذهب، فما زال بها الطمع السياسيُّ والتعصب الدينيُّ، حتى اقتطع منها سُهولها واغتصبها مرافئها؛ فهي ضحية الأتراك منذ كانوا – هي لبنان!...

يا شمس هذ العام! إذا ما جلس الرئيس ويلسن «الانسانية المجسمة» مجلس الحكم في مصير الشعوب، فابعثي إلى قلبه من أشعتك، رسولاً يقول له إن لبنان شهيد هذه الحرب من كل سوريا، له عندك شفيع مشفع، أبناؤه الألى حاربوا تحت راية أمتك الكريمة، أبناؤه – شيوخا وشبانا وأطفالا – الذين شملتهم عناية أميركا الحرة، فدرجوا على أديمها، ونشقوا هواءها، وشربوا ماءها، وأكلوا ثمارها – الألى ضم ترابها أجساد الكثيرين منهم، هؤلاء شفيع هذا الجبل الأجرد إليك – هذا الجبل الذي مازالت عيونه تبكي سهوله المغتصبة وثغوره المغتصبة.

يا شمس هذا العام! قولي «له» و «لهم» ولكل قلب نبيل يضمه مؤتمر الصلح. إن أهل سوريا لا يعرفون وطنيةً، سوى الدين – نشأوا مذاهب ونحلاً – تعوَّد قويّهم أن يسود ضعيفهم، وجاهلهم أن يسود نبيههم، يريدون أن ينهضوا ولكنهم لا يقدرون؛ ويحاولون أن يتقدموا فتجذبهم إلى الوراء سلاسل التقاليد التي ربطت حاضرهم بماضيهم ربطاً محكما.

أذلَّهُم الأتراك عصورا، وشنعوا بهم طيلة هذه السنين الأربع، وهم يمضغون الضيم مضغاً، وإنما، إنما صبر المجموع السوري على الضيم، لأن الأتراك عرفوا كيف يصطادون هذه القلوب التي هي أشبه الأشياء بالسمك السابح في بحر التعصب؛ قلوب جميع الطوائف السورية، ما خلا الفئات المتعلمة من هذه الطوائف وما أعجز هذه الفئات!

إن الأمم التي حاربت مخلصة، الأمم التي يمثلها لويد جورج وكليمانصو وويلسن[٢]، الأمم العظيمة التي حملت النور والسلام للعالم، سوف تجعل من شمس هذا العالم بشيراً لهذه البلاد بالحياة، وبما تشتمل عليه الحياة من العلم والتساهل والإخاء والوطنية.

إن الدول العظمى، باختيارها فرنسا الشريفة لتكون معلماً وقائداً لنا في حياتنا الاجتماعية هذه، قدمت برهانا جديداً على أنها حاربت في سبيل سلام العالم، في سبيل العلم والرقي والمدنية.

مرحبا بالعام الجديد، ففي أشعته حرارة الأمل وإيمانه، ولا معنى للحياة بدون الأمل.

افتتاحية

البرق، ١٩١٩، عدد: ٣٨-٤٣١، ص: ١

****

المهاجرون والمقيمون

حسناتهم وسيئاتهم - أيهم أحق باختيار مستقبل البلاد - الوسط هناك والوسط هنا

أما وقد انفتح البحر ومشى بيننا البريد، فعلموا وعلمنا حقيقة ما فعلوا وفعلنا، وقرأوا وقرأنا حقيقة ما كتبوا وكتبنا، تحمل ذلك إلينا وإليهم صحفهم وصحفنا، رسائلهم ورسائلنا - أما وقد انكشف لنا كل ذلك، قد أصبح من السهل أن نقول كلمة في موضوع تناولته أقلام بعض أفاضلهم هناك، ألا وهو تنازع الحكم على مستقبل البلاد - بلادهم وبلادنا : سوريا ولبنان.

تنازعوا في أيٍّ من الفريقين المهاجرين أو المقيمين، له الحق أو له الأفضلية باختيار شكل الحكومة الداخلية واختيار الوصي، إذا كان لا بد من وصي.

قال بعضهم: إن المتخلفين[1] هم أحق باختيار شكل الحكومة، وتسمية الوصي، لِما كابدوا في هذه الحرب من الشدائد ولما تجرعوا من الأهوال، ولما حصد منهم مِنجلُ الجوع، ولما أنهم أعلم بروح البلاد من إخوانهم وراء البحار.

وقال البعض الآخر: إن المهاجرين هم أحق باختيار شكل الحكومة وتسمية الوصي، لما أنهم ركبوا الأهوال في سبيل جمع المال، ليرسلوه إلى المتخلفين الذين إنما هم عيالٌ عليهم، وأن الوطن السوري واللبناني لم يزدهر بالعمران إلا بمال المهاجرين من جهة وبما نقلوه إليه من روح الديموقراطية والمعارف من جهة ثانية.

قال الفريقان ذلك، ووقفا عند هذا الحد؛ فإذا جاز لنا أن يكون لنا رأي في الجماعة قلناه.

إن الذين ذهبوا ضحية المشانق وضحية الجوع - إن هؤلاء هم حجة على المتخلفين لا حجة لهم.

نحن نعلم أنه لو ثارت ثائرة أو بدرت بادرة من المتخلفين عند شنق القافلة الأولى[٢]، لوقف جمال عند حده، أو لشعر على الأقل مع جماعته الأتراك، بوجوب تعديل سياسة الإرهاب.

ولكن المتخلفين، وخصوصا المطالبين منهم بحق الاختيار، الواقفين على رؤوس الفرق السياسية، كانوا – ولا خجل – يصادقون، بما يُولِمون وبما يتظاهرون، على أعمال السفاح، وهي سيئة في كفة المتخلفين من حيث حسبوا وحسب غيرهم أنها حسنة.

أما قتلى الجوع، فكلنا نعلم أن المتخلفين، وخصوصاً زعماء الفرق ودعاة الوطنية اليوم، هم الذين كانوا يداً أثيمة على قتل هذه الألوف المؤلفة من إخوانهم، بما رفعوا من أسعار واحتكروا مِنْ أقوات وأدانوا من ربا ما فوقه ربا، وهي سيئة بل جريمة في كفة المتخلفين من حيث حسبوا وحسب غيرهم أنها حسنة.

لقد كان الحق بالاختيار للأُلى شنُقوا والأُلى قتلهم الجوع.. أما وقد أصبح هؤلاء في عالم العدم، وأصبح معظم الذين لا يزالون في قيد الحياة يتنعمون بما اغتصبوه منهم، فأيُّ حقٍّ لهؤلاء إلا إذا كانوا قد أخذوا منهم قبل أن أجهزوا عليهم، وكالةً شرعيةً باختيار مستقبل البلاد وشكلِ حكومة البلاد.

إن تجار المتخلفين، ما خلا العدد القليل منهم، جَنَوا على البلاد بما أرهقوا أبناءها، بينما كان تجار المهاجرين يتسابقون إلى إمداد أهلهم في الموطن بالمال، على ما هنالك من الخسائر الباهظة في تبديل الورق بالذهب.

إن صحافة المتخلفين كانت بلا استثناء، تُهلل وترحب وتحبذ بقوافل المشانيق، وتنشط جماعة المحتكرين في مواقف كان يمكنها فيها السكوت، بينما كانت صحف المهاجرين، في جميع مواقفها، دموعاً وأنيناً واحتجاجاً على مصير الوطن وإرهاق أبناء الوطن.

إن شعراء وأدباء المتخلفين، ما خلا القليل القليل، كانوا يصنعون من القصبة

مزمارا ينشدون عليه مدائح العتاة وينسجون من أشعارهم كفوفا حريرية بيضاء، يحجبون بها يدهم المنغمسة بدماء إخوانهم – بينما كان أدباء وشعراء المهاجرين، يصنعون من اليراع قيثاراً يوقعون عليه باكيات المراثي.

إن من المتخلفين من اتخذ الوشاية والسفالة، آلةً لإبعاد إخوانه، والقضاء عليهم؛ فضلاً عن أن البوليس الوطني، والجندرمة الوطنية في سوريا ولبنان، كانا آلة للانتقام والإرهاب والإعدام، كما هو مأثور ومعروف، بينما كان المهاجرون يتطوعون أفواجا أفواجا، ويُعرِّضون صدورهم لحراب العدى دفاعا عن المقيمين، وقياماً بالواجب الوطني الذي دنَّسه أكثرنا بأعماله.

أما القول بأن المتخلفين أعلم بروح البلاد من المهاجرين، فهو قول صواب، ولكن ما هو هذا الروح في البلاد؟

أهو الروح الذي نطالعه خلال السطور ونجسُّه خلال الصدور؟

أهو هذا روح التعصب الذي أصبح المتعلم لا يستنكف في سبيله من أن يُولِّي عليه أو يربط نفسه برجلٍ أو بيئةٍ هي دونه بمراحل، علماً ومدنيةً ورقياً – إذا كان مسلما – أو أن يقيم على رأسه راهباً قد لا يكون يُحسن القراءة – إذا كان مسيحيا؟ أقول هذا ولا أعمم، لأن فينا من هناك ومن هنا، فئةً هي فوق كل هذه السفاسف، ولكنها في العدد دون سائر المجموع.

هذا ذنب الوسط الذي نعيش فيه، وهو على عكس الوسط الذي يعيش فيه المهاجرون؛ والإنسان ابن وسطه كما يُقال.

لا جدال في أن الوسط الذي يعيش فيه إخواننا في كل المهاجر، هو أرقى من وسطنا – فهم بما تشربوا من رقي ذلك الوسط، أحق من المتخلفين باختيار شكل الحكومة. هذا إذا كان مؤتمر الصلح – إذا كان ويلسن ولويد جورج وكليمانصو –

مُثلثُ مؤتمر الصلح - يريدون أن يجعلوا الاختيار بحسب الرقي لا سواه.

إن فئة كبيرةً من كل طوائف سوريا، هي في كفة الرقيِّ - في الكفة التي تقول بإسناد الاختيار إلى المتعلمين والمتشربين الروح الديموقراطي، لأننا نريد أن نسير إلى الأمام، وأن نسير على النور - وأن لا نعاكس تيار المدنية الجارف لئلا نداس تحت الأقدام.

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩١٩، عدد: ٥٥-٤٤٨، ص:١

****

أرميه بورقة فيرميني بحجر

.... عذيرك من خليلك ....

لقد زال معظم الخلاف فعَلام نجرُّه بقرنيه؟

وكان من نعم الله علينا، أن طوينا شقةً واسعة إلى حُسن التفهم، فكيف نعود إلى أول الطريق؟!

لقد ذلَّلنا نحن وبعض الرصفاء[1] كل عثرة! وحرقنا أنانيتنا بقدر الاستطاعة على هيكل المصلحة العمومية!

تلك صفحاتُنا شهودٌ على أعمالنا، وتلك مناظراتُنا تُؤيد ما ندعيه!لم نسلم من الخطأ أحيانا، وحسبنا أن لا ندّعي العصمة.

وأعظم خطيئاتنا هي التي ركبنا لها الحدّة، وأعظم منها هي التي ركبنا لها التحامل. وأعظم منها هي التي ركبنا لها الحطّ من كرامة الآخرين؛ على أننا لم نرتكب كل هذا، ولكننا نعترف به لنمحوه.

والآن، وقد أزلنا من طريق التفاهم، عثراتٍ كبيرةً، والآن وقد انطوت كل قضية اختلفنا عليها – لم يبق أمامنا سوى لفظتين معناهما واحد: الوحدة والتجزئة: وحدة سوريا، واستقلال لبنان.

إن لكل من الفريقين رأياً، على الآخر احترامه! فكما نحن نحترم القائلين بالوحدة السورية، ولا نرى بدعة في طلبهم، كذلك نرجو من هؤلاء الإخوان أن يعاملونا – منَّةً وكرماً – نفس المعاملة ولا نطلب مزيدا.

– ما هو المقصود بالجدل؟

- الوصول إلى الحقيقة.

الجواب صحيح. ولكن كيف نصل إلى الحقيقة، ونحن نجعل لها من مهاتراتنا أكفاناً؟

لقد شاء - الميت الحيُّ - أحد الذين يكتبون في رصيفتنا «الحقيقة»[٢] أن ينتقد قرار مجلس إدارة لبنان، القائل باستقلاله عن بقية القطعة السورية - وله حقه في ذلك، لأن الكلام مباح ولأننا نطلب لأنفسنا حياةً ديموقراطية. غير أنه أخطأ بأن ألبس نقده ثوباً من التحامل ليس الآن محله.

لا نكران أنه إذا حق لفردٍ أو لأفراد أن يتكلموا في مصلحة البلاد، فمجلس إدارة الجبل أولى بذلك الحق.

وإذا كنا نرغب إلى المنشئين والصحافيين، أن يحترموا بعضهم عندما يتناظرون في المسائل الوطنية، وهم يُحسبون من عائلة واحدة، فكم يجب أن نرغب اليوم، إليهم في احترام الآخرين، ولا سيما إذا كانوا من ممثلي جماعات الوطنيين على اختلاف مذاهبهم.

إن بحثنا هذا الآن، هو في نظرنا أهم وأفيد من تبيين حقوق لبنان، وقد مُلئت بها الحقول والصحف أربع سنواتٍ بأسرها - هذه الحقوق التي لا نظن الكاتب يستطيع إنقاصها، كما أننا لا نستطيع زيادتها مهما حاول وحاولنا أن ينقص وأن نزيد.

نحن نعلم أنه مهما بلغت مسافة الخلف بيننا، فإننا سنلتقي في نقطة واحدة. أفيجوز أن نلتقي - متى التقينا - وقد هشم أحدنا الآخر، وملأ قلبه حقداً ووجهه عُبوساً؟ أم الأفضل أن نلتقي - ولا بد أن نلتقي - وملء قلوبنا صفاء وملء وجوهنا ابتسام؟.

ما هو الفرق بين قولك لُمناظرك «لقد خُنت وطنك وسخرت ضميرك، وعبدت مصلحتك» وبين قولك له: «أظنك أخطأت ما تقصد من خدمة وطنك ومصلحة قومك، مع ما هو معروف من صدق ضميرك ونزاهة قصدك».

أظن الفرق واضحاً كالصبح لِذي عينين، وأظن أنه لو سارت مناظراتنا على هذا النمط، لكنا طوينا مسافة الخلف كلها.

أيُّ كاتبٍ لا يمكنه أن يملأ السطور سفسطةً ومغالطاتٍ؟، بل أي كاتب لا يمكنه أن يملأها ألفاظا فارغة، على كثرة ما عندنا من المترادفات والمتقاربات؟ ولكن الكاتب هو الذي يكتب ليفيد، وهو الذي إذا سكت أحيانا فإنما هو الذي يسكت ليفيد.

أراد حضرة الكاتب في «الحقيقة»، أن يهزأ بقرار المجلس، ويأخذنا بكتفه؛ وكان في إمكاننا أن نجيبه بلهجته ولغته – حذوك النعل بالنعل – ولكننا لا نفعل لأننا اختبرنا الأمور وعرفنا أن أكبر الواجبات هو غسل القلوب وتوحيد الأميال وتمهيد السبل بين العواطف والمصالح.

قصد دمشق بضعة وعشرون نفراً من لبنانيين وبيروتيين[٣]. قصدوها ليسلموا على الأمير[٤]، وليعلنوا في هذه المناسبة، ميلهم إلى الوحدة السورية. ولقد كنا نؤثر السكوت اعتقاداً أن لكل إنسان حق الرأي وحق الاعتقاد وحق التصرف؛ واعتقاداً أن الكلام يوقظ الخلاف، وهذا يوقظ التنافر. ونحن في حال من التطور، أحوج بها إلى السكوت مع التيقظ، ومن الكلام مع العظة. ولكن الكاتب في «الحقيقة» أراد أن يقول في معرض كلامه عن الوفد:

«يعذرنا أصحاب فكرة «لبنان الكبير» لعدم تسميتنا هذا الوفد باسم «وفد لبنان الكبير» لأننا ما زلنا نجهل من قرار مجلس إدارة الجبل، الأخير، ما يجهله صاحب «البرق» وهي لسان حال لبنان الكبير، أو بعبارةٍ أوضح: حزب لبنان الكبير».

كان على الكاتب لو تروّى، أن يترك الجريدة تورد الخبر تحت أي عنوان شاءت. ولقد كان من المحتمل أن تسكت الجرائد المعارضة عنه، لا تصديقاً على زعم الجريدة، ولكن تجنباً للنفور الذي يجره الجدل؛ وعندئذٍ كان يسير الوفد يُظلله السلام ولا تنهشه الأقلام.

لذلك قلنا: إن السكوت أحياناً هو أفيد من الكلام.

يا حضرة الأخ الأديب:

إن لبنان، سيكون كبيراً حتى ولو ظفرت أنت ببغيتك من توحيد سوريا، إن سمو الأمير فيصل، وحزب الوحدة السورية، الذي أنتم منه، وكذلك الدول العظمى، كل هؤلاء يساعدوننا على لبنان الكبير فإذا كنا نحصل على لبنان الكبير، والظفر في جانبكم، فكيف تريدون أن لا نحصل عليه والظفر في جانبنا؟

نحن نحمد الله أن أزلنا كثيراً من أسباب الخلاف، تلك الأسباب التي أشرعنا لها الأقلام شهورا؛ نحمده لأنه لم يبق لدينا سوى هذا الخلاف البسيط – الوحدة والتجزئة – الخلاف الذي لا يتناول شره وخيره سوانا، ولا يتناول حلّه سوانا. وما ضرنا أيُّنا جذب الآخر إليه. فهو إنما يجذبه إلى صدرٍ مليءٍ إخلاصاً – كذلك يجذب الأخ أخاه.

فإذا كان بعض اللبنانيين قصد دمشق، لتحية الأمير، فقد سبق أن حييناه؛ أو لإكرامه، فقد سبق أن أكرمناه؛ إننا نحييه ونكرمه لشخصه الكريم، من جهة، وإكراما لإخواننا من جهة ثانية – كذلك نحن ننتظر منهم أن يُحبوا مَن نُحب ويُكرموا مَن نُكرم.

ولماذا لا تتوحد القلوب وتتفق الأميال، وهذه بعض أسبابها؟.

بشارة الخوري

البرق، ١٩١٩، عدد: ١٣٦–٦٤٦، ص:١

****

العرس اللبناني

الجنرال غورو يعلن لبنان الكبير

اليوم يضحك ثغر لبنان وترقص عرائس المروج فيه.

اليوم يضفر للشيخ – لبنان – الذي عرك الأيام وعركته، إكليل من أرزه الأبدي.

لا ترى فيه اليوم غير قلبٍ خافق، ووجهٍ طليق.

اليوم تلبس عروس لبنان «زحلة» أبهى حُللها، وتَسكبُ على رأسها أطيبَ عُطورها، وتُرسل من صفصافها على ظهرها ذوائب، وتوقع أناملُ النسيم على نهرها الطروب، أبدع الأغاني.

اليوم يقف فخامة الجنرال غورو[1] في زحلة ليعلن ضم البقاع إلى لبنان.

إنها فاتحة النِّعم، وإنها أول الغيث، وإنها طليعة وعود فرنسا الصادقة للبنان.

اليوم تأخذ «زحلة» نصيبها من الجهاد؛ تأخذ الحق الذي سلبتها إياه جائرات الليالي. وغداً يفتح لبنان ذراعيه أو يبسط النسر الأبيض جناحيه على سائر البلاد اللبنانية – عندئذٍ يحتفل بعرس لبنان الذهبي. ثم عند تشكيل الحكومة الوطنية، الحكومة النيابية الديموقراطية، يحتفل بعرسه الألماسي؛ وهنالك يسير لبنان برعاية فرنسا الصديقة الشريفة، الصديقة منذ القدم، الأم الحنون على الشعوب الضعيفة، الثملة بالانتصار الأدبي، هنالك يسير الشيخ في ثياب الشباب، وبرعاية فرنسا الصديقة الصادقة في سبيل الحياة الحرة، والحاكمية الذاتية؛ هنالك يرجع الهاربون من الاستعمار التركي واستعباده، وهم يرددون آيات الامتنان للسيف المحرر: سيف فرنسا، وللقلب الحنون على الفكر البشري: قلب فرنسا.

البرق، ٣ آب ١٩٢٠، عدد: ١٠٥٨، ص:١

****

لبنــان الكبيــر

بيروت العاصمة: الاحتفال بالعيد

هي أولى الأماني وبيت قصيدها، هي فجرها الذي لا مساء له، هي النغم الذي لا يمل، بل هي الصلاة الوطنية وما أحبها من صلاة.

لبنان الكبير!... أجل إن اللبناني الذي لم تسعه بلاد كولومبس ولم تحل دون جده مخاطر البحر، إن اللبناني الذي نبغ في مصر ونبغ في أوروبا ونبغ في أميركا لم ير في هذا الوكر (لبنان الصغير) منبسطا لجناحيه فطلب توسيعه، طلب لبنان الكبير وبنى طلبه هذا على قاعدة حق الإنسان بالحياة.

لبنان الكبير – إن اللبناني الذي أبى إباؤه عليه أن يذل للقوي الغاشم، إن اللبناني الذي أبى أن يستباح عرضه وماله وحريته، إن هذا اللبناني أخذ يرجع مصعدا في الذرى، معتصما بالشناخيب[1]، أخذ ينسحب تاركا سهولة وثغوره مرسحا للمظالم التركية – إن هذا اللبناني – وقد استطلع وجه العدل – طلب إرجاع ما اغتصب من أراضيه، طلب لبنان الكبير وبنى طلبه هذا على قاعدة إرجاع المغتصب.

لبنان الكبير – إن اللبناني الذي كتب بدمائه، بمصائبه أفجع صفحة من صفحات الحرب الكبرى، إن اللبناني الذي صاحب الفقر فخورا، ومشى إلى الموت جسورا، إن اللبناني الذي سقط قتيل الإجاعة وكان عرضة للانتقام التركي الفظيع، إن اللبناني الذي تحمل كل ذلك في سبيل فرنسا ثم في سبيل الحلفاء طلب أن يكافأ على ما قدم من التضاحي، طلب لبنان الكبير وبنى طلبه على قاعدة الغنم بالغرم.

ونظر اللبناني إلى بعيدات الأجيال فلم ير أمة حنت عليه طفلا، وحضنته يافعا وسندته كهلا، لم ير أمة أخرجت للعالم المتمدن مثل ما أخرجته هي من الرجال، ولا كتبت بدم أبنائها مثل ما كتبته هي من المبادئ، إن من بعض ما كتبته بها (حقوق الإنسان) – لم ير اللبناني في ما رأى من الأمم أمة تعمل في سبيل هناء العالم وحرية العالم أكثر مما تعمله هي، لم ير أمة احترمت كل دين وساوت بين كل دين كالأمة الفرنساوية النبيلة فأصر على أن تكون هي الدولة المشرفة على سوريا، وحكمته أن سوريا مهد المنازع الطائفية فلا تصلح لها سوى فرنسا، لما أن غيرها[٢] من الدول متشبث بتقاليده الموروثة، تلك التقاليد في الإعلام والاصطلاحات التي قد تسيء إلى إخواننا غير النصارى الذين نريد أن نعيش معهم إخوانا في الوطن أعوانا على السراء والضراء.

إيه دولة العدل والإنسانية! لقد كدت تتخلين عن البلاد العربية بأسرها في سبيل وعد صادق وولاء مستديم.

إيه دولة العدل والإنسانية! لقد كدت تقنعين بهذه الصخور الجرداء ليعلم الملأ أنك ما نكثت عهدا ولا قعدت عن نصرة ضعيف.

إيه دولة العدل والإنسانية! إنك ألقيت على العرب أجمع درساً في الوفاء عريقا فبينما كان بعض إخواننا يشكون نكص الوعود، والهزء بالعواطف ، واللعب بالمصير[٣]، كنا معاشر اللبنانيين مطمئنين إلى مكين ودّك، وصادق عهدك.

إن إخواننا هؤلاء الذين شكوا نكص غيرك في الأمس يكبرونك اليوم.

إن هؤلاء الإخوان خافوا أن لا تكون فرنسا للجميع وها هم الآن وقد تبددت تلك المخاوف، ها هم الآن وقد علموا أن فرنسا للعدل وأن العدل لا لون له ولا دين.

أجل لقد وعدت بلبنان كبيرا وأنت اليوم للوعد تنجزين.

أما وقد وجد لبنان الكبير اليوم بفضل فرنسا فماذا تراه ليصنع ليكافئ فرنسا على يدها الكريمة هذه.

أن يعمر بالمهاجرين من بنيه لتعمل اليد اللبنانية في الأرض اللبنانية.
أن ينصرف كل إلى ما طبع عليه من صناعة أو تجارة أو زراعة.
أن تتوحد الطوائف اللبنانية في طائفة واحدة هي الطائفة الوطنية.

أن تنمو عواطف الإخاء وتبادل المنفعة بين اللبنانيين وإخوانهم السوريين المشمولين بالإشراف الواحد.

أن يثقوا بفرنسا في تأليف الحكومة اللبنانية على الشكل الذي يريدها اللبنانيون إذ ليس شكل الحكومة في نظر اللبنانيين بأقل أهمية من توسيع حدودهم.

هذا كل ما تريده فرنسا من اللبنانيين في مطلع حياتهم الجديدة، لتكون فرنسا واسعة الصدر، طويلة الأناة فما نحن في حياتنا الجديدة وحكومتنا الجديدة سوى كالطفل إذا عثر أحيانا كان له منها نعم المرشد ونعم المعين.

بورك طالع الجنرال غورو إنه كان سعيدا، ففي عهده نال لبنان أمانيه، وبحسن سياسته وإقدامه تغلب على المصاعب والمكايد.

إن لبنان لن ينسى اسم غورو ولن ينسى أن يحفر هذا الاسم العظيم إلى جنب استقلال لبنان وتكبير لبنان.

إن فخامة الجنرال غورو، سيلفظ غداً [٤] كلمة خالدة على الأيام والليالي.

سيقول للبنان هذه ثمرة الوفاء فاستطبها، لك ما طلبته من فرنسا أمك، هذه البقاع وبعلبك وتلك حاصبيا وراشيا، ثم هذه بيروت «درة تاج عثمان» جعلتها لؤلؤة في جيدك، ألا فلتحيا فرنسا وليحيا غورو ولتحيا بيروت عاصمة لبنان الكبير.

البرق، ٣١ آب ١٩٢٠، عدد: ١٠٧٠، ص:١

****

إعلان لبنان الكبير

في ١ أيلول عام ١٩٢٠

يوم أعلن الجنرال غورو في أول أيلول من عام ١٩٢٠ استقلال لبنان بحدوده الطبيعية، يومذاك حققت فرنسا الشعار الأكبر من أماني اللبنانيين، ألا وهو تكوين القومية اللبنانية، والمحافظة عليها.

فإذا نحن شكرنا لفرنسا يدها، فلأننا بدونها لم نكن لنستطيع أن نحقق هذه الأمنية من استعادة الحدود والاحتفاظ بالقومية.

ولكن الذي لا تستطيع أن تمنحه فرنسا للبنان، هو الاستقلال السياسي لأنه لا يصلح أن يكون هبةً لاستقراره في نفس اللبنانيين، لا ينشأ إلا بهم، ولا تتم قواعده إلا بما يتم لهم من أسبابها. فهل هي متوفرة فيهم؟ إذا لم تكن متوفرة، فهل يعملون على إيجادها؟

لا نرى في لبنان سياسةً يصلح أن يُطلق عليها اسم السياسة الوطنية. بل نحن لا نرى في كل ما عرفه اللبنانيون من ضروب السياسة سوى سياستين: السياسة الطائفية والسياسة الشخصية.

وكلا هاتين السياستين، من مناقضات الاستقلال، بل هما إذا استمرتا قتلتاه شيئاً فشيئا وفي جسمنا السياسي ما مشهوده منهما.

ومن أسباب الاستقلال، الاستغناء عن الغير، ونحن، مع اعترافنا بحاجتنا في جميع أحوالنا إلى أوروبا، لم نفكر ولا خطر لنا أن نفكر بالاستغناء عنها، ولو ببعض ما نستطيع عمله عندنا؛ لا بل ببعض ما نستطيع الاستغناء عنه، من ضروب الزينة اقتصاداً بما في أيدينا، لأن الفقر لازمة الاستعباد.

فإذا كان الاستقلال هو من مرادفات الاستغناء، فكيف نستغني، ونحن لا نعمل إلا للمادة، وهي كما تعلم قيد في عنق صاحبها؟

كلنا يشكو ذلك القيد.

وهنالك كثير من أسباب الاستقلال، ولكنها في نظرنا فروع لهذه، أو نتائج لها؛ كالاتحاد مثلاً. هو لا يتم ما دامت السياسة طائفية أو شخصية، والجمعيات السياسية وهي لا تتم إذا لم يكن هنالك الزعماء الذين يبذلون لها من نفسهم ومالهم، ومن أين يوجد المال وهو يُحرق ويُبذر؟

أجل، لقد تم لنا اليوم الاستقلال الجغرافي، كدولة صغيرةٍ لها من يحمي حدودها، ويحافظ على الأمن في داخلها. فهو والحالة هذه أساس استقلالنا الآخر. فإذا جاز أن يؤسس لنا غيرنا، فما جاز أن يقيم البناء.

فنحن إذا احتفلنا بيوم أول أيلول، كيومٍ أوجدته فرنسا الأخت والصديقة، فعلى رجاء أن نحتفل به كيومٍ له أثره اللامع.

افتتاحية

البرق، ١٩٢٢، عدد: ١٦٣٤، ص: ١

****

القضية الوطنية

مطالب اللبنانيين، طريقة الطلب، الفوضى الحاضرة، الأخلق بنا أن نقول نريد من أن نقول لا نريد.

من يُنكر علينا – معاشر اللبنانيين – حقنا في طلب (الحياة)؟، من ينكر علينا قولنا، إن هذه الصخور التي دفعَنا إليها الظلم، لا تفي بمطالب الحياة لشعب له حقه في الحياة؟ ومَنْ هذا الذي يُنكر أن بيروت وصيدا وطرابلس والبقاع إنما هي في لبنان ومن لبنان، ولا غنى للبنان عنها؟

لم يُنكر علينا حتى الساعة، أحد هذا الحق. وكيف ينكرون إذا نحن سلكنا إليه من اللين سبيلا، واخترنا له الرقيق من الكلام، والمبين من البرهان، وجعلنا الابتسام في ثغور السطور، والإخلاص في صدورها؟.

نريد لبنان الكبير – أو لبنان الطبيعي – ومتى قلنا ذلك فكأنما نريد أهل هذه البلدان، وفيهم السَّريُّ والأديب والفاضل، على اختلاف الأميال[1] والمذاهب.

نريد لبنان الكبير، وقد يكون القائل من أصحاب الحرف الواطية اتخذ الصحافة مهنةً – والصحافةُ عندنا أُمُّ العجائب. فكيف نريد – وقد فهمنا معنى قولنا: نريد لبنان الكبير – أن يَحني هؤلاء السَّراة رؤوسهم لمثل هذا القائل، ويقولون له: شأنك بنا وما تريد.

أجل، إننا لَنَطلب لبنان الكبير، لَنطلبُ إلى هؤلاء الإخوان، بما لنا مِنْ حق الجوار، وحق المصلحة المشتركة، ضاربين صفحاً عن حقنا بالحياة، وحقنا الطبيعي، إننا لَنَطلبُ إليهم، أن نكون – هم ونحن – جسم هذا الوطن. أن نقول لهم: نحن لا نريد إلحاقكم بنا،

بل نريد أن لا يحول حائل بيننا؛ أن نمتزج بكم امتزاج الماء بالراح؛ أن نُوحِّد مصالحنا ونوحد نظاماتنا؛ وأن يكون حق الوطني كالمطر أو كالنور يستوي عندهما كل حي.

إننا إذا قلنا ذلك لهم، فماذا عساهم يجيبون وفيهم مَنْ فيهم من رجال الفضل وزعماء الأدب؟

إن أقلَّ ما يُجيبوننا به: مقابلة العاطفة بمثلها، وهي خطوة إلى التفاهم كبيرة!

وبعدئذٍ... بعدئذٍ ندعو هؤلاء الإخوان إلى مؤتمرٍ عامٍ، وهم إما أن يضعوا يدهم بيدنا، وإما أن يُبينوا الأسباب التي تحول دون هذا الامتزاج.

فإذا تمكن الفريق من إقناع أخيه، فهي المنى: وإن لا؛ تفارقوا أحباباً أخداناً، وعمل كل منهم بما يوحيه إليه وجدانه؛ حتى إذا تمَّت للواحد بُغيتُه، لا تكون ذراعاه بعيدتين عن أخيه، ليضمه إليه ويسير وإياه تحت الراية الواحدة والنظام الواحد.

لقد خفنا ويحق لنا أن نخاف، أن تتحول مسألتنا الوطنية إلى مسألة دينية، وهناك المكانة العليا التي نُمهدها لنا في صدر العالم الأوروبي الذي إنما نتزلف إليه، بما ندعيه من الرقي والمدنية – إنما نتزلف إليه بهذا، ليأذن لنا بالحكم الذاتي، ويمنحنا استقلالنا الوطني، ويكون لنا منه المساعدة الخفيفة المحدودة إذا لم يكن لنا بُدٌّ منها.

كنا نود أن يقتدي دعاة السياسة بغبطة السيد الكبير بطريرك الطائفة المارونية[٢] الذي – حفظه الله – نهض لمعالجة المسألة الوطنية بالحكمة المزدان بها شخصه الكريم. فإنه على ما بلغنا، سيعمل على دعوة كبراء البلاد من رجال الدين والدنيا، من جميع الطوائف اللبنانية، ليبحث معهم في مسألتنا الوطنية ويقرروا الخطة الحكيمة التي يمشون وأهل البلاد، عليها.

إن قولنا: لا نريد هذا ولا نريد ذاك، لهو قول فوق اقتدارنا ولقد كان الأخلق بنا أن نقول: نريد هذا ونريد ذاك.

إن ويلسن نفسه ولويد جورج وكليمانصو، لا يتجاسر أحدهم أن يقول: لا أريد، أما إذا كان أحدنا يشعر من نفسه بقوةٍ فوق قوة هؤلاء، فهو أمر آخر.

نحن نريد لبنان الكبير، نريد أن نؤلف من النفوس والأراضي التي تعتبر من لبنان وطناً واحداً، ولا فرق بين أن نلتحق بهم أو أن يلتحقوا بنا، نريد أن نحترم رأي إخواننا جميعا، نريد حقنا في الحياة، وللمؤتمر حكمه النافذ ورأيه الموفق بإذن الله.

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩١٩، عدد: ١٣٥-٦٤٥، ص:١

****

تاريخ لبنان يخص اللبنانيين جميعا

لكل لبناني نصيب من الحمد والذم - متى يسحقون رؤوس الأفاعي

هذه فجائع كموج البحر لا تني تدفع الواحدة الواحدة.

هذه صحفات سود يقرأها التاريخ على الملأ ولا يرحم سمعة ذويها.

هذا لبنان تلعب به أيدي أعدائه لتحط به من شامخٍ إلى سافل.

لنقول عنه إنه يدعي الكفاءة للاستقلال، وهو إذا ارتفعت عنه يد القوة تطاحن بنوه، لا على محمدة يتلألأ لها الجبين، بل على مخزية يستمر معها غضيض الطرف حييا.

لا ويرحمك الله: فما هو بالبلد الفذ الذي يشتمل على البنين الجهلة، وما هو بالبلد الفذ الذي يشتمل على اللاعبين بشرف البلاد من أجل بلغةٍ، وما هو بالبلد الفذ الذي تمثل فيه هذه المآسي.

إن للطائفية فظائعها في الغرب، إن لها فظائعها في كبرائهم يأتونها ولا يسترونها، وحسبك بما حملت إلينا أنباء هولندا مما تشمئز له النفوس وتحمر له الوجوه.

لا وشرف لبنان أن ليس للطائفية يد في هذه المنكرات؛ فهؤلاء أدباء لبنان على اختلاف طوائفهم ما امتزج ماء براحٍ، وكان أصفى من امتزاجهم، ولا تبادلت الثغور الابتسامات وكانت أنقى من ابتساماتهم؛ وكذلك قل عن هذه الطبقة الساذجة التي أخذت من تربة لبنان جودتها، ومن هوائه نقاءها. ولكن هناك فئةً صغيرة هي كالأفاعي تنفث سمومها وتلجأ إلى أوكارها. فمن لنا بنبش هذه الأوجار وسحق هذه الرؤوس.

إننا لنربأ بلبنان أن يشتمل على غير طائفتين، لكل منهما دينها وعملها. وليس الدين الذي نعنيه سوى الوطنية، ولا العمل الذي نعنيه سوى الإصلاح، يقابلهما من الجهة الثانية الخيانة والإفساد.

إننا لنربأ بلبنان أن يشتمل بعد الآن، على غير طائفتين، بعد أن يكون قد لف تلك المذاهب الدينية بمنديل ووضعها باحترام في المعابد. أجل، إننا نريد أن يقوم فينا طائفتان تشتمل الواحدة على المصلحين المخلصين من جميع المذاهب، والثانية على الخونة الأشرار من جميع المذاهب، فتُصْلي الأولى الثانية حربا عواناً[1]؛ حرباً لا تنطفي نارها قبل انطفاء الروح في صدر هذه الفئة الباغية.

أجل إن من واجبنا جميعاً أن نطهر البلاد من الفساد والمفسدين. إن من واجبنا أن نفعل من أجل تاريخ لبنان، والتاريخ لنا جميعا.

ومن أجل استقلال لبنان، وهو لنا جميعا.

ومن أجل ازدهار لبنان وهو لنا جميعا.

بل من أجل كل ثمرة مشتهاة، وهي للبنانيين جميعاً.

فإذا نحن عرفنا هذه الواجبات واعترفنا بها، ساعدنا رجال الأمن على مهمتهم وكانت لنا يد على البلاد كثيرة البركات.

نحن نرجح، بل نؤكد أن اليد القاتلة هي واحدة تقتل اليوم، الدرزي لتثير ثائرة المسيحي، وغداً تقتل المسيحي لتثير ثائرة الدرزي. فمن واجب الفريقين إذن سحق هذه اليد في سبيل التآخي وفي سبيل المروءة.

البرق، ٢٠ كانون الثاني١٩٢٣، عدد: ١٧٤٠، ص :١

****

رؤوس أقــلام

لو كانت لي السيطرة على مدارس لبنـان، لأمرت بـأبيات أمين تقي الدين[1] التي ستطالعونها، أن تكون صلاة الطلبة بُكرةً وعشياً. لعلها تكون شفاء لأمراض الطائفية فيـه.

ولكن ماذا قلت؟ أنا الضعيف المسكين تكون لي سيطرة لا يحلم بها مدير المعارف نفسه؟... إن معظم مدارسنا جزر صغيرة في قلب البحيرة اللبنانية، وهي أمنع جانباً من الدردنيل – قبل اليوم – لما قام عليها من رشاشات الامتيازات، ولكن: مالي ولكل هذا؟ فأنا أتمنى – مازال باب التمني مفتوحاً – نعم أتمنى على جميع مدارسنا، أن توجب على الطلبة حفظ هذه الأبيات وتكرارها مراتٍ.

قال الأديب اللبناني:

يـــا بـــني لـــبــنـــان! لـــبــنـــانَ إذا
مـــا تـــبـــاهَـــيْـــنـــا دعَـــوْنـــاه أَبـــا

نَـــــسَبٌ شَــــرَّفَــــنـــا بَـــيْنَ الأُلى
قِـــيل عـــنــهمْ يـــدَّعـــون الـــنَّـــسَـــبـــا

مَــــرَّ بـــالـــدهـــر أبـــونـــا أمـــردا
وتـــمـــشَّى فـــيه شـــيـــخـــاً أَشْـــيَـــبـــا

فـــروى الـــتـــاريخُ عـــهـــدا طـــيـــبـــاً
وروى الـــتـــاريخ عـــهـــداً طـــيـــبـــا

نـــحْنُ لـــلـــشـــيخ، بـــنـــوه. والـــوَفَـــا
أَنْ يـــــرى أَنَّـــــا بـــــنــــوه، الأَدبـــــا

إنمـــا نـــحـن اخـــتـــلـــفْـــنـــا بـــيـــنـــنـــا
حـــين يـــقـــضي الـــفـــضلُ أن نَـــعْـــتَـــصـــبـــا

فـــذهَـــبــنـــا كلَّ آنٍ مَـــذهـــبـــاً
وركـــبْـــنـــا كلَّ يـــومٍ مَـــرْكـــبـــا
لـــيس فـــيـــنـــا رجلُ الـــشـــعب الـــذي
إنْ دعـــا الـــواجبُ لـــبَّى الـــطَّـــلـــبـــا
إنمـــا الـــشـــعبُ الـــذي أشـــكـــو له
صُـــحُفَ الـــشـــعْب فـــكـــان الـــشَّـــغَـــبـــا
وجـــعَـــلْـــنـــا الـــدينَ فـــيـــنـــا فـــارقـــاً
فـــتـــفـــرقـــنـــا به أيـــدي سَـــبَـــا
ويحَ لـــبـــنـــان إذا داعٍ دعَـــا
فَـــبَـــنُـــوهُ عن بـــنـــيه غُـــرَبـــا
كـــان في لـــبـــنـــان عَـــهْـــدٌ طـــيِّبٌ
رحمَ الـــلـــهُ الـــزمـــان الـــطـــيِّـــبـــا

البرق، ٤ شباط ١٩٢٣، عدد: ١٧٥٣، ص:١

****

أعيدوا إلى الأقضية محاكمها
تُعيدوا إليها دماءها وحياتها

ماذ ينفع الرأسُ إذا هلكت الأعضاء؟

ليس غير أعمى البصر والبصيرة، مَنْ لا يرى الأضرار البليغة التي لحقت بالأقضية اللبنانية التي حرمت محاكمها، فكانت من قبل ناميةً زاهية، فإذا هي اليوم جامدة جافّة.

وليس غير هذا الأعمى، مَنْ لا يرى أن المحكمة في القضاء هي قلبه الخافق، يتوزَّع منه دمُ الحياة إلى القرى والدساكر، فإذا هو عجز عن أن يُنعِشه فلا أقلَّ من أن يُمسك له بقيةَ رمقه.

وليس غير الصلب الفؤاد، المتحجِّر العواطف، مَنْ لا يُشفقُ على ذلك العجوز المتوكئ على عصاه، القاطع الأميال البعيدة في طريقه إلى المحكمة.

بل ليس غير المتحجر العواطف، مَنْ لا يُشفق على بلادٍ بأسرها أنهكتها الحربُ وأجهزت عليها الأزمة، تنتزع منها محاكمها وهي مشكى ضيمها ومرجع قضاياها؛ فتُضطرُّ إلى تجشُّم المسافات، وتكبد النفقات، وهي بحاجة إلى ساعة قصيرة تُنفقها في طلب الرزق لتستطيع الوقوف على رجليها.

لم نسمع من قبل، ولا روى لنا راوٍ، أن بشريا يبيع قلبه ليشتريَ به إكليــلاً لرأسه.

بل إنَّ حكومتنا تفعل ذلك... أفليستْ هذه الأقضية هي بمثابة القلب للبنان، تضنُّ عليها الحكومة بالفلس لتشتري من مجموع هذه الفلوس، درَّةً للرأس الذي هو العاصمة؟

ومِنْ أين يستمد هذا الرأسُ حياته وجماله، إذا لم يكن يستمدُّهما من القلب؟

لقد قلنا في «برق» أمس، إنَّ نفقة دائرةٍ واحدة تكفي لإعادة المحاكم كما كانت عليه من قبل الاحتلال.

وإعادة المحاكم إلى ما كانت عليه، معناه إعادة الدماء إلى الجسم اللبناني.

أعيدوا محكمة الكورة[١] تُنْعِشوا جميع أهل الكورة.

وأعيدوا محكمة البترون[٢] تُنْعِشوا جميعَ أهل البترون.

وأعيدوا محكمة المتن[٣] تُنْعِشوا جميعَ أهل المتن.

وأقيموا لزغرتا[٤] محكمةً ولا تَنسُوا عكار[٥] ! واذكروا المحاكم التي أُلغيتْ في لبنان الجنوبي..... أعيدوا جميع تلك المحاكم إلى ما كانت عليه تُنعشوا الأمة بأسرها.

ولا بأس إذا مَحَوتم من سفْر هذه الدولة اللبنانية نظَارةً أو نظارتين[٦]. بل لا بأس إذا استغنيتم عن المجلس النيابيِ بأسره، وهززتم أكتافكم لمشروع شورى الدولة.

لقد أكثرتم وضع الألحفة على «الرأس» حتى كاد يختنق، فانزعوا عن هذا الرأس لحافاً واحداً وغطوا به بقية الجسم، فإنه عارٍ والبرد كبرد اليوم، شديد.

أما المجلس النيابي، ويا خجلتاه مما فعله في موازنة ١٩٢٤.

لقد رحم الأفراد وقتل المجموع.... بل هو وقف في وجه الحكومة، عندما قررت إلغاء بعض النظارات، وصرْف بعض كبار الموظفين.

ليت شعري؛ بأيِّ وجهٍ سيقابل هؤلاء النوابُ مُنتَخبيهم، يومَ يقولون لهم: لقد أحييتم العاصمة وقتلتموني، فاذهبوا إلى العاصمة لتنتخبكم، فشأنُكُم غير شأني[٧].

إنَّ النظارات التي حافظتم عليها هي للعاصمة لا لي... وكبار الموظفين الذين جاملتموهم هم للعاصمة لا لي..... والدوائر التي حافظتم عليها وأنفقتهم عليها، هي للعاصمة لا لي.

إن ما هو لي – أنا القضاء الشاسع الذي رفعكم على أكتافه إلى كراسي النيابة – إن ما هو لي، المحكمة التي لا حياة لي بدونها، المحكمة فقط فأين هي؟

إن وقت الحساب أصبح على الأبواب، وسيكون لنا – معاشر الأقضية – مواقف معكم يا نواب الأقضية.

افتتاحية

البرق ، ١٩٢٤، عدد: ٢٠٢١، ص: ١

****

الخيال اللبناني الأسمى

ما هو؟ وأين أثره في لبنان؟ وهل يعرفه أولو الأمر منا؟
في سبيل إنقاذ الجمهورية

مـا جاهد اللبنانيـون القدمـاء فـي سبـيل الوطـن اللبناني الكبيـر إلا جـرياً وراء مـا يسمـونه الخيـال الأسمـى ألا وهو وطن لبنـاني يتسـع لـهؤلاء الذين حصرتهم مظالم الأجيال الغابرة بين الصخور الجافة فأقاموا فيها مؤثرين الضنك على أن تمس حرياتهم أو تنال كراماتهم حتى إذا انفتح لهم طريق البحر طاروا من وكناتهم إلى حيث اقتنصوا الثروات وحملوها إلى لبنانهم وحملوا معها ما نراه فيه اليوم من آثار العمران.

وليس ما كان يربط المهاجرين بلبنان ويؤجج في صدورهم لظى الحنين إليه ما تركوه وراءهم من زوجات وبنين، لا ليس هذا الذي كان ولا يزال يربطهم بلبنانهم لأنه ليس أسهل على المهاجر من حملهم إليه، بل الذي كان يربطهم به ويؤجج فيهم نار الحنين إليه هو نشوؤهم تحت سمائه الصافية الحرة، وتمتعهم فيه بالحكم الذاتي وعدم شعورهم بثقل الضرائب التي كانت ترزح تحت أعبائها الولايات القريبة منهم فاللبناني في بيته لا ينفق غرشاً إلا إذا كانت الحاجة ماسة إلى الإنفاق، وإلا إذا اقتنعت العائلة جميعها بوجوب هذا الإنفاق.

ولم يكن ذلك الحرص منهم فطرة فيهم، بل لم يكن إحدى شوائب البخل، ولكنه كان لازمة جدب جبالهم، أفلم تر كيف دفعتهم الحاجة إلى نقل التراب إليها حتى يستطاع زرعها قليلا من الحبوب والكرمة والزيتون سداً لإرماقهم، ودفعاً للمجاعة عنهم.

على أن اللبناني لم يكن ليحتمل كل ذلك الضيق لولا تنشقه ريح الحرية بفضل الحماية الدولية[1]، ولولا تمتعه بالحكم الذاتي أيام كانت الولايات تتحكم فيها الأتراك الحكم المطلق.

ومن هناك نشأ ما يسمونه «الخيال السامي» ألا وهو أن ينتقل لبنان بمثل حاله الأول إلى وطن أكبر يستطيع معه أن يقيم حاجزا منيعا ضد تيار المهاجرة. وعلى ذلك يجد اللبنانيون – قدماؤهم وحديثوهم – وطنا حرا رخيا خصيبا تحل فيه فرنسا محل الدول السبع التي حمته من قبل.

فهل توصل أصحاب ذلك «الخيال» إلى خيالهم.

وهل أحد يجرؤ على القول إن لبنان اليوم يتمتع بمثل حاله الأول؟

وهل نقلنا إلى الأراضي التي عادت إلينا شيئا من تلك المزايا التي كانت للبنان؟

لا... إن معظم الذين يقبضون على أزمَّة الأمور في لبنان الكبير يجهلون ذلك «الخيال السامي» لأنهم غرباء عنه وكيف يدافع الرجل عن شيء يجهله، عن شيء لم تحبل به شعوره.

لقد نشأ معظم هؤلاء السادة تحت حكم الولايات فهم والحالة هذه يجهلون حلاوة الحياة اللبنانية التي تقدم وصفها على ما كان يرافقها من الضنك.

ولقد نشأ هؤلاء السادة أصحاب مهن حرة لا متاجر لهم فهم إذن يجهلون مرارة الضغط التي كان يتذوقها ملاك الولاية وتاجرها بسبب الضرائب مثل جهلهم حلاوة الحياة اللبنانية من هذا القبيل، أما الملاك والتاجر في الولاية فقد كانا ينظران إلى تلك الحلاوة ويشتهيانها، وبهذا وأمثاله كان العاملون في القضية اللبنانية يحاولون إغراء هؤلاء بالانضمام إلى لبنان عن نفس راضية.

لقد انعكست الآية تماما، فبدلاً من أن يحمل لبنان للولاية مزاياه المحببة حملت الولاية إليه مزاياها البغيضة.

فماذا حصل عن هذا؟

– وهل حصل عنه إلا ما هو واقع الآن؟ وهل هذا الواقع الآن إلا نتيجة طبيعية للحال الحاضرة.

إن اللبناني القديم كان يحلم بتوسيع لبنانه على مثل ما كان من قبل مع تحمل شيء من النفقات مقابل ما يحصل عليه من الفوائد.

واللبناني الجديد كان إذا طمع بالانضمام إلى لبنان فللتمتع ببعض ما كان يتمتع به اللبنانيون من قبل.

فما هو الحاصل الآن؟

لبنان القديم ينتحر ...

واللبنانيون الجدد نكبوا فوق ما كانت تنكبهم به الولاية.

فالفريقان غاضبان، والفريقان محقان.

قد يقولون لنا لقد طلبتم إنشاء حكومة نيابية، وهذه الدوائر من لزوم تلك الحكومة. فنقول: أجل! طلبنا حكومة نيابية نستطيع تسييرها بنصف الأموال التي تنفقونها عليها.

أجل لقد طلبنا لبنان على شكله هذا، ولكننا نريد أن يعيش، ونحن نرى أنه لا يمكن أن يعيش مع هذه الحال، فنحن بموقفنا هذا ندافع عن حياة الجمهورية اللبنانية، ندافع عن هذا الخيال السامي الذي حرقنا على هيكله شبابنا ضد الذين يجهلونه ولا يزالون يجهلونه.

البرق، ١٤ آب ١٩٢٦، عدد: ٢٦٣٦، ص:١

****

لمصلحة من أنشئ لبنان الكبير

هل توجد بلدة أو قرية أو مزرعة في جبل لبنان تقول لنا إنها استفادت من تكبير لبنان؟ ما هي فائدة اللبنانيين من تكبير لبنانهم إذا حل الأرمن محلهم؟ ما أحدثه مقالنا أمس في الأندية اللبنانية الصميمة من الأثر البليغ وما صادفه من الرضى والقبول.

الأمير فؤاد أرسلان يقول لنا إن ٤٠ ألف درزي يمضون في إعادة لبنان إلى ما كان عليه لزوم عقد مؤتمر لبناني يمثل جميع الأقضية اللبنانية وجوالي المهاجرين.

لقد آلينا أن نمضي في الذياد عن الحظيرة اللبنانية وإنقاذها حتى النهاية ونحن لا نذود عنها ولا ننقذها إلا إذا وضعنا أولياء الأمور بين أمرين لا ثالث لهما: فإما أن يعملوا على ما يوطد أقدام اللبنانيين في بلادهم وهذا لا يكون إلا بإنشاء إدارة صغيرة لتخفيف الأعباء عن المكلف اللبناني، ثم بجعل مقدرات البلاد في يد أصحابها ليعملوا على تسهيل عودة اللبنانيين إليها لتعمر البلاد بأبنائها.

ونحن ما دمنا نرى أولياء الأمور سالكين مسلكهم الحاضر الذي يقضي قضاءه المبرم على اللبنانيين في بلادهم، ونحن ما دمنا نرى البلاد اللبنانية تقفر من اللبنانيين لتمتلئ بالأرمن وغيرهم من العناصر الغريبة، ونحن ما دمنا نرى ذلك فسنعمل جهدنا لإنقاذ البقية الباقية من بني قومنا ولا سبيل إلى إنقاذها إلا باستخلاص لبنان القديم من الهوس الذي أخذ به فنرجع به إلى حاله الأولى وهنائه الأول.

لقد خدمت القضية اللبنانية المصلحة الفرنساوية في مطلع الاحتلال خدمات لا تقدر بثمن وخدم اللبنانيون هذه المصلحة بغيرة قد لا تجول في صدور الكثيرين من

الفرنساويين الذين عرفناهم، وحسب الذاكرة أن يرجعوا إلى عام ١٩١٩ يوم طافت اللجنة الأميركية فلسطين وسوريا ولبنان فما وجدت المصلحة الفرنساوية متكأ ناعما لها في الخلافات بينما كانت الدعاية الانكليزية والجانب الانكليزي يقضان مضاجعها في جميع البلدان السورية ومنذ ذلك الوقت تعززت فكرة لبنان الكبير في المفوضية العليا في بيروت ليكون للقضية الفرنساوية مرتكز حصين في الأراضي السورية، ولم يكن تكبير لبنان من مذهب الكثيرين من كبار مفكريه لبعد نظرهم وصدق فراستهم ولكن العاطفة اللبنانية الفرنساوية تغلبت على الحكمة، والثقة تغلبت على المجازفة فقاموا شعباً وصحافة – يطالبون بلبنان الكبير على نحو ما هو عليه، ولم يكونوا ليحلموا من قبل بغير ضم البقاع الغربي ومدينة بيروت إليهم.

إذن فما يقال من أن تكبير لبنان عمل لمصلحة اللبنانيين محض خطأ، وإذن فلا يمنَّ علينا احد بعد الآن بهذا التكبير وقد كان من حقنا أن نمنَّ به نحن لولا أننا نراه أبخس ما وهبناه للصداقة الفرنساوية، فما وهبنا لهذه الصداقة حماية الدول العظمى ومزقنا تحت أقدامها البرتوكول[1]، وخلعنا من أعناقنا تلك الامتيازات الغالية.

ونحن غير راجعين عما قدمناه وغير جاحدين مقابل ذلك نبل الروح الفرنساوي ولا سخاءه على الإنسانية ولكننا لا نطيق أن يمنعنا أحد عن المضي في ما نراه واقياً لكياننا المهدد كلبنانيين صميمين يرون بلادهم تخرج من أيديهم بسبب الفوضى الضاربة أطنابها في دوائرهم الرسمية وبسبب الضرائب التي لا تتحملها طبيعة الجبال القاحلة، وبسبب الحواجز الخفية التى تقطع خط الرجعة على المهاجرين وهم المحور الذي تدور عليه آمالنا بتجديد شباب لبنان، أضف إلى ذلك جلاء المئات والألوف من اللبنانيين في كل عام.

وماذا يفيد اللبنانيين لو خفقت الراية اللبنانية على جميع الشرق العربي وأطلق على سكانه اسم لبنانيين، وهم هم لا أثر لهم في لبنان ولا مصلحة يرجونها منه، أفلا يكون الأفضل لهم ألف مرة لو حفظوا كيانهم الصغير واستمروا على تعزيزه واستقلوا بإدارة أنفسهم على نحو ما يرونه لها كما كان شأنهم في السابق.

بل ماذا يفيدهم اليوم وهم في شر حالتين: اقتصادية وسياسية أما الاقتصادية فهذه التي أجمعت الصحف على ترديدها وأجمع أولياء الأمور على (التمسيح) بها. وأما السياسية أو قل القومية فهذه التي يذوب فيها اللبنانيون في العناصر الغريبة، ولو أنهم ذابوا في الوطنيين المنضمين إليهم لكانوا إخواناً ذابوا في إخوان. أما وهم يذوبون في الأرمن الذين منحوا جميع حقوق اللبنانيين دون أن يكون عليهم شيء من واجباتهم فإن ذلك الذوبان لبلية عظمى هي عفاء العنصر اللبناني قريباً.

وبعد فهل يجسر أن يقول لنا نواب لبنان ولا سيما نواب بيروت والبقاع أنهم يمثلون العنصر الوطني أم هم يمثلون العنصر الأرمني، وليس هذا فقط بل هم اشتروا من العنصر الأرمني نيابتهم وهو منتهى الزراية بالكرامة اللبنانية.

أجل لقد حبل صدر اللبنانيين من هذه الحال، وشرعوا يميزون بين حالهم الأول وحالهم اليوم، فإذا هم نهضوا لإنقاذ الموقف فقد نهضوا لإنقاذ كيانهم المبعثر وإقالة عثرتهم السابقة، ولا نخال فرنسا وقد تمركزت في البلاد تضن عليهم بالمساعدة الكلية للوصول إلى هدفهم، بل لا نظنها تمنع عليهم الاجتماعات التي ستشرب بروح الود لها على كل حال.

ولا ريب في أنه كيف رأى اللبنانيون أن يصرفوا وجه القضية أأعادوها إلى حالها قبل عام ١٩١٤ أم إلى حال غيرها فسيكون لفرنسا موقفها الممتاز عندهم، كما أنهم يأملون منها أن تعطف على فكرتهم هذه لتستبقي لها القلوب التي رضعت حبها منذ مئات السنين.

ولا يغرّن فرنسا ما يسمعه رجالها من بضعة نفر هي التي أوجدت معظمهم من العدم، وهم لم تربطهم بلبنان رابطة من قبل، لا يغرن فرنسا أن هؤلاء يعبرون عن الروح اللبناني السائد اليوم، فإن الذي يعبر عنه حقيقة التعبير إنما هو نحن بدليل ما سمعناه أمس من جميع الذين لقيناهم من الصحفيين اللبنانيين عن وقع مقالنا فى نفوسهم وتأكيدهم لنا أنه الصدى الصادق للأندية اللبنانية أو بالأحرى للحقول اللبنانية، ثم

بدليل ما قاله لنا الأمير فؤاد أرسلان يوم السبت الماضي من أن ٤٠ ألف درزي في جبل لبنان يؤيدون فكرتنا هذه.

ولا نريد أن نستقل بتبعة هذا الأمر بل نحن نقترح أن يعقد له مؤتمر لبناني عام يجمع إليه العناصر اللبنانية كافة، وتمثل فيه الجوالي اللبنانية في جميع المهاجر على أن ندرس هذا المؤتمر في أعدادنا القريبة إن شاء الله.

البرق، ٢٥ تشرين الأول ١٩٢٧ ، عدد: ٢٨٩٦، ص : ١

****

شقاء لبنان الصغير
بلبنـــان الكبير[١]

ماذا استفاد اللبنانيون القدماء من تكبير لبنان اللهم إلا خسرانهم الامتيازات وإرهاقهم بالضرائب وانتزاع المنافع منهم؟ أين عظمة سراي بعبدا وازدهار سرايات الجديدة وأميون وجزين وكيف أصبحت قبوراً بعد أن كانت قصوراً.

خذوا لبنانكم وردوا علي لبناني

لقد انطفأ آخر أمل للبنانيين ولا سيما اللبنانيين القدماء بالإصلاح وهو عندهم تأسيس إدارة تتناسب مع اقتدارهم وعددهم، فإذا الأمر ما برح توقيعاً وإذا الوعد ما برح تعليلاً.

ولا غرو إذا استشعر أهالي جبل لبنان بالفرق العظيم بين ما كانوا عليه من هناء ورغد في حياتهم المادية ومن عزة وتمتع فى حياتهم السياسية. كيف لا وقد كانوا يجهلون أسماء هذه الضرائب الجديدة التي أخذوا يرزحون تحت أعبائها، وكيف لا وقد كانوا في معقل حصين من حماية الدول العظمى لا تكاد تنزل بهم ملمة بل لا يكادون يتحسسون بضيم حتى تمخر السوابح وتتحرك الجيوش.

إذن فللبنانيين القدماء عذرهم إذا استشعروا الفرق العظيم بين ماضيهم وحاضرهم، ليس من جهة المذلة التي يعانون بعد تلك العزة، وليس من أجل هذه الرسوم وقد كانوا يجهلونها، وليس من أجل خسرانهم تلك الامتيازات التي سيبكون عليها بدم المهج، ليس من أجل هذا فقط بل من أجل بوار قراهم العامرة ومزارعهم الزاهرة، حتى أصبحوا ذنباً لبيروت تستعملهم لهش الذباب عنها، وما قصدنا أهل

بيروت حتى ولا مدينة بيروت بل قصدنا هذه الدوائر القائمة فيها وهؤلاء الرجال القائمين على رؤوسها لا يتحسسون بما يتحسس به اللبناني القديم لأنهم ولدوا بين ذل الولاية وضغط الولاة ثم سكروا بما يترشفون من خمرة السلطان وما تعودوها من قبل، فتغلغل اليأس الى القلوب وكادت تدق أجراس الفوضى لولا الرهبة، مع ذلك لا يصحون من سكرتهم ولو علموا أن للموت سكرة لصحوا ولو قليلاً.

وكيف لا يكون للبنانيين القدماء عذرهم وهم إنما ارتقبوا هذا العهد ارتقاب الساري طلعة البدر، فإذا هم يعوضون من الزيادة بالنقص وكيف يملك اللبناني القديم مشاعره إذا مر في بعبدا وإذا هو دخل سرايها فهاله هذه الوحشة بعد ذلك الأنس وهذا الجمود بعد تلك الحركة، إن سراي بعبدا كانت قصرا تفتح عيناها على قرقعة سيوف الجند وصدحات الموسيقى وصرير أقلام المحاكم فإذا هي اليوم قبر له جميع نعوت القبور.

وما يقال عن سراي بعبدا يقال عن سراي الجديدة، وما يقال عن هذه يقال عن سرايات أميون وجزين والشويفات وأقضية غيرها يوم كانت تضحك في تقاسيمها الحياة، ويوم كنا معاشر أبناء لبنان القديم نأمل أن تكون أشد ازدهاراً وأروع مستقبلاً فإذا الأمر ينقلب إلى عكسه.

أما سراي بيت الدين[١] ذلك الأثر التاريخي العظيم وملتقى رجال الحكومة في صيف كل عام فقد أصبح في خبر كان.

إن الانتداب ليخطىء أعظم الخطأ إذا حسب أن لبنان هم هذا النفر الذي سوَّده رغم أنوف اللبنانيين عليهم، وإن الانتداب ليقصر إذا هو لم يدخل الى مكامن الشعور في صدر الشعب اللبناني (ونريد به أبناء لبنان القديم) ليتعرف الى هذه الثورة الهائلة المشتعلة في قلبه وإلى هذا التطور الغريب الذي طرأ على نفسيته القديمة، وحسبه أن يعلم أن الشعب اللبناني الصميم أصبح لا يرى في عمل الجنرال غورو منحة هو المقصود بها[٢] لأنه أصبح يقول على ملأ من الناس «أي فائدة لي من أن يقال عني أني صاحب هذا القصر وأنا لا أملك حتى الدخول إليه، ولا حتى الاستفادة منه اللهم إلا

أنهم يطالبونني بثمن ورواتب أسياده حتى إذا بخلت على الأرض بما يفرضونه عليَّ أعملوا سياطهم في ظهري ولا ينفكون حتى أقطع عن أطفالي غذاءهم وأحمله إلى سادة القصر ممزوجاً بدمي ودمعهم».

إن شعباً هذه حقيقة حاله ما تراه يهمه من حديث الوزارات والمجالس بقيت الوزارة أم استقالت، أظفر الجسر[٣] بالرئاسة أم ظفر بها نمور، أتدخل أسقف في الانتخاب أم لم يتدخل، شعباً هذه حقيقة حاله لم يعد يطيق عليها صبراً، وهو إذا لم يقم على معالجته طبيب عالم حازم لم يكن الذنب ذنبه إذا استشرى الداء بل كان الذنب ذنب طبيبه وقد شكا له علته وأفضى اليه بجميع أعراضها.

أجل لم يعد أبناء لبنان القديم يطيقون صبراً على هذا المهازل التي تمثل وهم يدفعون ثمنها من أبدانهم وأرواحهم. ولقد ذكروا – مع الألم – زمناً كانوا فيه سادة أنفسهم لا يشاركهم أحد لا في سلطانهم ولا في أموالهم، ولذلك فإن فكرة قوية تتمخض وهي أن يجتمعوا في مؤتمر يضعون فيه مطالبهم ثم يحملون هذه المطالب إلى البطريرك الماروني من حيث إنه تولى في بادئ الأمر تصريف القضية اللبنانية ومن حيث إنه مسؤول بنتائجها وهي المحنة التي يعانيها اللبنانيون ولا ينكرها هو.

وغير بعيد أن يدنو اليوم الذي ينهض فيه اللبنانيون القدماء – إذا استمرت الحال على ما هي – ويهتفون بصوت واحد على ملأ من العالم قائلين:

خذوا لبنانكم وردوا علي لبناني.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٢٧، عدد: ٢٨٩٥، ص: ١

****

شقاء لبنان الصغير
بلبنـــان الكبير[٢]

نقترح على مفكري اللبنانيين القدماء تأليف وفد يطوف القرى اللبنانية ويضع لنا تقريراً ضافياً يقابل فيه بين حالات لبنان عهد البرتوكول وحالاتها بعده.

المجلس النيابي يتمخض بفكرة لبنان القديم

الأستاذ ابراهيم منذر والأستاذ دموس ورئيس حزب التضامن اللبناني يؤيدوننا في موقفنا.

النائب الدكتور تلحوق يغضب لامتصاص بيروت الملحقات، إما لبنان الكبير وإعادة جميع دوائر لبنان القديم إليه وإما لبنان الصغير كما كان قديماً. لفتة إلى فرنسا نصيرة البؤساء والمستضعفين.

لم يسعد مقال في جريدة بل لم يكن لمقال من صدى في جريدة أشد وأوقع من الصدى الكبير الذى أحدثه مقالنا حول شقاء لبنان الصغير بلبنان الكبير حتى إننا لم نكن نلتقي مفكراً ولا وجيهاً من أبناء تلك البقعة الهانئة في الأمس التاعسة اليوم إلا وحمد لنا فكرتنا أيما حمد وأطرى إقدامنا أيما إطراء وتعهد لنا بأنه سيكون بوقاً صارخاً في تلك القباب والحقول البالية في استنهاض ما بقي من الهمم لاسترجاع الحياة الى من وما بقي في الشقي (جبل لبنان) الذي جنى على نفسه بانخداعه لبوارق الآمال وكواذب الوعود، وسياسة التقلب.

ولا نطلب الى مفكري اللبنانيين من صحافييهم الى شعرائهم الى كبرائهم الحقيقيين – تمييزاً لهم عن كبراء هذه الأيام – لا نطلب إليهم إلا أن يؤلفوا وفداً يطوف البلاد اللبنانية القديمة فيضع فيها تقريراً ضافياً يقابل فيه بين جميع حالاتها عهد

البرتوكول وحالاتها بعده فيقول لنا مثلاً: كم كان عدد سكانها قبل عام ١٩١٨ وكم أصبح اليوم يهاجر منها في السنة وكم كان يعود إليها من المهاجرين.

كم كان يرسل المهاجرون من الأموال وكم يرسلون اليوم.

كم كان فيها من البنايات ويحرث من الأراضي بأموال المهاجرين وكم يبنى ويحرث فيها اليوم.

حتى إذا انتهى الوفد من هذا كشف لنا أسبابها مهما كانت هذه الأسباب موجعة.

ثم ليقل لنا كم كان معدل سعر الأراضي والعقار فيها وكم أصبح اليوم ثم يستخرج لنا الفرق بين أسعار الأمس وأسعار اليوم لنرى جسامة هذه الخسارة وليقل لنا عن أسبابها مهما كانت هذه الأسباب موجعة.

وليقل لنا الوفد كم كان مبلغ الضرائب والرسوم التي كان يؤديها اللبنانيون القدماء وكم أصبحت اليوم وكم هي الطرق التي كانت تشق في العام وكم هو طولها وهل كانت الضرائب تنفق كما تنفق اليوم على فخفخة فارغة ودولة لو مثل الوهم لكان أقرب إلى الحقيقة منها وليحدثنا الوفد عن الخسارة الأدبية والمادية التي لحقت بالأراضي اللبنانية القديمة من جرّاء تنازلها عن الامتيازات وخضوعها للديون العمومية وما أصاب اللبنانيين بسبب هذا التنازل الأحمق عن ثروة ومتعة لو ملكهما أصغر الشعوب لكان في خير حال.

وليحدثنا الوفد عن الجو اللبناني الحاضر والجو اللبنانى السابق، ليحدثنا عن التنفس والضغط والتآلف والتفتت بل ليحدثنا عن الدستور السابق والدستور الحالي وليقل لنا أيهما كان أضمن للسيادة الشعبية، وأطبق على الأماني اللبنانية ثم ليقل عن الإدارة السابقة وما كان فيها من ضبط ودقة وسرعة وعن الإدارة الحالية المضعضعة (إدارة الأوراق والدبابيس).

ليحدث الوفد عن كل ذلك ويبين الفوارق بين كل ذلك ليرى اللبنانيون أية خسارة خسروا وأية خديعة خدعوا ثم ليقل لنا الوفد عما يصير إليه لبنان القديم واللبنانيون الصميمون إذا استمرت الحال عشر سنوات على هذا المنوال. ليقل لنا كم يبقى في لبنان من أبنائه، ومن هو الشعب الذى يرث اللبنانيين ومن يكون غداً رئيس الجمهورية ونواب المتن والبترون وكسروان أسركيس قيومجيان أم أوهانس ابليان.

ليبين الوفد للبنانيين هذه الحقائق السوداء المخيفة الساحقة القاتلة لعل بقية دم تجري في العروق ولعل بقية عقل تقيم في الدماغ، فتستدرك الخطر قبل وقوعه، وتنصب لهذه الصاعقة المنقضة القضيب اللاقف.

ولقد أدرك – والحمد لله – بعض النواب اللبنانيين خطورة الموقف فرأى الدكتور جميل تلحوق أن القرى اللبنانية أهملت وبارت فوقف صارخاً في المجلس على مسمع من مندوب المفوض السامي وأولياء الأمور « إن هذه حالة لا تطاق الى متى تمتص بيروت الملحقات أفكلما قامت مصلحة هناك هدمت وأرسلت أنقاضها إلى بيروت لتضخيم بنائها».

ولقينا أمس الأستاذين دموس والمنذر فقال لنا الأول إني أصبحت على رأيكم وسوف أصر عليه ولو رجعتم أنتم عنه ثم التفت إلى الأستاذ المنذر وسأله عما إذا كان هو أيضاً من هذا الرأي فقال بالإيجاب. ولقينا أمس رئيس حزب التضامن اللبناني فحمد لنا موقفنا وقال لنا إن حزبه سيهتم بهذا الشأن متى بدأت أعماله وليس هذا فقط فإن هناك دوياً خفيفاً في نفس اللبنانيين أشبه بالدوي الذي يبقيه الرعد في الآذان بعد انقضائه لكنه دوي مستطيل ما زالت رعود السراي الصغير ونريد بها ضرائبها وضرباتها متوالية.

لقد قلنا مراراً إن الذين طلبوا تكبير لبنان فهم إنما طلبوه على نية أن يحملوا الى الأراضي المنضمة إليهم النعم التي كانوا يهنأون فيها فإذا الأراضي المنضمة تحمل إليهم النقم التي كانت تتشوى عليها.

لقد صبر اللبنانيون القدماء طويلاً على هذه الحال ورضوا للمتنعمين بالوظائف استمرار هذا التنعم ببقاء لبنان كبيراً على نحو ما هو الآن ولكن بشرط أن لا تستنزف هذه البهارج وتلك المرتبات دماء اللبنانيين، وبشرط أن لا يصبح لبنان القديم خراباً يباباً، وبشرط أن يعمل على استرجاع المهاجرين لتعمير القرى اللبنانية فإذا في الآذان صمم وإذا الوظائف الكبيرة تخلق محاباة ومساندة وإذا الفلاح يجر السكة بكتفه بدل الحيوان، وإذا الضعفاء يأكلون الزوان بينما الموائد تقام في كل مكان من أموال هؤلاء الضعفاء أنفسهم فمن يطيق هذا إلا إذا كان حجراً أصم، أو حيواناً أعجم.

لقد قلنا لهم خفضوا ١٥ في المئة من مرتبات الوزراء والنواب والمحافظين ورؤساء الدوائر.

وقلنا لهم أعطونا وزارات أربع على الأكثر.

وقلنا لهم أعطونا مجلساً مؤلفاً من ثلاثين على الأكثر.

وقلنا لهم لا تعطوا الموظف أكثر من معاش واحد.

وقلنا لهم اجعلوا المحافظين على درجة واحدة فلا يتناول أحدهم المئة ويتناول الآخر الخمسين.

وقلنا لهم عودوا بنا إلى التنظيم الإداري الصحيح الذي كان للبنان القديم فتقتصدوا بثلث الموظفين وبثلثي الوقت وتوفروا على طلاب المصالح أموالهم وأوقاتهم.

ثم قلنا لهم إننا معاشر أبناء لبنان القديم نصر كل الإصرار على أن تعود جميع الدوائر والمحاكم التي كانت لنا قبل تكبير لبنان إلى ما كانت عليه فإنها دواء قرانا ومبعث حركتها الاقتصادية وسبب نهضة أثمان أملاكنا.

قلنا لهم كل ذلك فقالوا لنا بسكوتهم موتوا فلا رحمكم الله.

وقالوا لنا بأعمالهم نحن وإخواننا وبنو أعمامنا وكل نطفة تنتسب إلينا قهرناكم على هذا الملك نعمل فيه ما يطيب لنا فإن حركتم ساكناً قتلنا أرواحكم في صدوركم

وأقمنا في وجوهكم الزحافات تحمل النار والحديد، فأطرقنا رهبة للقوة ولفتنا وجهنا – نحن معاشر اللبنانيين القدماء – جهة فرنسا وقلنا لها والدموع ملء عيوننا والأحزان ملء قلوبنا: يا أم الحرية! ويا قوة المستضعفين ويا نجدة المقهورين على حقوقهم: بالوفاء الذى عرفته فينا، وبالضحايا القديمة والحديثة التي قدمها كل منا للآخر أعيدي علينا لبناننا الصغير وهناءنا الصغير وسيادتنا الصغيرة.

أعيديها إلينا فتبقي في هذا الشرق ذلك الخمير الذي فعل ويفعل فعله العجيب في نفوس أبنائه لحبك وعظمتك.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٢٧، عدد: ٢٩٠٠، ص:١

****

لا تجوروا على الأطراف
وتحافظوا على الرأس

لا نوجه خطابنا الى فخامة العميد فهو منشغل عن لبنان بسوريا ولا تحمل بطيختان في يد واحدة، إذن فنحن نوجه خطابنا الى الأستاذ إدة[١] الذى علق عليه لبنان آماله، وما هدأت تلك الثورة التي احتدمت على عهد الوزارة الخورية[٢] ولا سكتت الصحف بعد ذلك الصخب إلا على رجاء إنقاذ الموقف بعمل مجاني كبير تستريح إليه النفوس وتطمئن إليه الخواطر.

يجب أن يعلم الأستاذ إده أن الأمر الوحيد الذي وطد له الثقة في نفوس اللبنانيين هو ما اعتقدوه فيه من الإقدام على جلائل الأمور، والإقدام على جلائل الأمور في عرف اللبنانيين هو محاسبة كبار رجال السراي عما يتناولون من مال الدولة غير مراعٍ في ذلك مقاما، ولا عاصم منه أحداً.

ويجب أن يعلم الأستاذ إدة أن لمعانه في سقوطه وهو يقارع الرؤساء عما يغرفون للترف اليوم، وعما يكنزون للترف غداً في حين أن الشعب نسي شكل الرغيف لطول العهد به، أجل يجب أن يعلم الأستاذ إدة أن لمعانه في سقوطه وهو يقارع في سبيل اللبناني البائس لهو أبقى على الدهر من بقائه وهو يحاول جر الإصلاح بملقط صغير.

نحن لا نقول للأستاذ إدة أن قف مشاريعك في القضاء والإدارة برغم ما فيها من التضحية بكثير من البيوت، ولكننا نقول له اجعل عملك في أطراف البلاد وعملك في العاصمة على قدم المساواة فلا تسحق الضعيف الصغير لتزيد في ترف القوي الكبير، بل إذا اضطررت الى هدم الكوخ في القرية فلا يجب أن تقف عن هدم شرفة القصر في المدينة.

من المسلم به أن إغلاق المحاكم في القرى والاستغناء عن عشرات الموظفين في

الدوائر على ما فيها من تعميم الضائقة لا يأتي بمثل الفائدة المالية التي تنتج عن تعديل قانون التقاعد وإنزال مرتبات الرؤساء والوزراء شيئاً في المئة وإلغاء التعويضات جميعها، والاكتفاء من السيارات بسيارة لرئيس الجمهورية، إلى آخر ما هنالك من الزوائد التي إذا قطعت عن أصحابها يستطيعون أن يعيشوا بما يبقى لهم من الأصول إذا لم يكن (بالزنطرة) التي يظهرون بها اليوم فبكثير من السعة التي لم يألفوا خيالها قبل هذه الأيام.

لقد لمس رئيس الوزراء هذه الأيام بؤس البيوت اللبنانية ورأى بعينه دموع أرباب العيال يتلمسون الرغيف عن طريق الوظيفة فلا يجدونه، أفيجوز ضميراً أن يموت هؤلاء شقاء وجوعاً في حين أن باحة السراي تكتظ بسيارات الرؤساء والوزراء والأقوياء وهي عصير هذه القلوب المنسحقة التي مثلت هذه الأيام في حضرة الأستاذ الرئيس.

وإذا كان الشعب اللبناني شعباً أليفاً مسالماً لا يعرف أن يثور أفليس في أفراده ونابغيه والأستاذ إدة في طليعتهم من يعرف أن يثور في سبيل العدل وفي سبيل الإنسانية.

عندما قلنا في لبنان مجاعة أنكروا علينا القول، غير أن رئيس الوزراء نفسه شهد هذه المجاعة الخرساء التي تعض العائلات المستورة من الطبقة الوسطى، تلك العائلات التي تؤثر أن تفنى عن آخرها دون أن تظهر بمظهر المحتاج، تلك العائلات التي تطوف بأبنائها على الدوائر الحكومية فتراها مقفلة وتطوف بها على البيوت التجارية فتراها مقفلة، وتطوف بها على شركات الاستثمار فتراها مقفلة، فتصور رجوع أرباب هذه العائلات الى بيوتهم مخفقين، وتصور موقفهم بين نسائهم وأطفالهم وهم في مثل هذا اليأس الخانق.

قل لي بربك ماذا ينفع هذه البيوت الجائعة أكان لها جمهورية أو لم يكن، أكان لها وزارة أو لم يكن، أكان لها مجلس نواب أم لم يكن، أفنلومها بعدما رأت من إرهاق الوضع الحاضر وجشع رجاله إذا هي لجأت الى ممثل فرنسا بإنزال الستار على هذا

المرسح الى أن تستعيد البلاد انتعاشها الاقتصادي.

ولكن البلاد انتظرت الأستاذ إدة وعلقت آمالها على الأستاذ إدة وقد رضي الأستاذ إدة أن يأخذ على عاتقه مهمة الإنقاذ فماذا تراه فاعلاً؟

إن الأستاذ إدة لا يستطيع أن يفعل شيئاً إذا لم يدعمه اثنان هما رئيس الجمهورية ومندوب المفوض السامي.

وإذا كان لا بد من ركوب الديكتاتورية الى الإنقاذ فأحبب بها مركباً.

أما أن نبقي هذا الرأس الضخم فى سراي بيروت بوزاراته الست ونوابه الأربعة والأربعين وما ينبت على جذوعهم من الطفيليات ثم نعمد إلى رجليه فننحتها حتى تصبح كالخنصر وإلى جسمه فنضغطه حتى يصبح كالرق فإننا ننتقل من قزم قبيح إلى قزم أقبح ومن عيش عسير إلى عيش أعسر.

بشارة الخوري

البرق، ٢٨ تشرين الأول ١٩٢٩، عدد:٣٢٨٨، ص:١

****

الديموقراطية وشاهدنا عليها

- الإنصاف الضائع - وعد سمو الأمير للجمعية اللبنانية في باريس - حق لبنان في تقرير مصيره.

لم نكن لنهتدي إلى العلاج الشافي؛ ضاعت الملطِّفات، وهدرت المراهم، والمريض لا يزال على حاله، حتى بتنا نخاف أن يشتد به الداء ويمشي به إلى الفناء.

نحن إذا عمدنا إلى الصراحة قالوا: إنك تَجرح العواطف وتثير الكوامن، وإذا نحن عمدنا إلى التلميح قالوا إنك لا تشفي عليلا، ولا تنفع غليلا.

حِرْنا وحار القارئ على السواء. كيف لا، وقارئنا اعتاد الحياة الديموقراطية والفكر الحر، ولكن الوسط الذي نحن فيه لم يعتدهما، فلْنُسَمَّرْ ولْيُسَمَّر القارئ في مكانه، إلى أن يعتاد الوسط تلك الحياة، وهذا الفكر، ولا بأس! لا بأس أن نخطو في سبيل الحياة خطوة واحدة في كل قرن...

نشرنا مقالةً في العمر أُفْعِمَت[1] من الفكر الحر والروح الديموقراطي؛ أُفعمت مُرَّ الحقائق التي لا تُدحض؛ أفعمت منها ومن أدب الكاتب معا. وها قد مضى الشهر تلو الشهر، ولا نزال نُرمى بأننا أنغرنا[2] الصدور ولم نقصد بها - والله شهيد - إلا خدمة الحق، وخدمة البلاد.

أجل إن المجموع الذي نحن فيه، لا يزال متأخرا عن الفئة المتعلمة، متأخراً كثيرا؛ فإ ذا اضطرت هذه الفئة أن تساير هذا المجموع بأفكاره، أن تمشي إلى جنبه، وتُسَخِّر أقلامها ومعارفها لأمياله وتقاليده، فأية فائدة لتلك الأقلام وهذه المعارف؟ خَيرٌ لها أن لا تكون مِنْ أن تكون على حالها هذه! خير لها لو ظلت تلعب والنسيمَ على ضفة النهر.

أمامنا أقاويل كخيوط العنكبوت، إذا عصفت بها ريح الحقيقة عصفةً مزَّقتها تمزيقا. وسكتنا تجاه هذه الأقاويل لا إقراراً ولا تصديقاً، ولكننا سكتنا حتى لا نرمى بما رُمينا به من تهمةٍ نبرأ إلى الله منها.

يقولون إننا ندعو إلى الحياة الديموقراطية، والحكومة الديموقراطية.

فما هي هذه الديموقراطية إذا لم تلبس الحرية دثاراً، وتتخذ الجرأة الأدبية مناراً؟ بل ما هي هذه الديموقراطية التي ينشدونها إذا نحن لم نجسر أن نوجه إلى الكبير انتقاداً، مهما التزمنا جانب الأدب والاحترام فيه؟؟؟

يقولون: نريد أن نجاري الغرب؛ يقولون ذلك وهم يرون فتكات الأقلام في رؤساء حكوماته، وكبار زملائها؛ يرونها كيف تنتقد، وكيف تخاطب، وكيف تُكرم، وكيف تُحقِّر؛ ثم إذا حاول أحدنا أن ينبه إلى تقصيرٍ عندنا، قامت عليه القيامة، كأنه انتهك قدس الأقداس وجاس سدرة المنتهى.

لا ! لقد سبق القلم إلى التشاؤم مُرغما.

لا ! فإن الروح الديموقراطي تربع في الصدور. ومهدت العلوم العصرية في الرؤوس مقاماً للحرية.

لقد قال سمو الأمير(٣)، أعزَّه الله، في إحدى خطبه النفيسة:

«استقلالنا أولاً، وبعد، فالمساومة على المساعدة»

ونحن – معشر اللبنانيين – نريد أن نستسنَّ سُنَّة الأمير وننهج نهجه؛ نريد أن نقول على نحو ما قال: «استقلالنا أولا وبعد، فالمداولة في الصلة».

لقد نقل إلينا بعض أعضاء الجمعية اللبنانية في باريس، قول سموه لهم، ذلك القول المملوء بالروح السامي والحرية الجميلة.

لقد قال: «اطلبوا استقلال لبنان وأنا أساعدكم عليه وعلى توسيع حدوده، وعلى كل ما يعود عليكم بالرغد والهناء».

ولم نُكبر ما نقله إلينا إخواننا في باريس ونحن أعلم الناس، بما في صدر الأمير من الحب للبنان وأبناء لبنان.

وها نحن نطلب استقلال لبنان، ووعد الأمير مُنجَزٌ!

قالوا إن قلب سوريا يتحسس بروح الفتح، وهي إنما تمد يدها للوحدة الاقتصادية، إذا مد لبنان عنقه للوحدة السياسية.

أجل، لقد قالوا ذلك. ولكن قولهم يحتاج إلى برهان!

وقالوا: ما ضرَّ سوريا وهي القائلة «إن لبنان بمنزلة العين واليد مني» لو تركت له استقلاله السياسي، وارتبطت به العروبة الاقتصادية؟ ما ضرها، وهو يرى سوريا أعز من روحه، يتوقف نُموه على نموها، وازدهاره على ازدهارها؟ ما ضرها، وهو يبسط من موانيه أيدياً تستقبل الصادرات والواردات، إذا كانت المسألة الاقتصادية هي الأصل في التوحيد؟.

وعندئذٍ لا تعمل سوريا على قتل لبنان إذا صدقت دعوى المحبة، ولا نُضطر أن نقول (وقتلوا ملكا معي).

إن الحب الصحيح هو الحب الذي يجلُّ عن المساومة، وهذا لا يتجاوز الوحدة الاقتصادية بعكس الوحدة السياسية التي تشف عن روح السيادة، شف الثوب الرقيق عما تحته.

«يقولون: إن للشعوب الحق في تقرير مصيرها ومستقبلها» فإذا كان ذلك كذلك، فلماذا يُمنع شعب لبنان من تقرير مصيره؟».

إن لبنان كان ولا يزال، قطعةً مستقلةً له حكومته، وله ماليته، وله امتيازاته، وله حقوقه في سجلات حكومات العالم المتمدن. فكيف يريد إخواننا هؤلاء أن يترك لهم كل ذلك، ولا يمهلونه ليرى ما سيكون من شأن حكومتهم الجديدة، وعندئذٍ لا يصعب عليه أن يعانق سوريا، تضمه ويضمها سياسياً، بعد أن تكون ضمتهما الوحدة الاقتصادية، والأمور مرهونة بأوقاتها.

افتتاحية

البرق، ١٩١٩، عدد: ١٤٠-٦٥٠، ص: ١

****

ومـن لـم يـذد
عن حوضه بسلاحه... يهدم [1]

سكتنا حتى أصبح السكوت عبئاً. ولو أنصفونا لقالوا: أبيٌّ يأنف التسفُّل إلى الصغائر، فلا يستعد لمناوأة الخصم سوى بكلمات لا تستخف ولا تنبو.

عجباً لهم! أوَ كلُّ الجرائد التي تُماشي الانتداب، هي مشتراة؟ حتى الغنية بمادتها والغنية بأدبها؟

ذلك ما كتب به مراسل جريدة «الاستقلال» التي أحياها جبرائيل بك تقلا[2] إلى جنب جريدة «الأهرام»؛ أجل ذلك ما قاله عن معظم الصحافة البيروتية.

وكان من قبله ضرب على هذا الوتر فريق من الجرائدية الصفر، هزأنا بأقوالهم لما نعلم من سابقاتٍ لهم صرفوها بين خفض و «نصب».

ولكن هل لتقلا بك أن يقول لنا، لماذا بعث «بالاستقلال» من قبره، وهو نفس الأهرام حرفاً وشكلاً، اللهم إلا ما خصص منه لمناوأة الانتداب الفرنساوي، مقابل ثمنٍ ينقده من دعاة الحجازية[3] وهم كثر؟

ولقد عُرف عن «الأهرام» نفسه أنه ماشى السياسة الانكليزية؛ فكانت هذه المماشاة سلَّماً إلى الثروة التي جمعوا. لقد عرفنا ذلك، فقلنا لبنانيان لم يكن لهما وطن في ذلك العهد، فخدما نفسهما وجعلنا لهما مخرجا.

أما ولصاحب «الاستقلال» ثروته، وله تربيته وله عرقه اللبناني، فكيف يجوز له أن يضع هذا السلاح في يد خصوم ذويه، مهما بلغ الثمن ومهما بُولغ فيه.

صدر «البرق» على أثر انجلاء الترك، ثم أقبل الفيصليون[٤]، ثم تلاهم الإنكليز، وللبرق نزعته اللبنانية لا يرضى عنها بديلا.

وكان «البرق» عرضة للتجارب، فبذل له عن سعة رغبة استمالته، لا سيما ولم يكن هناك غيره جريدة لبنانية لها روحها السياسي، يتألب حوله شعب بأسره، ولكن «البرق» انتصرت على التجارب إلى أن ماشت الفرنساويين.

أجل، لقد ماشت الفرنساويين بعد أن عاهدوها، وعاهدوا قومها على استقلال لبنان بحدوده الطبيعية، ثم السير به إلى الاستقلال السياسي القائم على السيادة اللبنانية، كما هو مبين في الوثيقة التي رفعها الصحافيون، إلى اللجنة الأميركية وقد أنشأها يومئذٍ صاحب «البرق» نفسه.

وكانت «للبرق» منذ ذلك اليوم، مواقفه. فكان الجريدة الوحيدة التي تقول باستقلال لبنان مع الانتداب الفرنساوي، وكانت الوحيدة بين عشرات الجرائد الأخرى تتلقى وحدها السهام داميةً، وتردها الى راشقيها بعد أن تنزع منها الحديد.

وكيف يليق بنا أن نعقَّ الفرنساويين، ونحن وكل لبنان يعلم أن لبنان الكبير ما قام إلا بالمال الفرنساوي، ثم بالدم الفرنساوي؟

وكيف كان يمكن «البرق» أن يكون على غير ذلك، ولا تنكره جماعته ويبرأ منه إخوانه، لا سيما بعدما أثار دعاة الأمير فيصل، أو بالأحرى دعاة الإنكليز، العاطفة الدينية في قلوب العامة حتى عمت المخاوف، ثم زاد في الطين بلَّة سياسة العصابات والتقتيل الذي جرى في الجنوب والشرق، مما جعل الأقليات أين كانوا يرتقبون منقذاً كائناً مَنْ كان؟

وكيف نُلام على الاعتراف بحاجتنا إلى الانتداب، وهذا الأمير فيصل في الأمس، على جليل قدره، كان مِنْ أكبر دعاة الانتداب الإنكليزي؟ فلقد روى لنا بعض الصحافيين الدمشقيين أنه عندما قدمت اللجنة الأميركية عام ١٩١٩ أقام لهم مأدبةً ونقد كل واحدٍ منهم مبلغا من المال، محاولا إقناعهم بأفضلية الانتداب الإنكليزي.

لقد كنا حقيقة من الذين باعوا نفوسهم، لو أننا خالفنا تقاليد الأمة التي ننتمي إليها، أو أننا ماشينا إحدى الدول التي يذكرها اللبنانيون، ولا سيما نصاراهم متى ذكروا مذبحتهم الأخيرة ومذبحتهم الأولى، أو أننا اعتنقنا في حياتنا السياسية سوى مبدأ واحد، هو تكوين قومية ٍلبنانية، مستندين لضعفنا إلى ذراع يساعدنا عليها.

ليغضب علينا من يحلو له الغضب؛ فحسبنا رضى الأمة التي نحن منها، علينا. وهذا رضاها ظاهر بإقبالها على «البرق» حتى لَنُعدُّ أكثر الجرائد انتشاراً. وما كنا لنرتكب هذه السماجة في المباهاة، لولا أننا نُريد أن نُعزز البرهان بكل محسوس.

لقد سمعنا أن الأفراد يرتشون، ولكننا لم نسمع شعباً بأسره يرتشي.

فقد طلب اللبنانيون الانتداب، وردَّدنا نحن صدى ذلك الطلب. فإذا كان هنالك من ذنب ولا نخاله، فهو ذنب الأمة.

على أن الأمة[٥] اللبنانية، – وفيها كبار مفكريها، وكبار قادة الجماعة فيها – أدرى بمصلحتها من أفرادٍ طرحتهم مطارح النوى كل مطرحٍ، فكتبوا إما حسداً وإما جهلاً، وإما لمآرب لا تخفى على البصير.

على أننا لَنربأُ بمَنْ كان لهم بقية احترام في نفوسنا، أن يجازفوا بكرامتهم، فيلقون الكلام على عواهنه.

وكيف يتهموننا وهم أولى بالتهم منا لأنهم يماشون دولةً لم تصادق بغير المال[٦]، ويقتفون مبدأ لا يتفق مع مبدأ الجماعة، فضلا أن لهم في المساومة على الأقلام والمبادئ شهرة تملأ الخافقين[٧].

البرق، ١٩٢٢، عدد: ١٥٨٤، ص: ١

****

١٤ تمـــــوز[١]

كان للإنسان حق ضائع، بل حق مغتصب، فاهتدت إليه رؤوس الأسنة وكرات المدافع.

وكان طريقه النجيع الأحمر، نُثرت عليها الجماجم.

كانت التيجان مستمسكةً بالرؤوس، فكفت ضربة من الشعب الفرنساوي حتى تقلقلت في الهامات، ثم تدهورت عنها؛ وكفت ضربة حتى ساوى القانون بين الملك والرعية.

لا ميزة إلا للعقل، ولا مكافأة إلا للعمل، ذلك هو فضل ١٤ تموز على العالم.

فمن أجل هذا التاريخ اللامع في سماء المجد، آثر الشعب اللبناني صداقة فرنسا.

ومن أجل أنها نثرت الحريات على العالمين: الجديد والقديم، اختارها لتغذّي حريته.

ومن أجل أياديها البيض، في الليالي السود، وثق بها عهوده.

فإذا هو أحبها، فللحرية نفسها. وإذا هو آثرها على غيرها، فلأن أرواح أديانها[٢] لم تترك في قلبه فراغاً لسواهم.

هو ذا تذكار ١٤ تموز في لبنان، مثله حتى في فرنسا نفسها، رايات خافقة، وجوارح خافقة، وثغور تبتسم للآمال.

فإذا كان لـ ١٤ تموز بركته في أميركا[٣]، وبركته في اليونان، وبركته في كل مكان تحرر بعد رقٍّ، فله أيضا بركته في لبنان وما يوم أول أيلول[٤] سوى وليد ذلك اليوم.

فباسم الشعب اللبناني نرفع للشعب الفرنساوي ولحكومته المعظمة أصدق التهنئات، ويتلطف المندوب السامي فخامة الجنرال غورو بأن يبلغ ذلك عنا: فليحيَ ١٤ تموز

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٥ تموز ١٩٢٢، عدد: ١٦٠١، ص: ١

****

أطائفيـــة؟
يا للعار - ويا للخسار

دعونا أمس إلى توحيد قوى الشبيبة على اختلاف مذاهبها ونريد بالمذاهب هنا المذاهب السياسية لأننا لا نرضى أن يسجل علينا التاريخ هذه المذمة ألا وهي التفريق الطائفي في عصر انطوى على أعظم نهضة شرقية خرجت بشعب كالشعب التركي من مجاهل التقاليد البالية إلى معالم المدنية الصحيحة.

وإنه ليخلق بكل ذي مروءة وطنية أن يطوي إلى الأبد هذه الطائفية المرزقة المبددة فهي كالمعاول تعمل في أساس الألفة وتفت في ساعد القومية وتجيء على جميع المصالح العامة لا تستثني مصلحة طائفة ولا مصلحة فرد بل يسقط الجميع تحت ريحها ويؤدي الجميع ثمنها من دمهم ومالهم وكرامتهم وقد رأينا العبر في نفوسنا، ولكن من البلية أننا لم نعتبر.

لقد صفعنا المسيو دي جوفينيل[1] منذ حين صفعة توازي فناء أمة بأسرها ذلك يوم قال: إنني أحمل لكم كل الحريات ما خلا حريتين إحداهما فناء بعضكم بعضاً بحرب دينية.

فلقد وددنا والله أن تسيخ الأرض بكل من في لبنان وسوريا، من شيخها البالي الى طفلها الرضيع ولا تعلق..... بنا هذه الوصمة التي لا تسلم معها كرامة شعب ولا يصح معها الدليل على كفاءته لما هو راغب فيه من سيادة.

ولقد كنا نؤمل أن ننهض جماعات وأفرادا إلى محو هذه الوصمة التي جناها علينا بعض إخواننا فإذا نحن نتوغل في حمأة الطائفية، وإذا نحن ننشر أعلامها وإذا نحن ننفخ في أبواقها.

والله لو أن في أعماق هؤلاء المتوغلين الناشرين النافخين ذرة من عقيدة طائفية لقلنا إن للعقائد احترامها أما وهي رقوة المصلحة أو تعويذة الوظيفة فيا للخسار ويا للعار.

أفأمّةٌ كبيرة تجرح كرامته من أجل مصلحة زيد أو غرام عمرو، – والأمة ترضى بشيبها وشبانها، بعقلائها ومفكريها، وبكل نابض فيها.

لقد كان يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراضنا وعقولنا، فما بالنا أصبحنا يهون علينا ما لم يكن يهون من قبل.

لقد أشرنا أمس إلى الخطر الداهم إلى الدستور الذي يستقل بوضعه المجلس النيابي وخشينا أن تكون الطائفية هي إحدى أسسه ثم علمنا أن خشيتنا في موضعها وأن الدستور سيكون طائفيا لا للطائفية ولكن لإشباع أهواء المتاجرين بها، الخاطبين لوظائف باسمها.

مسكين هذا الشعب. غداً سيرهق[٢] فوق إرهاقه بوزارات سبع. وبمجلسين ضخمين... – وسيرهق فوق ذلك بنظام طائفي سيجعله إلى الأبد عبد الشقاق والشقاء.

ومع ذلك فالشبان سكوت وهم كما قلنا أمس أُساة هذه الأمة.

قرأت في صحف أمس دعوة إلى تأليف الأحزاب السياسية وقد قلنا مرارا إن الأحزاب السياسية هي التي تقتل بها الأحزاب الطائفية ولكن هذه الأحزاب لا تعيش إلا في حكومة دستورية كل الدستورية لا دستورية مرقعة كما نخشى أن تكون.

ولكن هذا لا يمنع من اجتماع المفكرين من كل الطوائف للتعاضد على إخراج دستور يليق بكرامة الأمة ويساعد على إنمائها ويؤلف بين قلوبها – ويمهد الطرق لنيل جميع الرغائب.

البرق، ١٩٢٦، عدد: ٢٥٥٤، ص: ١

****

السياسة

لعنة الله على السياسة

لا يلعنون السياسة عبثاً، فلهم براهينُهم على أنها تستحق لعناتهم.

ولكن، قبل أن تضم إليها لعنةً جديدةً نود أن نعرف ما هي.

إنها في الأصل، حُسن القيام على الشيء، أو قل: إنها حسن التدبير. إذن ولدت طاهرةً بريئةً ولكنها – ويا لسوء حظها – عندما تعرفت إلى البشر.

كأن يقال: ساس الطفل وساس البيت وساس الرعية، فيستفاد من قولهم، عناية بالطفل لينمو، وبالبيت ليعمر، وبالرعية لترقى.

هكذا كانت السياسة!

وجدت الشجرة لتقي مستظليها حرارة الشمس، ولتفرح القلوب بأزهارها، ولتشبع المعِد بأثمارها، ولتدفئ المقرورين بحطبها.

فما ذنب هذه الشجرة إذا جعلوا منها قبضة سيفٍ، وخشب بندقية؟!

وهكذا السياسة لا ذنب لها إذا صيرنا خيرها شراً، ونفعها ضراً.

من ذا الذي لا يستعمل السياسة بمعناها الآخر؟؟ وأريد بمعناها الفاسد الضار؟!

فتَّشتُ كثيرا... لعلي أهتدي إلى ذي نُطقٍ كان في نجوةٍ منها فما وجدته. من ذا الذي لا يُلبس الكذب ثوب الحقيقة، والجور ثوب العدل، والقسوة ثوب الليونة، والرياء ثوب السذاجة؟

استعرض طبقات الناس: من الحكام، إلى الرؤساء، إلى التجار، إلى الصحافيين، إلى المحامين، إلى الكهان، إلى إلى...

استعرض جميع الطبقات وقل لي – إذا استطعت – إن (السياسة) ومعناها جر الربح عن طريق الأذى، غير موجودةٍ أو غير ذات أثر.

وهذه الدواهي التي نتجرع سمومها – معاشر أهل البلاد – أليست نتيجة السياسة؟!

أفما التفريق بين قلوبنا، سياسة؟ أفما الضائقة التي نعاني، سياسة؟. أفما القتل الذي يقع والعمار الذي يدمر، سياسة؟ أفما إهاجة الخواطر وإثارة النعرات، سياسة.

وليس للسياسة مهب واحد. فقد ينفخ ريحها من وراء البحار، ومن رجال الأموال، ومن سرادب المعابد، ومن مكاتب رجال الأحكام، إلى آخر ما هنالك إذا كان هنالك آخر.

وكثيراً ما تكون السياسة زجاجةً من السُّمِّ المُعطَّر.

وكثيراً ما تكون بغيّاً في ثوب عذراء.

وكثيراً ما تكون نفاقا في سُبحة المُصلي.

وكثيراً ما تكون بسمة الخنجر المصقول.

وكثيرا ما تكون... وكثيرا ما تكون.

فلعنة الله على السياسة، وأحاذر أن أقول: على السياسيين.

البرق، ٢٨ شباط ١٩٢٦، عدد: ٢٥٤١، ص:١

****

دستور البلاد عنـوانهـا

بعض أعضاء المجلس يجهلون خطورة العمل الذي انتدبوا له - العالم يتطلع إلينا - لا طائفية في الدستور - فعل مصطفى كمال لا قول نابليون، الطائفية عار الأبد واستعباد الأبد.

نرى من أقدس واجباتنا أن لا نقف سكوتاً تجاه ما يسمونه القانون الأساسي الذي يستقل المجلس بوضعه، وعلى مسؤوليته؛ والذي - لسوء الحظ - يجهل بعض أعضاء المجلس، مبلغ التبعة التي وُضعت في أعناقهم. فإما أن تحمل لهم بركة الأبد أو لعنة الأبد .

أجل، إن بعض أعضاء المجلس يجهلون خطورة هذا الأمر، فهم لا ينظرون إليه من حيث هو أساس لحياة أمةٍ توّاقة إلى النهوض، بل ينظرون إليه كعلاج مسكّن للأهواء، كفيل بالإرضاء، جاهلين أن الدستور من الأمة كالأساس من البنيان، وأن البنيان لا يكون قوياً ولا يعيش طويلاً إلا إذا كان أساسه راسخاً متيناً خالياً من العيب.

إن سوريا، بل إن لبنان المهاجر، بل إن العالم الذي يهمه أمرنا يرسل إلينا نظر الناقد المترقب، وهو لا يلبث أن يلفظ حكمه لنا أو علينا، عندما يطّلع على الأساس الذي نُشيد عليه بنايتنا الوطنية. فإذا كان هذا الأساس على نحو ما يريده معظم أعضاء المجلس أن يكون، فلا كان لبنان ولا كان الدستور.

يريدون أن يقيموا أساساً طائفياً، وأن يشمل هذا الأساس حتى الوظائف: إدارية وقضائية؛ أي يريدون أن يرجعوا بنا إلى نظام لبنان القديم. أي يريدون أن يَسُمُّوا البلاد بهذا الروح الخبيث فلا تُشفى منه إلى أبد الأبيد.

ويقولون إن البلاد لا تزال خاضعةً لعنعنات الطائفية، مأخوذةً بنفوذها، وإن الوقت لم يحن بعد لاقتلاع هذه الجرثومة... إن الوقت لم يحن بعد... فهل سُمع بأسخف من

هذا القول؟ وهل إذا كان الوقت لم يحن بعد، نقوم نحن – المُنكرين الطائفية، المُقبحيها – فنحفر خندقاً في قلب دستورنا حتى نزيدها تمكينا؟

سوف لا نجادل أنصار الطائفية في هذا المقال، بل نرجئ الجدل إلى ما بعده، فقد يطول بحثه. ولكننا نريد أن نعلن براءة موقف المقاطعين الذين أبوا أن يشاركوا المجلس في أمر لا يستطيعون معه أن يُعدّلوا أو يُرجّحوا مادةً أو يبطلوا حرفاً من الناموس الذي يضعه المجلس الكريم.

يقول رئيس المجلس في خطابه: إننا نريد أن نحكم الناس كما يريدون لا كما نريد نحن. وهذا القول وإن نُسب إلى نابليون، فهو مغلوط ولا سيما في الشرق الذي قال فيه فيلسوفه: «إنه لا يصلح بغير مُستبدٍ عادل»[1].

ومن الأمثلة الدالة على صحة هذا القول، موقف مصطفى كمال باشا[2] مع الشعب التركي. فإنه لو شاء أن يحكمه، كما يريد الشعب، لكان اليوم كما كان من مئات السنين يرعى في مجاهل الانحطاط ويضرب في مغاور الجهل.

إن التاريخ يُنبئنا أن الأفراد هم الذين كانوا ينهضون بالأمم، لا الأمم هي التي كانت تنهض بالأفراد. فإذا كنا نريد أن نماشي العامة، فمصيرنا ولا ريب، إلى القرون المتأخرة؛ لأننا في الحالة هذه نكون نمشي إلى الوراء ونمشي بمضاء القوانين وسلطة المُنفذين.

لا مشاحة في أن مجمل الشعب اللبناني هو من أرقى شعوب العالم، فلا يُعوزه للوثوب، إلا زعماء مخلصون كل الإخلاص؛ زعماء نهضةٍ لا زعماء وظائف، وزعماء أمة لا زعماء طوائف.

إن الشعب اللبناني مُجمع على تقبيح الطائفية، إذن فهو شعب فهيم. وإذا قام مَنْ يقول بإبقائها «موَّقتاً» فليعلم أن هذا «المُوقت» هو الخلود بعينه.

إن الطائفية عنصر فاسد في جسم الوطن. وطبُّ الأرواح كطب الأجسام. فكما يقضي هذا ببتر كل فاسدٍ من جسم الرجل، فقد وجب على ذاك أن يقضي على كل فاسد في جسم الوطن.

نعود فنقول: إن الشعوب يجب أن تُحكم كما يريده العصر الحالي، حتى لا يسحقنا دولابه. فلا الإسلام ولا المسيحية بدافعين عنا أذىً يلحقنا من مجرد التعصب لهما، بل بالعكس؛ فإننا بوضعنا الطائفية في صلب دستورنا، نكون قد سلَّمنا العالم المتمدن صكاً رسميا يشهد علينا بأننا لا نستحق حتى الانتداب، من الدرجة الأولى.

أجل، إننا لَنَدفع إلى العالم المتمدن، هذا الصك وكأننا نقول لهم فيه: إننا قوم لا يأمن بعضنا البعض الآخر على مصالحه ومرافقه، حتى في منصات القضاء. ولذلك فقد جعلنا لكل طائفةٍ منا رقيباً على مصالحنا ومدافعاً عنها.

وإذا قلنا لهم ذلك فلا ننس أنهم يقولون لنا: إذا كنتم أنتم لا تأمنون جانب بعضكم، فكيف تريدون أن نأمن نحن جانبكم، على مصالح رعايانا؟ فأنتم الذين حكموا على أنفسهم وأقروا عليها، والمرء يؤخذ بإقراره.

البرق، ٢٦ آذار ١٩٢٦، عدد: ٢٥٦٠، ص: ١

****

الدستور قدس أقداس الأمة

إن من يفرِّط بحرف منه فقد طعن شرفه

إذا اعلولى صوتنا بالشكوى لهذا التبذير، وإذا اعلولى صوتنا بالإنذار بسوء المصير، وإذا تململنا من تتبع الحكومة الجديدة، سياسة الاسترضاء التي أنهكت الأمة، وقضَّت مضاجعها، وشردت أبناءها هرباً من ضغط الضرائب تُنفق على المظاهر والزخارف – إذا اعلولى صوتنا من جميع المهازل والفواجع، فقد يهون كل ذلك إزاء ما نخشاه من إقدام الحكومة – من إقدام أول حكومةٍ وطنية على التفريط بالدستور.

إن كل ما تقدم يُستطاع إصلاحه بالحزم والتجرد والإخلاص؛ أما أن يُفرط بحرفٍ من الدستور، فإنه لا يُستطاع تعويضه، وإنه لجناية على مستقبل الأمة وشرفها وخيالها الأسمى.

الدستور! وهو ناموس الأمة، يجب أن تذود عنه بأرواحها، حتى إذا تجرأ أحدٌ على مسه ولو تأويلا، رفسته برجلها فهوت به من حالقٍ إلى الحضيض.

الدستور! وهو خلاصة أماني الأمة، بل وليد جهودها، بل رمز مجدها. فإذا ما جرؤ أحد على استخدامه لمصلحته أو تعطيله لمصلحته، فقد أعلنته البلاد خائناً، ونبذته نذلاً، ورذلته وغداً.

ونحمد الله! نعم نحمد الله! أن الرجال الذين عُهد إليهم بتنفيذه – ونريد بهم حكومة اليوم – هم من خيرة الرجال لهم ماضيهم؛ وهو مما يجعلنا نطمئن إلى أن الدستور لا يفرَّط به مهما حاول المتنفذون، كائناً من كانوا، أن يستفيدوا من هذا التفريط. وما الدستور إلا نصُّه، وما هو إلا السيادة الداخلية المطلقة في الإدارة المالية والقضاء، ما خلا تحفظاتٍ طفيفةً يقضي بها صكُّ الانتداب للدولة المنتدبة، وقد لا تتعارض والدستور بشيء.

فإذا كان هناك تفريط، وإذا كان هناك تأويل، فإنما المسؤول به أصحابه المباشرون، وهم رجال الحكومة الذين عرفوا مقدار ثقتنا بهم من حيث شرف الضمير، ولم نقل من حيث المضاء، ولا من حيث حُسن التدبير؛ لأننا ننتظر الأعمال، ولأننا أصحاب رأي في شكل الإدارة، صرحنا به مرارا ورجونا من الحكومة أن تسلكه. فمتى سلكته أو جنحت إلى سلوكه وقفنا في صفوفها ورفعنا لها ألوية الحمد.

كثيرا ما تأخذ الحكام نشوة الحكم، فيتذرعون بكل الوسائل لاستمرار هذه النشوة. وقد يُقدمون على تسخير الدستور لمآربهم، ولكن الدستور المُستمد من روحية الأمة، هو الذي ينتصر في آخر الأمر، والمنتصر الحقيقي هو المنتصر الأخير.

إنها لتبعة شديدة الخطورة هي هذه التي تُلقى على شرف الوزارة الجديدة. وقد حمدنا الله – كما قلنا – أنها مؤلفة من خيرة الرجال، أصحاب الضمائر الحية والعلم الصحيح. ذلك لأننا نعتبر أن أقل خرقٍ في الدستور، أو أقل تساهلٍ فيه، تصبح سابقةً للحكومات التي تلي، تجني على مقدرات الأمة، وتحطم آخر سلاحٍ لها بما تدعيه من كفاءة.

إن أمام الحكومة تجارب كثيرة لا نبالي منها أي تجربة مهما بلغ خطرها. إذ إنه يُستطاع إصلاحها، اللهم إلا تجربة الأمانة على إنفاذ الدستور بحرفه مهما كلَّف الأمر.

البرق، ١١حزيران ١٩٢٦، عدد: ٢٦١٠، ص:١

****

دستور!...

لا جدال في أن الحوادث برهنت على أننا لا نصلح لِحُكم أنفسنا بأنفسنا. ليسمع هذا جميع مَنْ لهم آذان.

وإلا فليقولوا لنا إذا كنا لم نرجع خطوات إلى الوراء منذ عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٢٩ بمعنوياتنا وماديانتا، دون أن نفكر بوقف هذه الحركة الرجعية.

وإلا فليقولوا لنا إذا كنا عرفنا قدر النعمة التي ألقاها الحظ في يدنا، ونريد بها هذه الخطوة في سبيل الحكم الوطني والسيادة القومية.

وإلا فليقولوا لنا إذا كنا منذ أيار ١٩٢٦[1] إلى ١٩٢٩ استطعنا أن نصون الدستور من الشوائب أو إذا كنا عرفنا له قيمته؛ فَلِمَ نُساوم عليه حتى في أحقر المصالح الشخصية وأتفهها؟.

لا يجرؤ أحد الإنكار أن القوم في السراي الصغير، إنما استعملوا الدستور لقضاء شهواتهم، بكل ما في الكلمة من المعاني، ولقضاء مصالحهم من جميع أطرافها.

وإلا فليقولوا ماذا أثمرت المعارك الوزارية منذ بدء نشوبها؟ وبكلمة أوضح، ماذا فعلت الوزارات التي حلَّت محلَّ سابقاتها من خيرٍ للمصلحة العامة، وماذا اتخذت من حيطة لِصَون سُمعتنا كشعب ذي كفاءة لحُكم دستوري؟.

أجل! ماذا فعلت الوزارات المتتالية على لبنان، إلا اتباع سياسة الاسترضاء، واستثمار المصالح؟ وفي عهد أي وزارة لم يدخل أفواج جديدة من الموظفين، فوق الأفواج التي أدخلتها الوزارات السابقة؟ وفي عهد أية وزارة لم تكن خزينة الدولة كالأثداء تقطر المال في أفواه المتزاحمين عليها؟.

لقد دخلت أفواج الموظفين باسم الطائفية، ودخلت أفواجهم باسم المصالح الانتخابية، ودخلت أفواجهم باسم الحماية الوزارية. وبعد ذلك يطلبون إلى الشعب اللبناني أن يُحب الدستور وأن يُصلب للدستور.

إن الذي يظن أن هذا التحمس للمعارك الانتخابية ناتج عن روح دستورية، فقد أخطأ، وأن الذي يقول ذلك فقد مَوَّه.

إن الانتخابات في لبنان، يقوم بها الأفراد الذين يطمحون إلى استثمار المصالح عن طريقة النيابة – وللقاعدة شذوذها – إذن فهذا الإقبال على صناديق الانتخاب ليس مصطنعاً فحسب، بل هو مُشْرىً بالمال، محمول عليه بالوعود لصغار العمال، مدفوع إليه بالنكايات والمصالح المحلية.

ولقد كان الأمر غير ذلك، لو شاء أولو الأمر أن يزينوا للبنانيين الحياة الدستورية، بالترفيه عنهم من جهة الضرائب، وبإجراء العدل على السواء بين الخصوم والأصدقاء. ولكن شيئاً من هذا لم يكن، بل هم تمادوا في إرهاق الأعناق بالضرائب، وفي قتل العدالة انتصاراً للحزبية، الأمر الذي حمل الشعب على المقابلة بين الماضي والحاضر، فكان فرقاً جسيما، وكان خطبا أليماً.

وأين هي هذه الروح الدستورية في صدور اللبنانيين؟ وأين هو هذا الإخلاص في صدور المرشحين؟ فلا الأولون طالبوا مرشحيهم بالمناهج، يتقيدون بها لمصلحتهم، ولا الآخرون تحسسوا بالروح الدستوري، فنظموا أحزابهم، ونشروا خططهم، ليقال إن هناك على الأقل شكلاً دستورياً يستحق هذا الثمن الذي هو كناية عن إرهاق أمة خائرة القوى تحت عبءٍ لا تقوم به الجبابرة.

لقد أرسلنا هذه الكلمة تمهيدا لكلماتٍ، على رجاء أن ينبعث في القوم روح جديد، فنقرأ للمرشحين وعودهم ونسمع للبنانيين إرادتهم – إذا كانوا حقيقةً يريدون أن يُقلدوا البلاد الدستورية، ويستمروا على اعتناقهم الحياة النيابية.

بشارة الخوري

البرق، ١٥ نيسان ١٩٢٩، عدد: ٣٢٠٦، ص:١

دستور ولكنه
دستور من عجـــين

لـو بعث الشـهداء اليـوم لشنقوا مـرة ثانيـة – تجارة البـلاد تستـغيث – نأكل في حصيد الأتراك.

دستور من عجين

لا تظننا نهزل إذا قلنا لك إن الدستور اللبناني مصنوع من العجين؛ وأنت تعلم أن دساتير العالم مصنوعة من جثث بنيها ممزوجةً بدمائهم. فلذلك كان الدستور اللبناني – العجين – قابلاً – بحكم رخاوة مادته – لأن تقتطع منه ما تشاء، وأن تُكيف منه أية صورة تشاء، بعكس الدستور المصنوع من جماجم الضحايا الصلبة، التي لا تموع في يدٍ، ولا تتفتت تحت إزميل.

والدساتير لم تكن في وقت من الأوقات منحة؛ والمنحة ترد. إذن، فبأيِّ حق يرفع بعض اللبنانيين عقيرتهم على المفوض الإفرنسي، إذا هو شاء أن يقتطع قطعةً من تلك «العجينة الدستورية» التي عجنها بيده وتصدَّق بها عليهم من فضله وكرمه؟ بأي حق يرفع هؤلاء عقيرتهم، وهم لم يُريقوا قطرةً من دم، ولم يرفعوا علماً لثورة، ولم ينقلوا قدماً إلى تضحية؟.

أجل، لماذا يتبجح هؤلاء الرافعون عقيرتهم، بالاحتجاج على مس الدستور، رغم أنه مساس بكرامة اللبنانيين، في حين أنه لا علاقة لكرامة لبنان في الأمر، فالدستور اللبناني ثوب عاريةٍ نسجته يد الدولة المنتدبة، وخلعته على لبنان. فهي إذا رأته طويلا قصرته، أو ثقيلا خففته، وإذا كان الفصل حاراً رقّقته، وإذا كان الفصل بارداً سمّكته؛ ولا حق ولا شبه حق لأي لبناني أن يتدخل في الأمر، وإلا فلينسج هو دستوراً لنفسه إذا كان في وسعه أن ينسج.

ولكن أنَّى للبنان أن «يعجن» دستوراً، والدستور شعلة علوية ملتهبة هي أعلى وأعلى وأعلى بكثيرٍ مما يُعفِّر به «أسياد» الموقف اليوم، جباههم، من أجل منصبٍ زائل لا يُساوي – على ضخامة اسمه – شِسْع[١] نعل الدستور.

الحياء من الشهداء

وَدِدنا أن لا يكون شيءٌ وراء الطبيعة يُدعى خلودا، حتى لا تُطل من ورائه أرواح المستشهدين منا فترى إلى المهازل – ولا سيما مهزلة رئاسة الجمهورية – التي تُمثل اليوم، قريبا من الساحة[٢] التي قام عليها نُصبُهم التذكاريُّ الحزين، وحتى لا تلتقي عيونُهم بعيون هؤلاء الذين اتخذوا من تلك الضحايا سُلَّما رفعها لهم القدر، يصعدون بها إلى سراي عزمي[٣]، صنيعة جمال، ليواصلوا (پروغرامه)[٤] بطريقة منظمةٍ على أصول مرعيَّة.

لقد استفادوا في تمزيق الأمة طوائف، بل ساعدوا على هذا التمزيق، بأن مثلوه حتى في هذا النصب الهازل الشاحب، طائفتين مسلمةً ومسيحيةً، ثم غنوه «صليباً وهلالا» وهم أبداً يُمثلونه على هذا الشكل في كل مظهر من مظاهرهم الرسمية وشبه الرسمية.

ولو أعطي الشهداء الأعزة نعمة البعث – لا بل شقوته – وعادوا سيرتهم الأولى من انتقاضٍ على الظلم واحتجاج على تفريق عناصر الأمة، وثورةٍ على جلاديها لَشُنقوا مرة ثانية، بلا رحمةٍ وفي نفس الساحة التي أقيم فيها ذلك النصب: بقية القرون الوسطى وصبابة الفن البالي.

ولكن السادة المتنعمين بفضل تلك الأشلاء المقدسة – أدركوا ما يضمره لهم أصحابها من عتاب مُرٍّ – والأرواح لا تحقد – فآلوا أن لا يزوروا تلك الساحة يوم ذكرى إعدامهم، ذلك اليوم الذي تهبط فيه أرواحهم لمصافحة الأحرار الصادقين؛ فتحولوا إلى اليوم الثاني من أيلول ذلك اليوم المجهول منهم، فأمنوا بذلك اصطدام النظر، وما ينطوي عليه من متطاير الشرر.

التجارة تستغيث

تعالت أصوات الاستغاثة من كل بلدٍ لمقام المفوض السامي[٥]، بإيقاف العمل بالقرار الأخير الذي زاد فيه الرسوم الجمركية على مواد وبضائع شتى.

ويعتب رؤساء الغرف التجارية في جميع البلاد السورية – بالدالة طبعا – لعدم أخذ رأيهم في الأمر، قبل إصدار القرار ليُتاح لهم بسط الأضرار البليغة التي تُنذر البلاد بما هو أفظع وأفتك.

وعندنا أن فخامة المفوض السامي، هذا الرجل الحريص على سمعته وعلى مصلحة البلاد التي استؤمن عليها، سيَرجع إلى القاعدة الحكيمة القائلة: «مَنْ طلب الزيادة وقع في النقصان». والزيادة الجمركية الأخيرة في أكثر بنودها، تدخل تحت حكم هذه القاعدة.

والشيء بالشيء يذكر

وغير خفيٍّ أن هذه الزيادة في الرسوم الجمركية، إنما أريد بها سدُّ العجز في الموازنتين (اللبنانية والمفوضية) بسبب النقص في الواردات الجمركية؛ ولم يقتصر العمل عند زيادة الرسوم هذه، بل تعداها إلى مفاوضة باريس بشأن تخفيض الأقساط السنوية المستحقة على البلاد المشمولة بالانتداب، أو إيقافها تمثلاً بالأتراك الذين لا يطالبون بالتخفيض أو التأجيل فحسب، بل إلغاء هذه الديون إلغاءً مطلقا. ونحن على كل حال نأكل من حصيد الترك بقوة إحدى مواد الاتفاق الذي عقده حضرة أديب باشا وربط مصيرنا في هذه الديون بمصير الأتراك لا أكثر ولا أقل.

بشارة عبدالله الخوري

البرق ص١ – عدد ٢٤٣٣ – سنة ١٩٣٢

****

الدستـــور
بين الباكين عليه والمتباكين

شرعوا الآن يلغطون بالدستور وبعد أن ساد البلاد سكتة كانت نتيجة طبيعية للحدث المفاجئ بوقفه أو قل بتعليقه كما هو الأصح[١].

ترى هناك جماعة وهنالك أخرى يرفعون الصوت فيصدعون به ذلك السكون المخيم، ثم يلتفتون إلى الأمة يعاتبونها، وإلى فرنسا يطالبونها رغم أن الدستور حق من حقوقهم، فهو إذن لا يجوز انتزاعه منهم، حتى ولا وقفه، حتى ولا تعليقه.

لقد كان مقضياً على الدستور بهذا المصير، ولقد كان أكثر المشفقين اليوم على مصيره، والمطالبين ببعثه، في طليعة المشفقين على البلاد من «حماة» دستورها، وهم يرونها ويرونهم كالشاة في يد الجزار يذكر الله ويذبح وكثيرا ما كان يذبح ولا يذكر الله.

من هم الذين يطلبون الدستور؟ ولمن يطلبونه وعلى أي الأسس يطلبونه؟

لقد كان المعقول أن يكون النواب الموقفون[٢] في طليعة من يطالبون بالدستور لأنهم أعلم الناس به وأخبرهم بمنافعه ومضاره.

أفلا ترى أن في سكوتهم عن المطالبة اعترافا صريحا إما بمضاره وأما بعدم كفاءة الأمة له؟

فإذا كان الدستور «قتيلا» كما يقولون فإن النواب أهله فكيف يجوز أن يبكي الأصحاب عليه في حين أن أهل القتيل لم تُرقْ لهم عليه دمعة؟!

حسن! إننا نخطب الدستور هذه العروس الجميلة ولكن ما هو المهر الذي أعددناه لها؟ ما هي الجمعيات السياسية التي ألفناها؟ وما هي المناهج التي وضعناها وهل جرؤ رجل من جميع هؤلاء الدستوريين إعلان الإضراب عن دخول الانتخاب إذا عاد الدستور مشوَّهاً؟